ألكساندر دوما

@ketab_n
Follow Me
9.9.2015

طرديّات

(نصوص في الصيد)

ترجمة: محمد بنعبود

www.kutub-pdf.net

مشروع «كلمة»
كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ

ألكساندر دوما

طرديّات

(نصوص في الصّيد)

ترجمها عن الفرنسيّة
محمّد بنعبود

مراجعة
كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الطبعة الأولى 1435هـ 2014م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة»

PQ2222.A6 D8612 2014
Dumas, Alexandre, 1802-1870
[Récits de chasse]
طرديّات (نصوص في الصيد) : منتخبات سرديّة / تأليف ألكساندر دوما ؛ ترجمة محمّد بنعبود ؛ مراجعة كاظم جهاد.-هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2014.
ص. 314 ؛ 14×21 سم.
ترجمة كتاب : Récits de chasse.
تدمك: 978-9948-17-316-8
1-كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ المترجم إلى العربية.
أ- بنعبود، محمّد. ب-جهاد، كاظم.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:
Dumas, Alexandre, *Récits de chasse*

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

طرديّات

(نصوص في الصّيد)

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المحتوى

تقديم 7

شذى شبابٍ وخريف 11

كلب صيدٍ اسكتلنديّ 95

رحلة لصيد ظباء الجبل 153

رحلة لصيد الشحرور البروفنساليّ 167

من «المعجم المطبخيّ الكبير» لألكساندر دوما 273

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تقديم

شغَفان عُرف بهما رائد الرواية التاريخيّة ألكساندر دوما يمنحان نصوص هذا الكتاب نكهة خاصّة ومذاقاً فريداً، ألا وهما هيامه بالطّراد أو الصّيد وولعه بالمحادثة. للشغف الأوّل يكرّس الكاتب براعته العالية في الرصد والوصف، وللثاني يحشِد كلّ قدراته في استعادة محاورات فذّة أو ابتكارها، بأقرب ما يمكن من الواقع، وبألصق ما يمكن بالحياة. حياة هي دوماً حبلى لديه بالمفاجئ والفريد وغير المتوقّع، وهذا كلّه يكتنف أيضاً هذه النصوص.

النصوص الخمسة التالية، اعتاد الناشرون الفرنسيّون اقتطافها من آثار للكاتب عديدة، وتقديمها في باقة واحدة، لأنّها مكرّسة جميعاً لعالم الطرائد والحيوانات البريّة. النصوص الأربعة الأولى تخصّ تجربة الطّراد أو الصيد بصريح العبارة، وأضيفَ إليها نصّ خامس هو صفحات مقتطفة من معجم ألكساندر دوما المطبخيّ الكبير، تتضمّن أجمل تصوّراته لطبخ الطرائد وتقريظاً متواصلاً للذائقة وللطبخ الذي يرتفع لديه بطبيعة الحال إلى مصاف فنّ رفيع.

النصّ السرديّ الأوّل، «شذى شبابٍ وخريف» *Un parfum de jeunesse et d'automne* (والعنوان وضعه الناشرون الفرنسيّون) يشكّل الفصول 39–45 من مذكّرات الكاتب، التي صدرت بعشرة أجزاء في الأعوام 1852–1856 بعنوان «مذكّراتي» *Mes mémoires*. يحكي لنا دوما رحلاته الأولى للصيد، رحلات تلقينيّة لا في عالم الصيد وحده بل في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الحياة الراشدة بعامّة، يتقدّم الفتى الصغير في اكتشافها في ظلّ هزيمة نابليون في واترلو، التي خطّت نهايته؛ نابليون الذي كان والد الكاتب أحد أكبر جنرالاته، قبل أن ينفصل عنه وعن الجيش الفرنسيّ احتجاجاً على نزعة الإمبراطور التوسّعيّة. في ظلّ أمّه التي ربّته هو وشقيقته بعصاميّة بالغة بعد رحيل والدهما، وبرعاية صديق العائلة السيّد دوفيولين، الذي ينهض هنا بصورة أبويّة عالية السخاء، ويقود الصبيّ إلى عالم الصيد بصحبة رفاقه ومرؤوسيه (هو مفتّش للغابات)، يصطحبنا دوما إلى عالم الرجال المكافح المتآخي في رحلات عجيبة يتخلّل اثنتين منها موتان مأساويّان مترابطان. وعلى الرغم ممّا في التجربة من إيلام، تظلّ الدعابة حاضرة هنا دوماً، كما في سائر أعمال الكاتب، هي وعرى صداقاتٍ متينة توحّد البشر، وتجمعهم حتّى بالحيوانات والأشياء.

النصّ السرديّ الثاني، «كلب صيدٍ اسكتلنديّ» *Un pointer écossais*، مقتطف من كتاب دوما «قصّة حيواناتي» *Histoire de mes bêtes*، الصادر في 1857. فيه يرسم صورة معنويّة أو نفسانيّة لكلب شديد التحرّر، بالغ الغيرة على استقلاله، اسمه بريتشارد Pritchard. يرصد دوما أحابيله المتواصلة بسخرية مسلّطة على البشر أكثر ممّا على الحيوان. ذلك أنّهم أبطؤوا في فهم الدرس الذي أراد الكاتب تلقينهم إيّاه في ضرورة ترك هذا الحيوان على سجيّته، خارج كلّ قيد تربويّ أو سواه. وفي خاتمة المطاف، بعدما فرض الكلب حريّته على مربّيه المزعومين، يثبت أنّه كلب صيدٍ يندر أن تجد له مثيلاً. وعليه، ففي الأوان ذاته يقدّم النصّ رصداً لسلوك الحيوان، متعاطفاً وإيّاه، وتصحيحاً لطرائق الرجال وتصوّرهم للتربية.

النصّ السرديّ الثالث، «رحلة لصيد ظباء الجبل» *Une chasse au*

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

chamois، يشكّل الفصل التاسع والثلاثين من كتاب دوما «انطباعات رحلة إلى سويسرا» *Impressions de voyage en Suisse*، الصادر في 1837. إنّه قصّة بليغة في معنى الرفقة الإنسانيّة في حضرة الخطر، وأمام تهديد الموت، وفي دلالات الوعد والعهد والوفاء والتضامن المبرم واللّا معْدل عنه.

أمّا النصّ السرديّ الرابع، «رحلة لصيد الشحرور البروفنساليّ» *La chasse au chastre*، فقد نُشر في جريدة «لا بريس» *La Presse* في 1841، ثمّ في كتاب مستقلّ في العام ذاته ببلجيكا، وأُعدّ للمسرح في 1850. فيه يبلغ حسّ السخرية لدى دوما أقصاه، ودائماً على أساس من محبّة الرفقة والتعاضد الإنسانيّ. طائر محاط بهالة أسطوريّة يجرّ وراءه موسيقيّاً معروفاً وهاوياً للصيّد في رحلة عجيبة تُبعده عن داره ومحلّ عمله وعالمه الأليف. وإذا بالشغف يقود الإنسان أبعد من المتوقّع، والجرْي الساهي وراء طائر شائق ينقلب إلى مخاطرة مديدة وإلى استغوار للحياة.

وأخيراً، يحمل لنا النصّ الخامس، الإضافيّ، صفحات من معجم للطبخ كان دوما قد عُني في سنيّه الأخيرة بوضعه، في ألف صفحة ونيّف، ونُشر بعد رحيله بثلاث سنوات، أي في 1873، بعنوان «المعجم المطبخيّ الكبير» *Le grand dictionnaire de cuisine*. هي صفحات تُضاف إلى أدب المائدة العالميّ، لا يكتفي فيها دوما بتقديم وصفاته المطبخيّة الأثيرة، بل يعرّف بالطرائد المكوّنة منها طبخاته، ويمعن في وصف سجاياها، هي والنبات، ويصف بكلمات الخبير والفنّان الطعمَ الذي يمكن أن تناله لدى تحضيرها بهذه الطريقة أو تلك. وتاركاً العنان، هنا أيضاً، لنزعته المتبحّرة المعروفة، تراه لا يمتنع عن إيراد طرفة هنا، وحديث سائغ هناك، بما يجعل من هذه الصفحات مثالاً للدعابة ونشيداً يُعليه هو في تقريظ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الذائقة ورهافة محبّي أفضل الأغذية وأشهاها.

وعلى العموم، يتحوّل الصيد في طرديّات ألكساندر دوما هذه إلى تأسيس للذّات، وإلى تربية وفنّ وصداقة تشتدّ أواصرها لا بين رفاق الصيد وحدهم بل كذلك بين الصيّاد وحيوانه الأليف، مرافقه في القنص ومُسعفه. كما يترافق هذا بنظرة عطفٍ يلقيها الصيّاد الحقيقيّ على الطريدة، لا بل باحترام لها شديد الإلزام. هو ميثاق يفرض التعفّف عن إيذاء الحيوان، وعن الطَمع بصيدٍ يفوق الحاجة، ودعوة إلى احترام التوازن البيئويّ، وفلسفة واضحة في الاعتدال.

إلى هذا كلّه، تحمل هذه النصوص شعريّة للفضاء بالغة الحداثة تُفهمنا لماذا كان مارسيل بروست يُحلّ دوما بين أوّل مُرسي دعائم الأدب السرديّ الحديث. وهي تتجلّى أكثر ما تتجلّى في رسمه الباذخ لعوالم مكوّنة من ذرى جبليّة ومهاوٍ خطيرة وغابات يكتنفها السرّ وأماكن تتلوّن بمقتضى تحوّلات المواسم والأوقات.

محرّر السلسلة

كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شذى شبابٍ وخريف

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

1

اندحار – اليخنة الشهيرة بلَحم الخروف تُعاوِد الظهور – السيّد بيكو، وكيل الدعاوى، استطاع بفضل ديبلوماسيّته الحصول من والدتي على إذن بأن يصطحبني في رحلة قنص، فهجرني، بسبب من ذلك، النّوم والشّرب والأكل.

إذا كانت بقيتْ في ذهن بعض المشكّكين العنيدين من سكّان فيلير–كوتريه[1] بعض الشّكوك حول كارثة معركة واترلو[2] فإنّ مرور نابليون قد بدّدها بشكل نهائيّ.

هذا فضلاً عن أنّ طليعة الهاربين تلك، التي شاهدناها، لم تكن سوى مقدّمة الفيلق.

بدأ الفيلق في الظّهور صبيحة يوم 22.

وأنا أصرّح ههنا أنّ ذلك المشهد كان رهيباً ورائعاً؛ مشهداً سامياً من فرط بشاعته.

(1) فيلير–كوتريه Villers-Cotterêts بلدة فرنسية تقع في قلب غابة ريتز في منطقة الأين في جهة بيكاردي في الشّمال الشّرقي من فرنسا، أمضى فيها الكاتب طفولته وشطراً من صباه. (حواشي الكتاب هي من وضع المترجم إلاّ إذا وردت إشارة مخالفة).

(2) واترلو Waterloo معركة فرضها نابليون بونابرت على الحلفاء الإنجليز والألمان والبروسيّين والهولنديّين، بعد فراره من منفاه في جزيرة إلبا بإيطاليا واستعادتِه حكمَ فرنسا. وقعت يوم 18 من شهر حزيران من سنة 1815 قرب بروكسيل. وهي آخر معركة خاضها هذا القائد الفرنسيّ الشّهير، وانتهت بانهزامه انهزاماً مدويّاً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مرّ في البداية أولئك الذين استطاعوا الخروج من تلك المقتلة سالمين أو بجروح طفيفة؛ مرّوا متشابكين، دون تنظيم ودون قرع طبول ومن غير سلاح تقريباً.

بعدهم أقبل مَن أصيبوا بجروح أكثر خطورة، لكنّهم كانوا ما يزالون قادرين على المشي أو على الاعتدال على ظهور الخيل.

ثمّ أتى أخيراً الجنود غير القادرين لا على المشي ولا على المكوث على ظهور الخيل. كان أولئك البؤساء، بأذرعهم المسنودة وسيقانهم المكلومة وجروحهم التي تثقب أجسادهم، ممدّدين على عربات، بضمّادات غير مُتقنة أو حتّى من غير ضمادات. كانوا يعتدلون بصعوبة وهم يلوّحون بِمزَقٍ ملطّخة بالدّماء ويصيحون: «عاش الإمبراطور!». سقط كثير منهم موتى، فكانت تلك صرختَهم الأخيرة.

دام مرور الموكب الكئيب يومين أو ثلاثة. إلى أين يُقاد كلّ هؤلاء الرّجال؟ لماذا يُجعَلُ احتضارهم هذا القدر من الألم وهم يُعرَضون هكذا لشمس حزيران الحارقة، ولاهتزازات العربات، محرومين من أيّ تمريض؟ هل هم على هذا القدر من الكثرة بحيث يعمّون كلّ المدن من واترلو إلى بلدتنا؟ أوه! عندما ننظر إلى الحرب هكذا، بعيداً عن جلبة النّفير وبعيداً عن قرع الطّبول وأدخنة المدافع والتماعات إطلاق النّار، فإنّها لا تبدو بشعة وحسب، وإنّما خرقاء ومجرّدة من أيّ معنى!

عرفْنا هذه البقايا جميعَها؛ غير أنّ من رأيناهم هم كلّ من بقيَ من تلك الأفواج العسكرية البهيّة التي رأيناها من قبلُ تمرّ معتدّة بنفسها، مهدِّدة، تعكس موسيقاها حماستَها، وهي تعزف لحن «لنحرصْ على سلامة الإمبراطورية!»

وا أسفاه! دُمِّر الجيش وأُنهكت الإمبراطورية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أضحت العربات أخيراً أكثر نُدرة، ثم اختفت تماماً.

عندئذ بدأ مرور تلك الأجساد التي كان جيروم[1] قد حشدها على أقدام أسوار لاوون.

كان كلّ فوج قد فقد ثلثَيه.

لم يبق من أولئك المماليك[2] البؤساء إلّا خمسة عشر، أمّا الآخرون فقُتلوا أو شُتّتوا.

أقبل ضابطان أو ثلاثة، من الخمسة والعشرين أو الثّلاثين الذين كانوا أقاموا عندنا، ليسلّموا علينا في طريق عودتهم. أمّا الباقون فمكثوا في ضيعة غومون أو في لاهَيه-سانت أو في الوادي الشّهير الذي أضحى مقبرة جماعية لعشرة آلاف بطل!...

في عزّ هذا الاندحار، أقبلت أختي يرافقها زوجها؛ فبفضل ذكريات حصار بلدة سواسون، سنة 1814، والذي كان السيّد لوتولييه خلاله عمدةً لها، فأحسن التّصرّف، رُقّي نجلُه.

عُيِّن مراقباً جوّالاً في فيلير-كوتريه.

أقبل برفقة أختي عبر طريق باريس، في الوقت نفسه الذي كان يُنتظر فيه أن يُقبِل العدوّ عبر طريق سواسون.

---

(1) ولد جيروم بونابرت يوم 15 تشرين الثّاني من سنة 1784، في أجاكسيو، وتوفّي يوم 24 حزيران سنة 1860 في ماسي، قرب باريس. وهو أصغر إخوة نابلون بونابرت.

(2) كان نابليون بونابرت قد استقطب أثناء حملته على مصر بعض الجند الفارّين من جيش ابراهيم باشا، وأدخلهم في حرسه الشخصيّ، وأشركَهم في معاركه، وسمّاهم «مماليكه». ولأنّ عددهم كان محدوداً فسيُصار إلى استقطاب «مماليك» شركس وأرمن وجيورجيّين وسواهم، وسيتواصل الأمر على هذا النحو بعد موت المماليك الأوائل، أي المصريّين. وكانت أُسر هؤلاء «المماليك» تسكن في مرسيليا، وتعرّضوا هم وعوائلهم إلى تمييز عنصريّ شديد بعد سقوط نابليون. ويشبّههم بعض المؤرّخين الفرنسيّين بمن عُرفوا بـ «الحركيّين»، أي الجزائريّين الذين خدموا في القوّات الفرنسيّة بين 1957 و1962 (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت الفظاعات، هذه المرّة، أقلّ: ما عاد من مقاومة في أيّ مكان؛ فقد تخلّى نابليون عن العرش وتمّ تنصيب نابليون الثّاني[1].

لم يبدُ أحدٌ مؤمناً بجدّية هذا التّنصيب، بمن في ذلك من تعهّدوه.

وذات يوم تناهى إلى أسماعنا نفيرٌ بلحنٍ لا نعرفه، فرأينا ما يقرب من ستّة آلاف رجل يدلفون إلى ساحة المدينة.

إنّهم بروسيّون من دوقيّة بادن-بادن العظمى، يرتدون تلك البدلات الفاتنة التي لا مأخذ عليها عدا أنّها أشدّ أناقة من أن تكون بدلات عسكرية.

كان فوج إنجليزيّ يمشي متناغماً وإيّاهم.

كان من نصيبنا إيواء ضابطين إنجليزيّين.

فعاودتِ اليخنة الشهيرة بلحم الخروف الظهور[2]، وكان ضيفانا شابّين بارعين يفخران بشهيّتهما المفتوحة.

ما كانا يتحدّثان اللّغة الفرنسية؛ ومن النّافل القول إنّني لم أكن أعرف

---

(1) نابليون فرانسوا شارل جوزيف Napoléon François Charles Joseph Bonapart، (1811-1832) ابن امبراطور فرنسا نابليون الأوّل، من زوجته الثانية ماري-لويز دوقة بارما وأرشيدوقة النمسا. تنازل له والده عن العرش سنة 1815. كان شديد النّحافة وعليلاً. توفّي في ريعان شبابه.

(2) ينعت الكاتب هذه اليخنة بالشهيرة fameux (وتعني الكلمة أيضاً، في سياق الأطعمة، «وجبة لذيذة») على سبيل السخرية لأنّه سبق أن وصف في الفصل السابق من مذكّراته، المأخوذ منها النصّ المترجم ههنا، كيف بقي سكّان فيلير-كوتريه يتلقّون مرتعبين إشاعاتٍ مفادها أنّ فرقة من المحاربين القوقاز المنخرطين في القوّات الأوروبيّة المتحالفة ضدّ نابليون بونابرت كانت على وشك أن تصل إلى البلدة. وسعياً إلى تهدئة الجند القوقاز، وحتّى لا يعيثوا فساداً، قامت والدة الكاتب، أرملة الجنرال دوما، بإعداد يخنة بلحم الخروف هائلة الحجم لاستقبالهم. بقي الناس ينتظرون مجيء الغزاة ثلاثة أيّام، وإذ لم يأتوا قام فرنسيّو الجوار بالتهام الوجبة. ثمّ ها أنّ منزل والدة الكاتب مجبر على استضافة ضابطَين إنجليزيّين، فعاودت اليخنة بلحم الخروف الظهور لإطعامهما (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في تلك الفترة كلمة إنجليزية واحدة. راودَتْ أحدَهما فكرةُ أن يُحدِّثني باللّاتينية.

وأنا أعترف أنّني ظننت في البداية أنّه ما يزال يحدّثني بالإنجليزية، فأُعجبت بإصراره.

ثمّ فهمت أخيراً أنّه يُشرّفني، مستعملاً لغة فرجيل، بدعوتي إلى تناول كأسٍ برفقته.

قبلتُ، فاستطعنا، خلال ما تبقّى من النّهار، أن نتفاهم، أو أن نكون قريبَين من أن نتفاهم.

أنقذتنا دارُ العجَزة، التي طالما أنزلْنا بها اللّعنات، من إيواء فرقة عسكرية أجنبية كاملة؛ ذلك أنّ الغَمْر الجارف للإنجليز والرّوس والبروسيّين، إنّما مرّ بمنازلنا ولم يُقِم فيها.

ثمّ طفقت الأنباء تردنا من باريس، ومن بقيّة المناطق، ومن الخارج.

كان بعض تلك الأنباء رهيباً بالنّسبة إلينا.

يوم 2 تموز، وفيما كانت القوى المتحالفة تعلن عن وقوع نابليون أسيرَ حرب، اغتيل الماريشال برون[1] في أفينيون.

وا أسفاه! هو الوحيد الذي ظلّ مخلصاً لنا من بين جميع أصدقاء والدي[2]!

---

(1) الماريشال غيّوم برون Guillaume Brune أحد العسكريّين الأوائل الذين رقّاهم نابليون، غداة نيله لقب الإمبراطور، إلى رتبة ماريشال. وقد تميّز برون بانتصاراته في معاركه ضد الجيوش الانجليزية والرّوسية والهولندية والنّمساوية والسويدية، كما كان عُيِّن سفيراً في تركيا ثمّ رئيساً للقطاع الحربيّ في مجلس الدّولة.

(2) الجنرال توما ألكساندر دافي دولا بايِيتري Thomas Alexandre Davy de la Pailleterie، الذي حمل اسم شهرة أمّه فصار يُعرف بالجنرال توما ألكساندر دوما Thomas Alexandre Dumas (ولد في سان–دومانغ، هايتي حاليّاً، في 1762 وتوفّي في فيلير–كوتريه في منطقة الأين L'Aisne بفرنسا في 1806) هو أوّل عسكريّ من أصول أفريقيّة=

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عندئذ أسررتُ لنفسي أنّني ذات يوم، عندما أصير رجلاً، سأتوجّه إلى أفينيون وسأجعل مغتاليه يؤدّون ثمن قتله، بشكل من الأشكال.

وقد وفيتُ بكلمتي[1].

يوم 19 أغسطس، وعندما أدرك نابليون مضيق جبل طارق، اغتيل لابيدوايير[2].

ثمّ أُطلقت النّار، أخيراً، يوم 7 كانون الأوّل، على الماريشال ني[3]، في ممرّ المرصد.

= أنتيليّة يرقى في القوّات الفرنسيّة إلى رتبة جنرال. خدم في الفترة الثورية وبعدها في قوّات نابليون بونابرت، وظفر في معارك عديدة، وكان قائداً شجاعاً ومحنّكاً. ثمّ اعتزل المسلك العسكريّ على أثر خلاف له مع نابليون نشب بينهما في الإسكندرية أثناء حملة هذا الأخير على مصر بعدما رأى الجنود يموتون بالعشرات ظمأً ومن حرارة الشمس. ويروي المؤرّخون أنّ الجنرال دوما قد ردّ على أسئلة الإمبراطور عن دوافع موقفه ذاك بالقول: «إنّ مصالح فرنسا ينبغي أن تأتي قبل مصالح رجلٍ، مهما يكن من عظمة هذا الرجل. إنّني أعتقد أنّ مصير أمّة ينبغي ألّا يخضع إلى مصير فرد». ثمّ سمح له بونابرت بالرجوع إلى فرنسا، غير أنّ حكومة نابولي في إيطاليا أوقفته في الطريق وأودعته السجن طيلة عامين، وقد خرج منه بساق يمنى شبه مشلولة وبخدّ أيمن مشلول وعين يمنى شبه فاقدة البصر، وبتقرّح شديد في المعدة، فمات بعد سنوات قليلة فقيراً ومنهَكاً (المُراجع).

(1) افتتح دوما روايته «عصبة جيهو» *Les Compagnons de Jéhu* (1857) بفصل يصبّ فيه جام غضبه على أهالي أفينيون، المدينة التي اغتيل فيها الماريشال برون بصورة وحشيّة في 1815. وفي هذا الفصل يرد اسم الماريشال خمس مرّات (المُراجع).

(2) هو شارل آنجليك فرانسوا هوشيه دو لابيدوايير Charles Angélique François Huchet de La Bédoyère (1786–1815)، تدرّج في الرّتب العسكرية إلى أن أصبح عقيداً مقرّباً من نابليون، ممّا عرّضه للتّصفية رمياً بالرّصاص، بعد أن لم يُدرك موعد خروج نابليون إلى منفاه الجديد، ليصطحبه كما كان يريد نابليون، فحاول أن يُغادر إلى أمريكا، إلّا أنّه ألقي عليه القبض وقُتل.

(3) الماريشال ميشال ني Michel Ney (1769–1815) أحد كبار رجال الثّورة والإمبراطورية. حصل على ألقاب كثيرة من مثل: ماريشال ودوق وأمير... حوكم بعد سقوط نابليون بتهمة خيانة الملك والدّولة وأُعدِم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بعد ذلك عادت الأمور إلى مجراها الطّبيعيّ، فأصبح بإمكاننا، في مدينتنا الصّغيرة البعيدة عن أيّ جلبة والمنعزلة في غابتها، أن نعتقد أنْ لا شيء تغيّر. فقط بعضٌ من سكّانها، من مثل موكيه، أمسوا يرون كوابيس في منامهم، هذا كلّ ما في الأمر.

وكنّا نحن بين هؤلاء. مفهوم أنّ عودة نابليون، إضافةً إلى أحداث المائة يوم[1]، كانت قد أنست السيّد دوفيولين محضر السيّد كريتون، فما عاد ثمّة من مجال لا لغرامة الخمسين فرنكاً ولا لمصادرة بندقيّتي.

غير أنّ بندقيّتي كانت مصادرة بالقدر نفسه الذي كانت ستصادر به لو وقعت بين أيدي رجال تفتيش الغابات؛ فهي كانت مخبّأة لا خوفاً من أن يعتبرها البروسيّون سلاحاً حربيّاً، وإنّما مخافة أن يستولوا عليها باعتبارها سلاحَ زينة.

أصبحتْ في مخبئها صدئة، فأضحى من الضّروريّ، لإعادتها إلى حالتها العاديّة، أخذُها إلى صديقي الطّبيب مونتانيون.

وبمجرد وصولها إليه، تصبح رهن إشارتي، كما هو معلوم.

بين النّاس الحميمين الذين اعتادوا ارتياد بيتنا، شخص يُدعى بيكو، وكيل الدعاوى وأخو بيكو دو نو وبيكو دو ليبيه. هو قنّاص عظيم، أكاد أغبطه بوصفه قنّاصَ سهول، بالقدر نفسه الذي أغبط به السيّد دوفيولين قنّاصَ الغابة. وبالفعل، فإنّ السيّد بيكو، وكيل الدعاوى، كان قد حصل، عن طريق أخيه، المُزارِع الذي يملك نحوَ أربعة آلاف هكتار من الأراضي، والذي كان شديد الغيرة على حظيرة صيده، رغم

(1) «المائة يوم» Les Cent-Jours هي فترة من التّاريخ الفرنسي تقع بين عودة الإمبراطور نابليون بونابرت الأوّل إلى فرنسا، يوم الفاتح من آذار 1815، وحلّ لجنة نابليون الثّاني المكلّفة بالسّلطة التّنفيذية بعد تنازل نابليون الأوّل عن الحكم للمرّة الثّانية يوم 7 تموز من سنة 1815 لصالح ابنه نابليون الثّاني.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنّ ابنه نادراً ما كان يصطاد شيئاً، ورغم أنّه هو نفسه لم يكن يقنص البتّة، أقول كان قد حصل لنفسه ولكلب صيده مطلق الحقّ في التمتّع بثلاثِ أو أربعٍ من المساحات الأكثر اكتظاظاً بالطّرائد في مجموعِ ضواحي فيلير-كوتريه. ورغم أنّه لم يكن يُعدّ بين أحسن الرّماة في البلد، إلّا أنّه كان يظفر بصيدٍ رائع، ما كان يجعلني أنظر بعين الحسد إلى جراب طرائده الممتلئ، الذي كان اكتنازه يشي بوفرة الصيد، عندما يمرّ أمام باب بيتنا ليعود «إلى منازله»، كما كان اعتاد أن يقول.

فهمتُ أنّه لا يكفي أن يكون السيّد بيكو في عداد أصدقائنا، بل كان عليّ أنا بالخصوص أن أكون في عداد أصدقائه. عندما اعتدلتْ هذه الفكرة في ذهني، بدأتِ الملاطفات.

كيف أباشر الموضوع؟ أنا لا أعرف، فالرّجل لم يكن سهلاً إغواؤُه؛ لكنّ ما أعرفه هو أنّ السيّد بيكو، بعد شهر من الإغواء، منحني فرصة اصطحابي في رحلة قنص.

غير أنّه لم يكن يريد أن يصطحبني دون إذن من أمّي.

وتلك هي المشكلة.

تقدّمتُ بطلبي، فأصاب أمّي امتقاع شديد.

السيّد بيكو كان حاضراً طبعاً، فخاطبته قائلةً:

- أوه! يا إلهي! كيف تُسعفك شجاعتك لتأخذه منّي وأمامنا مثال السيّد دانريه ومثال ابن أخيك ستانيسلاس المسكين؟

- يا للّعنة! أنا لا آخذه منك، هتفَ السيّد بيكو، ولا أنا راغبٌ في أن تهاجميني باتّهامي بإفساد طفلٍ حدَث. كنت فقط أريد أن أوفّر له بعض المتعة، فهو يعشق القنص. وفي هذا، أنت تعرفين مَن يُشبه... ألا تريدين له أن يتسلّى؟ لنُعرضْ عن الموضوع إذن.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رغم أنّني لم أقدّر في البداية صيغة الجملة حقّ قدرها، فإنّها مُتقنة؛ ذلك أنّها، رغم قِصرها، وهو ما يعتبر إنجازاً في جملة وكيل دعاوى، تحوي حجّتين دامغتين: «وفي هذا، أنت تعرفين من يُشبه...» و«ألا تريدين له أن يتسلّى؟ لنُعرض عن الموضوع».

من كنت أشبهه، هو أبي. والحال أنّه عندما يُقال لأمّي إنّني أشبه والدي، وإنّ لي صوت والدي، وإنّني أملك ذوق والدي، فإنّ ذلك يعتبر إغواء عظيماً.

يضاف إلى ذلك أنّه عندما يُقال إنها لا تريد لي أن أتسلّى، فإن ذلك يعتبر مأخذاً كبيراً يوجّه لها، هي الأمّ الطّيبة الممتازة، التي باعت آخر قطعة فضّية من عُدّة المائدة كي توفّر لي متعة.

الخطاب في ذاته كان محسوباً: لقد ألقى المتكلّم عبارة «لنُعرضْ عن الموضوع» بلا مبالاة، وهو يرمي إلى قول: «بحقّ الله! احتفظي بطفلك إن شئت، أنا كنت أريد أن أصطحبه لطفاً منّي لا غير... أنت لا تريدين أن أربّيه على الصّيد، ليكن، ذلك عبء أقلّ بالنّسبة إليّ. لنُعرض عن الموضوع».

وعوضَ أن تقبل أمّي قوله «لنُعرض عن الموضوع»، فتعرض عنه بالفعل، أطلقت تنهيدة، وقالت بعد لحظة، ممّا أصابني باندهاش عظيم:

- أوه! يا إلهي! أنا أعرف جيّداً أنّه إن لم يذهب معك للقنص، فسيذهب مع آخرين أو حتّى بمفرده. أنا أفضّل إذن، في نهاية المطاف، أن أعهد به إليك، أنت المعروف بحذرك.

ألقى السيّد بيكو إليّ بإشارة من طرف عينه.

كانت تلك الإشارة تعني: «هيّا بسرعة! ثبْ على هذه الموافقة الجزئيّة واجعلْ منها موافقة كاملة».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فهمتُ قصده، فأحطت جِيد أمّي بذارعيّ وقبّلتها شاكراً ومداعباً.

فقال السيّد بيكو كي يضع حدّاً لما تبقّى من تردّدها:

– أتدرين، أيّتها السيّدة دوما العزيزة، إنّه يعرف البنادق مثل صانع أسلحة! فماذا عساه يحصل له؟ أنا الذي أجازف، بالأحرى، إذ قد يرميني برصاصة.

– آه! هناك هذا الأمر أيضاً؟ قالت أمّي.

– أجل، لكنّني لست خائفاً. سأجعله على مسافة منّي، كوني مطمئنّة.

– وستَشحن له بندقيته؟

– سأشحن له بندقيّته، ليكنْ.

– هيّا، ما دمت تريد ذلك!

كان بإمكان أمّي المسكينة أن تقول بتدقيق أكبر: «ما دام يريد ذلك!» سبق أنْ نُفِّذت لي رغبات كثيرة وأُشبع غروري مرّات وحُقِّقت لي طموحات جمّة، لا بل ذهبتُ أبعد من ذلك، لكنّني لا أدري إذا كان ما بلغتُه من رغبات وما أشبعتُه من غرور وما حقّقتُه من طموحات قد منحني سعادة كتلك التي منحتني إيّاها هذه الكلمات القليلة: «هيّا، ما دمت تريد ذلك!». لم يجعلني السيد بيكو أنتظر؛ لقد قرّر رحلة قنص بالمِرآة ليوم الغد.

هي مجرّد رحلة لقنص القُبَّر، هذا صحيح، لكنّها، في نهاية المطاف، رحلةُ قنص.

ما إن حصلت على الإذن حتّى خففتُ إلى مونتانيون لأقاسمه الخبر السّعيد وأطالبه ببندقيّتي. بعد ذلك فكّكتُ أجزاءها ومسحتها رغم أنّها كانت نظيفة ومزيّتة بطريقة جيّدة، وأخيراً صعدت بها، مساءً، إلى غرفتي ووضعتها بالقرب من سريري.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لا داعي لأن أقول إنّه لم يغمض لي جفن تلك اللّيلة؛ وكنت، بين الفينة والأخرى، أمدّ يدي كي أتأكّد من أنّ بندقيتي الغالية ما تزال في موضعها.

لم يسبق لعشيقة محبوبة أن نالت من المداعبات ما نالته تلك التجميعة الجامدة من الخشب والحديد والفولاذ.

غير أنّنا كنّا للأسف في شهر تشرين الثّاني، فكان النّهار يبزغ متأخّراً. لكن لو التفت النّهار، أثناء بزوغه، إلى جهتي لرآني أبكرَ منه، وأنّني قد ارتديت سلفاً بدلتي الخاصّة بالقنص.

كلّ ذلك يشكّل خليطاً متفرّداً من الرّشاقة والفقر.

البندقيّة جذّابة؛ بندقية صغيرة حقيقيّة من نوع الدّوقة، بماسورة مذهبّة ومحزّزة، ثقب إشعال البارود والحوض مُضعّفان بالبلاتين، وعقبها ناعم الملمس. أمّا وعاء البارود فكان عربيّاً أتى به والدي من مصر، وهو مصنوع من ناب صغير لفيل، ومرصّع بالذّهب؛ هو مثل أشياء الشّرق تلك التي يبدو عليها أثرٌ للشّمس.

أما وعاء تعبئة البارود فكان من قرن شفّاف مثل الزّجاج، مكسوّ بالفضّة. العبوة، أو بالأحرى ما يحوي العبوة، كان في شكل ثعلب ممدّد من معدن منقوش، كما لو كان باري[1] قد عاش في تلك الأزمنة؛ هو وعاء متحدّر من الأميرة بولين[2].

أما ملابسي فكانت متواضعة للغاية، ومتنافرة مع تلك الأشياء الثّمينة الثّلاثة.

---

(1) أنطوان لويس باري Antoine-Louis Barye (1795–1875)، نحّات ورسّام فرنسي مشهورٌ بمنحوتاته المُجسّدة للحيوانات.

(2) بولين بونابرت Pauline Bonaparte (1780–1825) أميرة فرنسية؛ أخت نابليون بونابرت ومفضّلته.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وكما أنّني لم أكن أعرف بعدُ ما معنى الحبّ، لم أكن أعرف أيضاً معنىً للغُنج.

كنّا أنا وأمّي ننام في الغرفة نفسها، فاستيقظَتْ باستيقاظي، فرحةً وحزينةً؛ فرحة لفرحي وحزينة بسبب هذا الهروب الأوّل من سلطة أمومتها، إن أمكنني التّعبير بهذه الطّريقة.

سارعتُ إلى السيّد بيكو. لم يكن أفاق بعد. أحدثتُ جلبة كبيرة أيقظتْه. قال، وهو يرتدي سرواله المخمليّ والطِّماقين الجلديّين الكبيرين[1]:

- أوه! أوه! هذا أنت، وفي هذا الوقت يا فتى؟

- ذلك أنّ الوقت متأخّر، سيّد بيكو، السّاعة الآن السّابعة.

- نعم، لكنّها أثلجت والقبّرات لا تستيقظ إلّا عند منتصف النّهار.

- ماذا! سننتظر إلى غاية منتصف النّهار؟ صحتُ.

- أوه! ليس بالضّبط، غير أنّنا سنُفطر.

- ولماذا؟

- كي نفطر، وكفى! واصل السيّد بيكو. أوه! أنا قنّاص عجوز ولا يمكنني أن أنطلق إلى القنص فارغ البطن؛ هو أمر جيّد بالنّسبة إليك أنت المبتدئ.

بعد التفكير وجدت أنّني أنا أيضاً لا اعتراض لي على الفطور، هذا فضلاً عن أنّ الفطور في بيت السيّد بيكو باذخ دوماً.

فأفطرنا. استمتع السيّد بيكو بقهوته من أوّل قطرة إلى آخرها، كمِثلِ مُترَفٍ من القرن الثّامن عشر.

جعل فولتير[2] من تناول هذا المشروب تقليعة، بتسميمه لنفسه بانتظام

---

(1) الطِّماقان هما ما يُلفّ به السّاقان وقايةً لهما. يلبسهما صيّادو الغابات والفلّاحون أثناء الحصاد.

(2) الكاتب الفرنسي الشّهير. واسمه الحقيقيّ هو François-Marie Aroue المعروف =

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وهو يتناول هذا السّائل ثلاث مرّات في اليوم.

أمّا أنا، فلم أرفع بصري عن النّافذة، ففهمت أنّ الجوّ الغائم هو ما كان يجعل السيّد بيكو على تلك الحال من عدم الاستعجال.

وفجأة أطلقتُ صرخة ابتهاج؛ كان شعاع شمسيّ قد بدأ يخترق الجوّ الرّماديّ والمُثلج.

- أوه! انظر، انظر! صحتُ، هي ذي الشّمس!

كنت في تلك اللّحظة ورِعاً مثل براهما.

- هيّا بنا، قال السيّد بيكو.

انطلقنا، يمشي في أعقابنا الخادم حاملاً المرآة وحزمة الحبال.

مرّ السيّد بيكو عبر حديقته التي تفضي إلى ضاحية فقيرة تُدعى الأكَمات، أو بالأحرى الأكواخ، لأنّها تتكوّن من أكواخ أكثر ممّا من منازل.

تأسّفت، لأنّني كنت آمل أن نمرّ عبر المدينة، لأجعل مواطنيَّ يشاهدونني في كامل مَجدي.

أقمنا منشأتنا على أعلى قمّة في السّهل.

جعلنا مرآتنا تتحرّك، ومكثنا منتظرين.

= بفولتير Voltaire (1694-1778)، عاش في عصر التنوير، وعرف بسخريّته الفلسفية وبدفاعه المستميت عن الحريّات، وخصوصاً حرّية المعتقد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

2

قنص القُبَّر - أصبحتُ بارعاً في الترجمة من اللاتينيّة إلى الفرنسيّة -الحجلة المخلَّعة - سقوط من على حافة الحفرة - مزرعة براسوار - مزحة السيّد دوفيولين السّمجة عندما وجد زوجته وقد وضعت.

أيُّ عالِم طيور كان أوّلَ من اكتشف غُنج القبَّر؟ أيّ فيلسوف عميقِ الفكرِ خمّنَ أنّنا عندما نجعل ألواحاً معدنية أو زجاجية تتحرّك، تأتي القبّرات لترى نفسها فيها، بمجرّد أن تكون تلك الألواح برّاقة، وأنّها كلّما كانت كذلك، أتت تلك الحيوانات الصّغيرة الحمقاء بسهولة وبأعداد وافرة؟

حوالى عشرين قبّرة أدّت حياتها ثمناً لاستمتاعها بالنّظر إلى نفسها، وكنت من جهتي قاتل ستّة منها.

أطلقتُ ما يقرب من ثلاثين طلقة بندقيّة، لكن السيّد بيكو صرّح أنّ ذلك أمر جيّد بالنّسبة لمبتدئ، وأنّني واعِد.

لم يكلّف السيّد بيكو نفسه البتّة عناء شحن بندقيتي، ولم أتعرّض لأيّ حادث.

مع ظهور أولى المنازل، غادرت السيّد بيكو. كنت حريصاً على عبور المدينة، متأبّطاً بندقيّتي وحول عنقي القبّرات. لم يحدث أبداً لبومبيوس أو

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لقيصر[1]، وهما يدخلان روما منتصرين، أن كانا أكثر زهواً بنفسيهما منّي.

وا أسفاه! كلّ شيء يتآكل في هذه الدّنيا؛ الفرح والألم وحتّى الغرور! أتت لحظةٌ تخلّيتُ فيها، مثل قيصر، عن النصر لصالح مُساعديَّ.

ما كانت عادت لي سوى فكرة واحدة: رحلة القنص الموعودة ليوم الأحد المقبل، إن رضيَ عنّي الرّاهب غريغوار.

كان معلوماً كيف كنت أقوم بفروض الترجمة من اللّاتينيّة إلى الفرنسيّة؛ وقد قرّرت ألّا أغيّر شيئاً من عاداتي. أمّا بالنّسبة للترجمة من الفرنسية إلى اللاتينية، فقد شملتُها باهتمام كبير إلى درجة أنّ الرّاهب غريغوار صرّح أنّه سيكون بإمكاني، إن أنا واصلتُ، أن ألج، قبل سنةٍ، مستوى السّادسة في مدرسة متوسّطة بباريس[2].

وفضلاً عن ذلك، حفظتُ، من أجل متعتي الشّخصيّة، ألفين أو ثلاثة آلاف من أبيات فرجيل[3].

---

(1) بومبيوس العظيم رجل دولة روماني ولد سنة 106 قبل الميلاد وتوفّي مقتولاً سنة 48 قبل الميلاد قرب الإسكندرية بمصر، التي أتاها فارّاً من يوليوس قيصر، بعد أن دخل هذا الأخير روما منتصراً، كما كان دخلها بومبيوس قبله – وإلى ذلك يشير دوما هنا. ويوليوس قيصر هو رجل سياسة ودولة وكاتب روماني، ولد في روما سنة 100 قبل الميلاد، و توفّي سنة 44 قبل الميلاد.

(2) عدّ السنواتَ في المرحلة المتوسّطة في النظام المدرسيّ الفرنسيّ تنازليّ، أي يكون من المرحلة السادسة إلى الثالثة، وفي اختتام هذه الأخيرة يكون الدخول إلى المدرسة الثانوية أو الإعدادية (المُراجع).

(3) فرجيل شاعر لاتينيّ، صاحب ملحمة «الإنيادة» التي تُعدّ عملاً أدبياً عظيماً كان له بالغ الأثر في الكتّاب الأوروبيّين. اسمه الكامل في اللّاتينية هو بوبليوس فيرجيليوس مارو. ولد سنة 70 قبل الميلاد. درس بعمقٍ الأدبين الإغريقي واللاتيني. في سنة 19 قبل الميلاد قام برحلة إلى اليونان وآسيا بغرض إعادة الاشتغال على ملحمته «الإنيادة» التي كان على وشك إنهاء كتابتها. كرّس آخر سنوات حياته لدراسة الفلسفة. التقى في أثينا بالإمبراطور أغسطس، الذي كان يومها عائداً من رحلة إلى الشرق، فعاد بصحبته إلى إيطاليا حيث توفّي فور وصوله، على الأرجح بسبب ضربة شمس كان تلقّاها في الطريق. وقبل وفاته=

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رغم أنّ معرفتي باللّاتينية سيّئة، كنت دائماً أعشق فرجيل: ذلك العطف على المنفيّين، وكآبة الموت تلك، وهذا التنبّؤ بإله مجهول[1]؛ كلّ ذلك كان يُحرّك عواطفي بصورةٍ سامية. موسيقى أبياته وسهولةُ إنشادها، بالخصوص، تفتنانني، وتهدهدانني أيضاً، في بعض الأحيان، عندما أكون بين النوم واليقظة. لقد حفظت عن ظهر قلبٍ أناشيد من «الإنيادة»، وأنا اليوم أعتقد أنّني قادر على تلاوة حكاية إنياس وديدون[2] من بدايتها إلى نهايتها؛ هذا بالرّغم من أنّني عاجز عن صياغة جملة واحدة باللّاتينية دون أن أرتكب خطأين لغويين أو ثلاثة.

أقبلَ أخيراً يومُ الأحد الذي طالما انتظرته! الأرق نفسه ليلاً، والمشاعر نفسها صباحاً، والحماس ذاته عند الانطلاق. خلال ذلك اليوم، لم نعد للقنص بالمرآة، وإنّما شرعنا ببساطة في قنص ما يظهر أمامنا مباشرةً. تنطلق الحِجلان إلى مسافات بعيدة، لكن لا يهمّ! أُطلق النّار باستمرار، غير أنّه لا شيء يسقط. وأخيراً، عندما وصلنا إلى قمّة أحد تلك الجبال التي نسمّيها عندنا المنحدرات، فاجأت زوج حجل على مدىً اعتياديّ. أطلقت النّار ببندقيّتي عشوائياً. دلّت إحدى الحجلتين، التي أصيبت في

= أوصى صديقيه فاريوس روفوس وبلوبوس توكا بإتلاف «الإنيادة»، لأنّه رأى أنّها لم تستوِ على الشّكل الذي يريد، لكنّ أغسطس منعهما من ذلك وكلّف فاريوس روفوس بالعناية بنشر تلك القصيدة الملحمية.

(1) يقصد إله المسيحيّة، وكان مجهولاً يومذاك لأنّ فرجيل عاش في الوثنيّة. وبتنبّه به يكون الشاعر اللاتينيّ في وضع مماثل لما كان عليه من يدعَون في الإسلام بالحُنفاء (المُراجع).

(2) هي أسطورة قديمة استعادها فرجيل في «الإنيادة» : إنياس شابّ طروادي فرّ بعد سقوط طروادة برفقة أبيه. حطّ الرّحال على شواطئ أفريقيا حيث استقبلته ديدون ملكة قرطاج، فعاشا معاً قصّة حبّ عنيفة. لكنّ آلهة الأولمب أرغمت إنياس على العودة؛ لأنّه مُقدّر له أن يُعيد تأسيس المملكة الجديدة «روما». فانصرف إنياس تاركاً ديدون التي لم تتحمّل فراقه فانتحرت. وقد استُوحيت من هذه الأسطورة أعمال إبداعية عالمية كثيرة، خصوصاً في المسرح.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

طرف أحد جناحيها، بميلها في تحليقها، على أنّها جريحة.

- أُصيبت! صاح السيّد بيكو.

كنت رأيت أنّها أصيبت، فانطلقت في أثرها.

لم أنتبه لتهوّري إلّا عندما أحسست بي منقذفاً على المنحدر. بعد عشرين خطوة، ما عدت أنحدر، كنت أثب. وبعد ثلاثين، ما عدت أثب، وإنّما أحلّق. أشعر في كلّ لحظة أنّني قريب من فقدان توازني. تتضاعف سرعتي بفعل انجذابي للأسفل. شكّلتُ لحظتئذ تطبيقاً حيّاً لمربّع المسافات لغاليلو[1]. رآني السيّد بيكو أتعثّر دون أن يستطيع الحيلولة دون ذلك، لفرط ما كنت انطلقت بعنف نحو مكانٍ كان الجبل قد انحفر فيه شاقوليّاً بفعلِ مَقلع. كنت أنا نفسي أرى الاتّجاه الذي أسير فيه دون أن تكون لي القدرة على التّوقّف. كانت الرّيح ذهبت سلفاً بقبّعتي. ألقيتُ ببندقيّتي. وبلغت تلك الحفرة.

فجأةً لم أعد أشعر بالأرض تحتي، فقفزت، أو بالأحرى سقطت من علوٍّ عشر أقدام أو اثنتَي عشرة قدماً، فاختفيت في الثّلج الذي كانت الرّيح، لحسن الحظّ، جمّعته في شكل لحاف دافئ بسُمك متر، في المكان حيث سقطت.

شعرت بخوف شديد، أنا أعترف بذلك؛ ظننتُني هالكاً! أغمضت عينيّ أثناء سقوطي. وعندما شعرت أنّني لم أُصَب بسوء، أعدت فتحهما. أوّل شيء رأيته هو رأس كلبة السيّد بيكو وهي تنظر إليّ من المكان الذي قفزت منه، حيث وقفَت هي، متحكّمةً بنفسها أكثر منّي.

- ديانا، صحتُ، ديانا، هنا! ابحثي، ابحثي!

---

(1) يشير الكاتب هنا إلى ما يسمّى مُعادلة غاليلو (1564–1642)، عالم الفلك والفيلسوف والفيزيائيّ الإيطالي المشهور. ذلك أنّ هذا العالم سعى، من خلال هذه المعادلة، إلى إيجاد علاقة رياضية بين زمن التّسقوط والمسافة المقطوعة أثناء ذلك الزّمن.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وعندما اعتدلتُ واقفاً، واصلتُ سعيي وراء حجلتي.

رأيت عن بعدٍ السيّد بيكو يرفع ذراعيه نحو السّماء وهو يقف على قمّة صخرة. كان ظنّ أنّني انسحقت. لكنّني لم أصب بأدنى خدش.

كان منظره يُحدِث، في المشهد، أثراً لن أنساه أبداً.

كانت الحجلة توارت عن بصري، لكنّني أعرف في أي اتّجاه سقطت. قدت ديانا في ذلك الاتّجاه. وما إن قطعَت عشرين خطوة حتّى عثرَتْ على الأثر، فواصَلت بخطوٍ هادئ.

- دعها تفعل، صاح السيّد بيكو في اتّجاهي، دعها تفعل. هي في الأثر، هي في الأثر.

لم أهتمّ. كنت أعدو أسرع منها، وأمامها. وأخيراً قادتني الصّدفة إلى الحجلة التي طفقت تَدْرُج كما تدرُج أيّ حجلة.

- هي ذي، صحت في اتّجاه السيّد بيكو، هي ذي! ديانا، ديانا، طا طا طا طا!

شاهدَتها ديانا في الوقت المناسب، لأنّ نفَسي كان قد انقطع. كانت ما تزال لديّ القدرة على الذّهاب إلى حيث أمسكَتْ هي بها بفمها. ارتميتُ عليها وانتشلتُها منها، فرفعتُها من إحدى قائمتيها كي أريها للسّيد بيكو، ثمّ سقطتُ.

لم يسبق لي أن شعرت، مثلما شعرت عندئذ، أنّني قريب من أن أُسلم الرّوح. لم يسبق لي أن كان نزْعي الأخير قريباً من شفتيّ كما كان في تلك اللّحظة: أربع خطوات إضافية، وينفطر قلبي.

كلّ ذلك من أجل حجلة ثمنها خمسة عشر فلساً.

ما أغرب القيمة التي يُعيرها الشّغف للأشياء!

كنت قريباً من أن يُغمى عليّ، غير أنّني كلّما شعرت بدنوّي من ذلك،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أحكمتُ قبضتي على حجلتي، إلى درجة أنّني عدت إلى رُشدي دون أن أكون قد تخلّيت عنها ولو للحظة واحدة.

التحق بي السيّد بيكو، وساعدني على الوقوف. كانت الحجلة ما تزال حيّة، فرطم مؤخّر رأسها بماسورة بندقيّته، ووضعها في جراب طرائدي، تتلوّى من الألم.

أدرت جرابي بحيث أستطيع غطْس عينيّ في الشّبكة ومشاهدة الحيوان المسكين وهو يُحتضر حتّى الرّمق الأخير.

عندئذ انتبهت إلى أنّه ما عاد لي بندقية ولا قبّعة.

طفقتُ أبحث عن بندقيّتي، في حين أرسلَ السيّد بيكو ديانا في أثر قبّعتي.

تلك كانت حدود رحلة صيدي، يومئذ. النّتيجة طيّبة، شكراً للرّب! إنّ لوفايان[1] نفسه، بعد قتله أوّل فيل على ضفاف النّهر البرتقاليّ، لم يكن أكثر سعادة منّي.

كان نصري كاملاً؛ عندما عدت إلى البيت وجدت زوج أختي وقد عاد من جولة عمل.

أريته حجلتي التي كانت قد تعارَفَت مع نصف سكّان المدينة.

رسم لي على جبهتي، برأس إصبعه، صليباً بدم ضحيّتي.

- باسم القدّيس هوبير، قال لي، أعمّدك قنّاصاً، والآن وقد عُمّدت....

---

(1) فرانسوا لوفايّان François Levaillant، ولد سنة 1753 في باراماريبو في غوايانا الهولندية، وتوفّي سنة 1824، وهو مستكشف فرنسي وعالم طيور شغوف بالرّحلات. والكاتب يشير هنا إلى رحلته التي قام بها إلى جنوب إفريقيا سنة 1781، حيث زار الوادي البرتقاليّ الذي يُعدّ أطول نهر في جنوب أفريقيا، فقام برحلات صيد على ضفافه، وعاد إلى فرنسا سنة 1784 مُحمّلاً بأكثر من ألفي وحدة من جلود الطّيور، فضلاً عن جلود الزرافات، لكنّه لم يُستقبل في فرنسا بما كان يتوقّعه من حفاوة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- وماذا بعد؟ سألت.

- وماذا بعد؟ أدعوك يوم الأحد المقبل إلى جولة لإثارة الطّرائد من مكامنها عند السيّد موكيه دو براسوار.

قفزت فرحاً؛ فجولة إثارة الطّرائد عند السيّد موكيه دو براسوار ذائعة الصّيت في الإقليم كلّه، ويقتلون خلالها أربعين أرنباً أو خمسين.

- أوه! يا إلهي! تمتمت أمّي. ما كان ينقصه إلّا ذلك!

كان لدعوة زوج أختي، التي كانت بمثابة شهادة على نضجي، أهمّية أخرى غير تلك التي تبدو لها أوّل وهلة. جولة إثارة طرائد براسوار تلك هي جولة قنص حقيقية برفقة كبار رماة النّواحي، وبالخصوص برفقة السيّد دوفيولين الذي لا يمكنه أن يكون عدوّي في الغابة، بعد أن كان مرّة رفيقي في جولة قنص، فجمَعتْه بي علاقة أخويّة في السّهل.

سيكون لذلك أثر سيّئ على فرجيل وتاسيت[1]؛ كان الرّاهب غريغوار سعيداً بي، فما عاد ثمّة من مشكل عندما توقّفت عربة صيد السيّد دوفيولين أمام بابنا، كي أصعد على متنها.

حصل ذلك يوم السّبت مساءً؛ فمزرعة دو براسوار، التي تقع بين غابتَي فيلير-كوتريه وكومبيّين، تبعد بثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ عن فيلير-كوتريه، فتعيّن أن نبيت هناك لبدء الصّيد في اليوم التالي عند مطلع النّهار.

أوه! كم تبدو لي الغابة جميلة، رغم تجرّدها من أوراقها! بدا لي أنّني سأستولي عليها غازياً؛ كيف لا وإلى جانبي نائب ملك هذه الغابة الذي يكاد يعاملني وكأنّني رجل، لأنّني أملك طِماقين ووعاء بارود وبندقيّة!

(1) يقصد، ساخراً، أنّ ذهابه إلى حملة الصيد تلك سيصرفه عن الاشتغال على فروضه المدرسيّة، المتمثّلة في التمرّن على ترجمة الشاعر فرجيل والمؤرّخ تاسيت، من اللاتينية (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

السيّد دوفيولين كان ما يزال يُجيد السّب، لكنّ سبابه كان يبدو لي أخّاذاً ومترعاً ظرافة. كنت أودّ لو سببتُ مِثله.

قبل شهر أو شهرين، ازداد عدد أفراد أسرته بميلاد فتاة صغيرة.

بعد مرور ثلاثة عشر عاماً أو أكثر على زواجهما، أعربت له زوجته، بكاملِ حُسن النّية، عن فكرة أن تقدّم له تلك الهديّة.

قبِلها السيّد دوفيولين كما كان يقبل كلّ شيء، مُدمدِماً. غير أنّ غرابة أطواره تجلّت في إحدى تلك المُزَح الفظّة التي هي واحدة من سِماته؛ فرغم أنّ القادمة الجديدة كانت في حجم رأس لِفت عند قدومها إلى هذه الدّنيا، أكثرت أمّها من الصّراخ وهي تضعها.

تلك الصّرخات، كان السيّد دوفيولين سمعَها من مكتبه، لكن، وبما أنّه، رغم فظاظته الظّاهرة، غير قادر على رؤية حمامة تتألّم، تحاشى الظّهور طيلة مدّة الصّراخ. وعندما كفّت زوجته عن الصّياح، أرهف سمعاً أكثر اطمئناناً لباقي الأصوات، فسمع وقع خطوات على سلّمه. انفتح باب مكتبه فبدت الطّباخة على العتبة.

- حسناً! ماذا وراءك، يا جوزفين؟ سأل السيّد دوفيولين.

- انتهى الأمر، سيّدي. ولدت السيّدة.

- بسلام؟

- بسلام.

- ماذا وضعت؟

- طفلة.

أصدر السيّد دوفيولين دمدمة واضحة الدّلالة، فأضافت جوزفين بحماس:

- أوه! لكنّها، جميلة، جميلة كآلهة العشق! هي صورة من سيّدي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- في هذه الحال، قال السيّد دوفيولين، هي ذي فتاة لن تتزوّج بسهولة.

إنّها صورة منّي، بئس الأمر، وليكن ما يكون!... لن ألدَ سواها!

ثمّ سلكَ طريق غرفة زوجته.

كنّا هناك، أنا وأمّي. النّفساء في سريرها، وطفلة صغيرة جميلة، بشرتها بيضاء ورديّة -وهي ما تزال إلى اليوم بباريس زوجة حسناء تحمل اسم السيّدة دافَين- تنتظر في قماطها المخرّم زيارة السيّد دوفيولين.

دخل، عنقه غائص بين كتفيه، ويداه في جيبيه، فنظر حوله وهو يدرس مساحة الغرفة، ثمّ توجّه رأساً إلى المهد، حيث فحص الفاتنة الصّغيرة الموجودة فيه، وهو يعقف حاجبه الكثّ الأسود.

بعد ذلك سأل وهو يلتفت نحو زوجته:

- ومن أجل هذا الجنين أصدرتِ ذلك الضّجيج كلّه، يا سيّدة دوفيولين؟

- أجل، ربّما، أجابت النّفساء.

- تبّاً! عقّبَ السيّد دوفيولين وهو يهزّ كتفيه. عندما لا أكون مُصاباً بإمساكِ أضع نفايةً أضخم من هذه... طاب نهارُكِ يا سيّدة دوما! طاب نهارك أيّها الفتى السائلُ مخاطه!

بعد ذلك دار على عقبيه وانصرف كما أقبل.

- شكراً، يا سيّد دوفيولين، قالت النّفساء. آه! إنّني أجيبك بأنّ هذه ستكون الأخيرة.

وقد التزمت السيّدة دوفيولين بكلامها.

نعم، يا لويز العزيزة والجميلة، هكذا كانت معاملتك يوم مولدكِ. وقد أحسنتِ الانتقامَ عندما ظللتِ فاتنة وجذّابة، كما سبق لي أن رأيتكِ آخر مرّة التقيتك فيها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

3

السيّد موكيه دو براسوار - الكمين - ثلاث أرانب برّيّة تهاجمني - ما منعني من أن أكون ملك القنص - لأنني لم أهاجم الثّور من قرنيه، كاد يبقرني - سابين وصغارها.

أعتذر عن الاستطراد، غير أنّه قادنا، مع ذلك، إلى براسوار.

عندما سمع السيّد موكيه جلبة العربة، سارع لاستقبالنا. هو أحد أولئك المزارعين الأثرياء من أصحاب الضّيافة الأصيلة. كان، في كلّ مرّة يُنظّم فيها جولات الصّيد الضّخمة تلك والتي يتلاقى خلالها كلّ قنّاصي المنطقة، يذبح خنزيراً وثوراً وخروفاً. هذا فضلاً عن أنّه رجل فكر وثقافة، ماهر في النّظرية كما في التّطبيق، ويعدّ مالكَ أجمل ما يوجد من خراف الميرينوس(1) في المنطقة.

كان عشاءٌ فاخر في انتظارنا. ومن البديهيّ أن يكون قنّاصٌ يقدّم نفسه مثلي على أنّه مجنّد بسيط، ويُبرِز كشفاً للخدمات لا يظهر فيه، ليشفع له، إلّا ستُّ قبّرات وحجلة واحدة، أقول من البديهيّ أن يكون عُرضةً لسُخرية الرّفاق كلّهم؛ وهي سخرية تحلّى السيّد موكيه، بصفته مُضيفاً، بكامل الطّيبة فلم يشارك فيها. غير أنّه، عندما كنّا نغادر المائدة، قال لي بصوت خافت:

- دعهم يفعلون، سأجعلك تحتلّ الأماكن المناسبة، وأنا أعدك بأن

---

(1) غنم إسباني أبيض اللّون، ضوفه باهض الثّمن.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تكون أنت، غداً مساءً، من يهزأ بهم.

- كن مطمئناً، أجبت بتلك الثّقة الرّائعة التي لا تفارقني أبداً، سأبذل جهدي.

في الغد، في السّاعة الثّامنة، تجمّع الصّيادون كلّهم، في حين اصطفّ حوالى ثلاثين من فلّاحي الضّواحي عند باب المزرعة الكبير.

هم مثيرو الطّرائد من مكامنها.

كان نباح الكلاب يثير الشّفقة؛ فتلك الحيوانات المسكينة تعرف أنّه لا دخل لها في هذا النّوع من حملات القنص.

هم يصطحبون كلباً أو كلبين على أكبر تقدير، يُختاران من بين أقوى كلاب القطيع المشّاءة، لإطلاقهما خلف أرنب بريّة جريحة تسعى إلى الغابة.

كان لهذا النّوع من الكلاب، في العادة، حارسٌ خاصّ يسهر عليها، وباستثناء تلك اللّحظات القصيرة التي تُطلق فيها، تمكث هي في رباطها لا تبرحه.

بدأت حملة القنص عند مخرج المزرعة. شرحَ السيّد موكيه لرئيس مثيري الطّرائد الخطّة العامّة لليوم، متحفّظاً من جعْله يعرف، في تلك اللّحظة، الخطّة الخاصّة بكلّ حملة على حدة.

اختير لي موضع على بعد مائة خطوة من المزرعة، في وادٍ رمليّ. كان الأطفال أثناء لعبهم قد حفروا تجويفاً كبيراً في التّراب دلّني عليه السّيد موكيه ودعاني إلى التقوقُع فيه، وهو يؤكّد لي أنّ الأرانب، إن أنا ظللتُ بلا حراك، ستأتي كي تُدفِئ قدميّ.

لم تكن ثقتي كبيرة بذلك المقرّ، غير أنّه، ما دام السيّد موكيه هو القائد العامّ للبعثة، ما كانت لي ملاحظات أُبديها. قبعتُ في مخبئي واضعاً احتمال

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إمكانِ مغادرته بطريقة مفاجئة إن سنحت فرصة.

بدأت الحملة. ومع أولى الصّرخات التي أطلقها مثيرو الطّرائد، انتصبت أرنبان بريّتان أو ثلاث. وبعد أن تمايلَتْ للحظة لاختيار الطّريق الذي ستسير فيه، شرعت، مثل الكورياس الثّلاثة[1]، وبمسافات غير متساوية بينها، تعدو في الطّريق المؤدّية إلى الوادي الذي كنت مختبئاً فيه. أنا أعترف أنّني عندما رأيتها مقبلة نحوي بشكل مباشر كما لو كانت تواعدت على اللّقاء في التّجويف الذي أختبئ فيه، مرّ على بصري ألقٌ. وعبر ذلك النّوع من القناع الممدود بينها وبيني، كنت أراها تتقدّم بسرعة، وبالموازاة مع تقدّمها أضحت ضربات قلبي أقوى. كانت درجة الحرارة ستّاً تحت الصّفر، والعرق يسيل مع ذلك على جبيني. أخيراً، بدا وكأنّ التي تتقدّم على رأس الرّتل قد قرّرت أن تُهاجمني، فأتت مستقيمةً نحوي. منذ انطلاقتها، وجّهتُ نحوها سلاحي. كان بإمكاني أن أتركها تتقدّم إلى أن تصير على بعد عشرين خطوة، أو عشر أو خمس. لم أجد فيَّ القوّة لذلك، فأطلقت قذيفتي ملء وجهها وهي على بعدِ ما يقرب من ثلاثين خطوة.

(1) الكورياس الثّلاثة والهوراس الثّلاثة، هم أبطال أسطوريّون كانوا، حسب الأسطورة، قد دخلوا في مبارزات ثنائيّة أثناء حرب روما على جارتها ألبا-لونغا خلال فترة حكم تولوس هوستيليوس، الذي كان ملك روما ما بين 641 و673 قبل الميلاد. كانت المدينتان قرّرتا أن تحلّا نزاعهما بتعيين ثلاثة أبطال من كلّ منهما ليدخلوا في مبارزات ثنائيّة. ويُقال إنّ الهوراس هم أبطال روما والكورياس أبطال ألبا-لونغا. جُرح الأبطال الأخيرون ثلاثتهم، حسب الأسطورة، في حين قُتل اثنان من أبطال روما. فرّ الهوراس الذي بقي على قيد الحياة، وتعقّبه الكورياس الثّلاثة المجروحون. لكنّ هؤلاء لم يستطيعوا الإمساك به، ممّا مكّنه من قتلهم الواحد بعد الآخر. وعند عودته إلى روما قتل أخته الشّقيقة التي كانت تبكي خطيبها، وهو أحد الكورياس، معتبراً أنّه «بهذه الطّريقة ينبغي أن تموت كلّ رومانية تبكي عدوّاً»...

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التوَتِ الأرنب على نفسها في اللّحظة ذاتها بطريقة معبّرة، ثمّ انطلقت في سلسلة من الانفتالات الرّائعة حول نفسها.

هي حتماً أُصيبت.

قفزت خارج حفرتي مثل نمر، صائحاً:

- أصيبت! لقد أصيبت! أطلقوا الكلاب!... يا قاطعة الطريق! أيّتها الماكرة!...انتظري، انتظري!

سمعت الأرنب صوتي، فوسّعت المسافة بينها وبيني.

أمّا رفيقتاها، فقد ارتدّت إحداهما على عقبيها، واقتحمت مثيري الطّرائد، في حين أفادت الأخرى من الموقف، فمرّت قريباً منّي. وبما أنّ بندقيتي كانت غير مشحونة، قذفتها بها.

لكنّ هذا العدْوان العرَضيّ لم يُلهني عن المطاردة الرّئيسة. انطلقت عقبَ أرنبي التي واصلت حركاتها الرّياضية غير المتناسقة والحثيثة، لا تخطو أربع خطوات في خطّ مستقيم، تنطّ إلى هذه الجهة وإلى تلك، واثبةً إلى الأمام وإلى الخلف، مخالفةً كلّ حساباتي، تماماً كما كان والدي خالفَ يوماً حسابات التّمساح، وهي تعدو يميناً وشمالاً، منفلتةً عندما أعتقد أنّها في متناول يدي، مبتعدةً عنّي بعشر خطوات، كما لو أنّها لا تعاني من أيّ إصابة. ثمّ ارتدّتْ، فجأةً، على عقبيها، وأتت لتمرّ من بين ساقيّ. بدا الأمر مثل مراهنة. ما عدت أصيح، بل كنت أصرخ. طفقتُ أجمع حجارة وأرميها بها. وعندما اعتقدت أنّني أدركتُها، سقطتُ على بطني، آملاً في أن أمسك بها بوضعها بين الأرض وبيني، وكأنّها في فخّ. لمحتُ في البعد، عبر ما يشبه سحاباً، باقي الصّيادين، ضاحكين وغاضبين في آنٍ معاً؛ كانوا ضاحكين من التّمرين الذي كنت أُنجزه، وغاضبين من الجلبة والحركة اللّتين أثرتهما وسط حملة إثارة الطّرائد، ممّا جعل الأرانب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كلّها تغيّر وجهتها. أخيراً، وبعد مجهودات مُضنية، أمسكت بأرنبي من إحدى قائمتيها، ثمّ من قائمتيها معاً، ثمّ من وسط جسدها. كانت تُطلق صرخات يائسة. أمسكت بها على صدري مثلما فعل هرقل بآنتي[1]، والتحقتُ بحفرتي، حريصاً، أثناء مروري، على التقاط بندقيّتي المطروحة على الطّريق التي كنت قطعتُها.

عندما عدت إلى مُستقرّي، أمكنني أن أفحص أرنبي بدقّة، فاتّضح لي كلّ شيء: كنت قد فقأتُ عينيها معاً دون أن أصيبها بأيّ جرح آخر.

أجريت لها على قفاها تلك الصّدمة الشّهيرة، التي تُقدّم لها خدمة بوصفها أرنباً، والتي سمّاها أرنال «صدمة الأرنب».

بعد ذلك عبّأت بندقيتي، خافق القلب مرتعش الكفّين.

بدا لي أنّ العبوة كانت قويّة بعض الشّيء، لكنّني كنت واثقاً من الماسورة. كما أنّ تلك الزّيادة، بأربعة أو خمسة من خطوط الرّمي[2]، تهبني حظّ أن أقتل الطّريدة من بعيد.

وما إن استقررت في مكاني حتّى رأيت أرنباً أخرى تأتي مستقيمةً في اتّجاهي.

كنت تخلّصت من هوَس أن أطلق النّار على رأس الحيوان. زد على ذلك أنّ هذه الأرنب كان يبدو وكأنّها تعِد بالمرور أمامي، على بعد خمس وعشرين خطوة.

---

(1) الإشارة هنا إلى أسطورة صراع هرقل مع آنتي؛ ذلك أنّه لم يكن ممكناً، حسب الأسطورة، الانتصار على آنتي ما دام متشبّثاً بأمّه الأرض. فلم يكن بإمكان هرقل أن ينتصر عليه إلّا برفعه عن الأرض، وهو ما قام به، حسب الأسطورة. وقد استوحى كثير من الرّسامين والنّحاتين هذه الأسطورة في أعمالهم الفنّية.

(2) خطّ الرمي هو خطّ وهميّ مستقيم تحدّده عين الرامي وحدقة التصويب في سلاحه الناريّ (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وفَت بوعدها. صوّبتُ نحوها بندقيّتي بالهدوء الكامل المطلوب، وأطلقت النّار متأكّداً من أنّني حاصلٌ لا محالة على زوج أرانب.

اشتعل الفتيل، لكنّ الطّلقة لم تخرج البتّة.

حظّ سيّئ! حاولت أن أتلفّظ بسباب ممّا كان يُجيده السيّد دوفيولين، لكنّني أهملته في منتصفه. لم يكن يناسبني، أنا.

لم أعرف في حياتي كيف أسبّ، حتّى عندما أكون في أشّد لحظات غضبي.

نظّفتُ ثقب الإشعال، ثمّ أعددت بندقيتي لإطلاق النّار ثانيةً ومكثت منتظراً.

تأكّدَ أنّ السيّد موكيه لم يخدعني، إذ أتت أرنب ثالثة مقتفيةً أثر سابقتَيها.

ومثل سابقتها، مرّت قريباً جدّاً منّي، على بعد عشرين خطوة! وكما فعلتُ مع الأرنب الأخيرة، صوّبت بندقيّتي نحوها، وعندما ضبطتها تماماً على فوّهة الماسورة، ضغطتُ بإصبعي على الزّناد.

الفتيل وحده اشتعل.

استشطت غضباً. كنت على حافّة البكاء غيظاً.

وأكثر من ذلك، كانت أرنب رابعةٌ مقبلةً بخطىً وئيدة.

حصل مع هذه ما وقع لي مع الأخرَيين. كانت مطواعاً تماماً، غير أن بندقيتي ركبها كلّ العناد الممكن.

مرّت على بعد خمس عشرة خطوة منّي، وللمرّة الثّالثة أشعلتْ بندقيّتي فتيلها، لكنّ الطّلقة لم تنطلق.

هذه المرّة أخذتُ أبكي فعلاً. كان بإمكان قنّاص ماهر، يحتلّ مكاني، أن يقتل أربع أرانب. وكان بإمكاني، أنا المبتدئ، أن أقتل بالتّأكيد أرنبين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

انتهت الحملة. أتى السيّد موكيه إلى مكمني؛ فبما أنّني كنت في عمق تلك الحفرة، لم يستطع باقي الصّيادين أن يشاهدوا الحادث الثّلاثي الذي ألمّ بي. أتى ليعرف أخباري وهو يرى كلّ تلك الأرانب تمرّ على جسدي دون أن يسمع دويّ طلقة. أتى ليعرف إن كنت متّ أو نمت.

كنتُ يائساً فحسب. أريته بندقيّتي، وصحتُ بصوت بائس:

- أشعَلت فتيلها ثلاث مرّات، سيّد موكيه؛ ثلاث مرّات على ثلاث أرانب!

- هل أخطأتَها، أمْ فقط اشتعل الفتيل؟

- اشتعل الفتيل!... ما عسى أن يكون طرَأ في مؤخّرة البندقيّة؟

هزّ السيّد موكيه رأسه، ثمّ أخرج، بوصفه قنّاصاً عتيداً لا يُعوزه شيء، من كيس صيده، ساحبَ حشْواتٍ، وثبّته على رأس القضيب فأخرج في البداية الحشوة من بندقيتي، ثمّ الرصاصة، فالحشوة الثّانية، ثمّ البارود؛ وبعد البارود، أخرج حفنة تراب صغيرة كانت تسرّبت إلى الماسورة عندما قذفتُ بالبندقية في أثر الأرنب، ودفعتُ بها إلى عمق مؤخّرة البندقية وأنا أضغط حشوتي الأولى على البارود.

حتّى لو كنت أطلقت النّار على مائة أرنب لكانت بندقيّتي أخطأت مائة مرّة.

يا لهشاشة أشياء الإنسانية! فلولا حفنة التّراب الصّغيرة تلك، لكنت اصطدت أرنبين أو ثلاثاً، ولكنتُ غدوتُ مَلك تلك الحملة.

كلّ الأرانب مرّت نحوي عدا واحدةً مرتّ باتّجاه السيّد دومون دو مورينفال، فقتلَها.

كان حظّي قد استُنزف في تلك الحملة الأولى. أقيمت عشرٌ أُخَر، ولم تمرّ أرنب واحدة في مدى بندقيّتي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عدت منهكاً. كنت قد أرديت أرنبي صريعة على بعد مائة متر من المزرعة، وكان السيّد موكيه رغب في أن يرسلها إلى هناك على الفور، لكنّني رفضت أن أنفصل عنها بتلك الطّريقة.

لقد حملتها على ظهري لثمانية فراسخ أو عشرة.

ومن النّافل القول إنّني كنت موضوعَ قسطٍ وافرٍ من التهكّمات التي تتخلّل دائماً عشاء رحلات الصّيد. الأحداث التي مرّت بي، وتلك الأرانب كلّها التي تجاوزتني يدفعها ذلك الحدس بأنّ بندقيّتي كانت محشوّة بالتّراب، وكون لا أرنبَ أتت نحوي منذ أنّ أصبحت بندقيّتي جاهزة، كلّ ذلك، من غير احتساب وجهي الذي خدشته الأرنب أثناء صراعي معها جسداً لجسدٍ، كلّ ذلك شكّل نصّاً ساخراً جميلاً.

لكنّ أمراً جعلني أنسى تلك السّخرية كلّها وذلك التّهكّم كلّه، كي أنخرط في نشوةِ سعادةٍ لا توصف.

انتهت سلسلة التّفكه تلك، والتي كنت أنا موضوعها، بهذه الجملة التي تلفّظ بها السيّد دوفيولين:

- لا يهمّ! سآخذك يوم الخميس في رحلة لصيد الخنزير البرّي، حتّى أرى إن كنت ستمسك بتلك الكائنات تحت بطنك كما تُمسك بالأرانب.

- صحيح يا ابن العمّ؟

- كلّ الصّحة.

- لكن، هذه... كلمة شرف؟

- كلمة شرف.

كانت فرحتي بهذا الوعد من القوّة بحيث غادرت المائدة وذهبت لأزعج، في الفناء، ثوراً رائعاً لم يكن يُفكّر أبداً في شأني. وعندما تعب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من إزعاجي له، كاد يبقرني لو لم أكن ولجت المطبخ بالقفز من فوق الباب النصفيّ، عبر الفجوة التي يوجد مثلها في أغلب المزارع.

تعقّبني الثّور عن قرب، ومرّر رأسه فوق الباب النصفيّ ذاك، مُطلقاً خواراً ردّد المنزل كلّه صداه.

لكن السيّدة موكيه أخذت، بهدوء، من المدفأة، جمرة متّقدة وذهبت لتضعها تحت أنف الثّور الذي تقهقر بخمس خطوات أو ستٍّ إلى الخلف، ثمّ قفز أربع قفزات واسعة أو خمساً واختفى في الإسطبل.

أنا لم أعتد على الزّهو بهذه الأشكال من البطولات. أنا، على العكس من ذلك، عندما يحصل لي شيء من هذا، أعمل في أسرع وقت ممكن على استعادة هدوئي فأقفل عائداً إلى المكان الذي خرجت منه، يداي معقودتان خلف ظهري، مثل نابليون، وأنا أنشد «نهر التاجو» أو «هيّا بنا إلى سوريا»، الأغنيّتين العاطفيتين اللّتين كانتا تشكّلان تقليعتين يومذاك، بصوت قريب في رداءته من رداءة صوت لويس الخامس عشر.

ولسوء حظّي، كان ماس، خادم السيّد دوفيولين قد رآني، ممّا جعل خفّتي في القفز على الحواجز، ولمدّة خمسة عشر يوماً، موضوع تهانٍ تهكّمية تقدّم لي بها كلّ من سيسيل وأوغوستين وفليكس.

ولحسن الحظّ، كانت لويز غير قادرة بعدُ على الكلام، وإلّا لكانت بالتأكيد شاركت في ذلك مثل الآخرين.

أعدّ ماس عربة سيّده، لأنّ السيّد دوفيولين آثر العودة ليلاً، بسبب اضطراره لأن يضطلع في الغد باكراً بمهمّته في تفتيش الغابة. وفضلاً عن ذلك، كان ضوء القمر، ليلتها، ساطعاً.

ألحّ السيّد موكيه إلحاحاً شديداً على السيّد دوفيولين كي يبقى، لكنّ القرار كان قد اتُّخذ، فأصرّ السيّد دوفيولين على أن ننصرف في ذلك المساء

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نفسه.

للسّيد موكيه عادةٌ عزّ نظيرها حتّى في المنازل التي تفخر بأرستقراطيّتها، وهي أنّه عندما يغادر الصّيّادون المزرعة، لا تبقى طريدة واحدة في بيته هوَ. يُوضع لكلّ واحد في صندوق عربته أو في سلّته أو جراب طرائده نصيبه من الطّرائد الذي يحدّده ربّ البيت نفسه، والذي يكون هو وحده من يُنسى دائماً.

عندما وصلنا إلى فيلير-كوتريه وجدنا سبع أرانب في صندوق العربة. كانوا قد اصطادوا في المُجمل تسعاً وثلاثين.

وليُسمح لي ههنا بالإشارة إلى برهانٍ على الحبّ غريبٍ قدّمته كلبة لصغارها.

لقد أعقبتْ فيغارو، تلك الكلبةَ الذّكيةَ التي كان يملكها زوج أختي عندما تعرّفت عليه، وهي كلبة حراسة تجيد الرّقص وتحيّي الدّرك وتبدي مؤخّرتها لنواطير الحقول، أعقبتها كلبةٌ فاتنة تجيد ضبط الطّرائد، اسمها سابين. لم يكن لها أيٌّ من مواهب الفقيدة فيغارو، غير أنّها تحسن الإمساك بالطّرائد والإتيان بها.

كان زوج أختي قد تركها في البيت لداعيَين: الأوّل أنّ كلب الصّيد في حملة لإثارة الطّرائد شيء إضافيّ مزعج أكثر منه ذا جدوى؛ والثّاني أنّها كانت في مرحلة حمل متقدّمة ممّا يجعلها خارج الخدمة.

لذا كان اندهاشنا كبيراً عندما رأى فيكتور أمامنا، أثناء عودتنا إلى المزرعة في نهاية رحلة الصّيد، سابين قادمةً بهدوء. لقد استطاعت الفرار فمشت غريزياً في أثر سيّدها، اعتماداً على ذلك الحسّ التّخمينيّ الباهر الذي تملكه الحيوانات.

نُودي على سابين، لحظة الانصراف، لكن لم يبدُ لها من أثر. بدأ البحث

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عنها فعثروا على الحيوان المسكين في زاوية من السّاحة حيث وضعت ثلاثة جراء.

وبما أنّه لم يكن لدى فيكتور أيّ رغبة في أن يتّخذ له تلاميذَ، رجا ابن السيّد موكيه أن يحفر في كومة من الروث كانت أمام الباب، وأن يلقي في الحفرة بالجراء الثّلاثة.

حصل ذلك، رغم أنين سابين المسكينة التي اضطُرّ هو إلى ربطها إلى مقعد العربة كي يكون متأكّداً من عودتها معنا إلى فيلير-كوتريه.

بكت سابين للحظة، لكنها نامت بين أقدامنا بعد انصرام بضع دقائق، وبدا أنّها نسيت كلّ شيء.

غير أنّنا ما إن وصلنا أمام بابنا، وما إن فككنا رباطها، حتّى قفزت من العربة إلى الأرض دون استعمال السّلم الصّغير وانطلقت تعدو بخطوات واسعة في طريق براسوار.

ناداها زوج أختي وصفّر في اتّجاهها، لكن سدىً. كلّما واصل نداءه وصفيره، ضاعفت هي من سرعتها.

لم يكن من مجال للعدْو في أثرها في مثل ذلك الوقت، فقد كنّا في منتصف اللّيل. فوّض فيكتور أمرها إلى إلهة الصيد ديانا، ودخلنا حريصين على ترك باب الممرّ مفتوحاً كي تستطيع سابين الالتحاق بوجارها إن حلا لها أن تعود.

أوّل من استيقظ من بيننا، في الغد، وجد سابين في وجارها نائمة يقيم بين قوائمها جراؤها الثّلاثة.

كانت قد ذهبت للبحث عنها في براسوار، وبما أنّه لم يكن بإمكانها أن تحمل بين أسنانها سوى جرو واحد، كان بديهياً أنّها قامت بثلاث رحلات.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إنّ ثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ تفصل فيلير-كوتريه عن براسوار.

قطعت سابين، إذن، واحداً وعشرين فرسخاً، ليلاً.

وجزاءً لها على إخلاصها الأموميّ، تُرِكت لها جراؤها الثّلاثة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

4

المرحلة الثّانية من شبابي - حرّاس الغابة والبحّارة - شورون - مُوانا - ميلديه - بيرتلان - «المنزل الجديد»

بما أنّني ألج المرحلة الثّانية من شبابي، وما دمت أخلع رداء الصّبا لألبس رداء الرّجولة، فينبغي أن يعرف القارئ الأشخاص الذين ازدانت بهم دائرة حياتي الثّانية، كما كان عرف سلفاً أولئك الذين بهم ازدانت الأولى.

في المناطق المجاورة لكبرى الغابات، توجد فئة من السكّان باللغة الخصوصيّة، تحتفظ، ضمن عامّة السكّان، بطابعها وبمميّزاتها، وتَهَب الشِّعرَ الكونيّ، الذي هو روح العالم، حصّتها من الشِّعر.

إنّها فئة ساكني الغاب.

كثيراً ما عشت مع حرّاس الغابات[1]، وكثيراً ما عايشت البحّارة، فلاحظت دائماً وجود تجانس كبير بين هذين النّوعين من البشر. هؤلاء وأولئك، بعامّة، هادئون وحالمون ومتديّنون. غالباً ما يبقى البحّار أو حارس الغابة جنباً إلى جنب مع صديقه الأثير، فيُبحر أحدهما أربعين

(1) تتمثّل المهمّة الأساسيّة لحرّاس الغابات وخفراء الصيد، كما هو معلوم، في حماية الغابات والأرياف من الصيد غير القانونيّ، أي غير المرخّص له وغير المقنّن، وهم يحرصون على حماية الحيوانات البريّة والوحوش المهدّدة بالانقراض، وكذلك الأشجار المعرّضة للقطع المسرف لتغذية تجارة الخشب، وأصناف النباتات المهدّدة بالزوال. وهم يمارسون في أوقات فراغهم الصيد القانونيّ، كما ترى في هذا النصّ (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عقدة بحرية أو أكثر في المحيط، ويقطع الآخر ثمانية فراسخَ ويزيد في الغابة، دون أن يتبادلا أدنى كلمة، ودون أن يبدوَ عليهما أنّهما سمعا أيّ شيء، ومن غير أن يظهر عليهما أنّهما رأيا شيئاً. ومع ذلك، لا تمرّ جلبة واحدة في الفضاء دون أن تلتقطها الأذن، ولا تهزّ حركةٌ واحدةٌ لُجينَ الماء أو أوراق الشّجر دون أن يكون للنّظر لها تقدير. ثمّ، وبما أنّ لهما الأفكارَ نفسها، والعِلم نفسه، والإحساس نفسه؛ وبما أنّ صمتهما لم يكن، رغم كلّ شيء، سوى محادثة صامتة طويلة، فإنّنا نُصاب بالدّهشة، عندما يحين الوقت، فنرى أنْ ليس لهما سوى كلمة واحدة يقولانها، سوى إيماءة واحدة يُؤتيانها، سوى إشارة عين واحدة يتبادلانها، ويكونان، مع ذلك، قد تبادلا من الأفكار، بإشارة العين تلك، بتلك الإيماءة وبتلك الكلمة، ما لا يستطيع آخرون القيام به بمحادثة مطوّلة. ثمّ إنّهم، عندما يتبادلون الحديث في مُخيّم غابيّ أو قرب النّار المتأجّجة بالجمر والشّرر، كمْ ينطلق في الحكي، لمّدة طويلة وبطريقة آسرة، هؤلاء الأشخاص الهادئون والحالمون والصّامتون؛ الحرّاسُ يتحدّثون عن حملات قنصهم والبحّارة عن رحلات صيدهم! كم تجعل أشعار الغابات العظمى هذه، وأشعار عَرض المحيطات تلك، والتي اندلقت عليهم من قمم الأشجار أو من أعلى الأمواج، كم تجعل لغتَهم ساذجة ومكتنزة بالصّوَر في الأوان ذاته! كم هو بسيطٌ كلامهم وعظيم! كم نُحسّ أنّه هناك يُقيم من انتخبته الطّبيعة والصّمت، والذي يبدو وكأنّه نسيَ لغة النّاس، كي ينطق بلغة الرّيح والأشجار والسّيول والعواصف والبحر!

بين أفراد هذه الفئة الاستثنائية، في فيلير-كوتريه تحديداً، بسبب شساعة الغابات التي تعزلهم عن المدينة، التي لا يرتادونها إلّا مرّة واحدة في الأسبوع لتلقّي الأمر بتفتيش هذه الغابة أو تلك، بينما تذهب النّساء

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لحضور القدّاس، أقول بين أفراد هذه الفئة تسلّلتُ عندما غادرتُ - كما كان يُقال قديماً- أكفّ النّساء.

هذا فضلاً عن أنّ هؤلاء الرّجال كانوا يرغبون، هم أنفسهم، في أن أكون بينهم. فأغلبهم شاركوا في رحلات صيد برفقة والدي الذي كان يتمتّع، كما رأيتم، برُخَص صيد في الغابة، فاحتفظوا بذكرى عظيمة عن أريحيّته. كما أنّ بعضاً منهم هم جنود قدامى أدّوا خدمتهم تحت إمرته، وقد قُبِلوا في الإدارة الغابيّة بفضلِ نفوذه. إجمالاً، هؤلاء الرّجال الشّجعان كلّهم، والذين كانوا يرون لديّ استعداداً لأكون أكثر بياضَ يدٍ من الجنرال - ما يزالون ينادون والدي بهذه الصّفة - كانوا يشملونني بصداقة عظيمة، وجعلوا يقولون لي، كلّما صادفوني أصطاد بتقليد زقزقة الطّيور أو بارتياد المستنقعات:

- حسناً! متى إذن سيدعوك مفتّشنا لجولة قنص أكثر جدّية؟

وأخيراً، أتت الدّعوة ليوم الخميس اللّاحق.

ضُرب الموعد في «المنزل الجديد»، الواقع على الطّريق المؤدية إلى سواسون، عند رئيسِ حرّاس غابةٍ اسمه شورون.

ضمنَ هذه الفئة التي حاولت إعطاء صورة موجزة عنها برسم ملامحها العامّة، يوجد أربعة رجال أو خمسة، يستحقّون إشارات خاصّة، إمّا لحذقهم أو لأصالتهم؛ وكان شورون أحد أولئك الرّجال.

سبق أن انتهزتُ فُرَصاً للحديث عنه غيرَ مرّة، غير أنّني تحدّثت عنه باسم مُستعار. اليوم، وأنا أكتب مذكّراتي، وليس رواية، ينبغي أن يظهر باسمه الحقيقيّ، ما دمت سأحكي عن فجائع حقيقيّة.

في هذه الفترة التي أدركناها، أي حوالى بداية سنة 1816، كان شورون شابّاً وسيماً في الثّلاثين من عمره، تقريباً، بملامح واضحة وصريحة، شعره

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أشقر وعيناه زرقاوان، يحيط بوجهه المبتهج سالفان مليحان، وتصل قامته إلى خمس أقدام وأربع بوصات، متمتّعاً، بفضل تناغم ساقيه، بقوّة خارقة اشتهر بها في المنطقة.

دائماً كان شورون على أهبة الاستعداد. فقبل أن تراود ذهنَه بعضُ الأفكار المسكونة بالغيرة -أفكار فاجعة ستؤدّي به إلى الموت- لم يكن بإمكان أحد أن يقول إنّه رأى شورون مريضاً أو مهموماً. كان بإمكان السيّد دوفيولين أن يأتي في الصّباح كما في المساء، وفي المساء كما في اللّيل، ليقرع بابه وليسأله. كان شورون يعرف، على بعد ما يقرب من خمسين خطوة، أين تختبئ الخنازير البرّية في مرصده. ذلك أنّ شورون كان، مثل با-دو-كوِير[1]، من أولئك الرّجال الذين يمكنهم أن يتعقّبوا أثراً لأيّام كاملة. عندما يُحدَّد موعد رحلة الصّيد في «المنزل الجديد»، ونكون مدعوّين للبدء بالهجوم على بعد ربع فرسخ أو نصف فرسخ أو فرسخ كامل منه، وحينما يكون شورون هو من رصدَ الحيوان وأثارَه، نكون على عِلم مُسبق بأيّ حيوان هو: خنزير صغير، أو ابن سنتين أو ثلاث، أو خنزير عجوز متوحّد، خنزير أو خنزيرة، وما إذا كانت تلك الخنزيرة حاملاً، ومنذ متى هي حامل. لم يكن بإمكان أشدّ الخنازير الهرمة مكراً أن يُخفي ولو ستّة أشهر من عمره عن شورون؛ فهو بإمكانه، من خلال فحص خطواته، أن يحدّد على وجه الدّقة فترة ولادته.

كان من الرّوعة بمكان مُشاهدة ذلك، خصوصاً بالنّسبة للقنّاصة

(1) يشير دوما هنا إلى بطل سلسلة الرّوايات الخمس للكاتب الأمريكي جيمس فينمور James Fenimore Cooper التي تحمل عنوان «[صاحب] الحذاء الجلديّ» *Bas-de-cuir* المنشورة بين 1823 و1841، وهي تحكي حياة صيّاد من البيض الأمريكيين يُسمّى ناتي بومبو، ويتطرّق عبْرها إلى تاريخ الولايات المتّحدة الأمريكية من سنة 1740 إلى سنة 1804. وقد اقتُبست من الحكاية سلسلات تلفزيونية وأشرطة مصوّرة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الباريسيّين الذين كانوا يأتوننا من فترة لأخرى. أمّا بالنّسبة إلينا، نحن القنّاصة الريفيّين الذين درسنا مثل ما درسوا، لكنّنا بقينا في مستويات دنيا، فلم يكن يحمل في طيّاته أيّ شيء خارق.

كان شورون يُعدّ، بالنّسبة لرفاقه، ضرباً من عرّاف يُؤخذ برأيه في كلّ ما له صلة بصيد الخنزير البرّيّ.

ثم إنّ الشّجاعة تؤدّي إلى احتياز سلطان عظيم على الرّجال. ما كان شورون يعرف معنىً للخوف؛ ولم يسبق له أن تراجع أمام أيٍّ كان من الحيوان أو بني البشر. كان يذهب لإثارة الخنزير وإخراجه حتّى من مخبئه الأشدّ عمقاً، ويُهاجم القنّاصة الخارجين عن القانون حتّى في مخابئهم الأشدّ تحصيناً. والحقّ أنّ شورون كان يتلقّى بين الفينة والأخرى ضربةَ خطم عنيفة على فخذه أو خردقة في رئته، لكنّه كان له، في مثل هذه الحالّات، طريقته الخاصّة في معالجة جروحه، وكانت تنجح في إشفائه بشكل باهر.

كان يُخرج من سردابه قنّينتَين أو ثلاثاً من النّبيذ الأبيض، ويأتي بأحد كلابه من وجاره، فيتمدّد على جلد أيّل، ويجعل الكلب روكادور أو الكلب فانفورو يلعق جرحه؛ وكي يُعوّض الدّم النّازف يشرب، أثناء ذلك، ما كان يسمّيه «منقوعه» ؛ فلا يعود الجرح ظاهراً في المساء، وفي الغد يكون اندمل.

ومع كلّ هذا، كان شورون، وهو أمر متفرّد للغاية، رامياً ضعيفاً جدّاً؛ فبالنّسبة لما كان يُسمّى قنصَ السّلّة؛ أي عندما تُقام حملة قنص لإرسال طرائد -أرانب داجنة أو أرانب برّية أو حجل أو أيّل- إلى مطبخ بيت دوق أورليان، نادراً ما كان شورون يقدّم حصّته.

عندئذ يترك مهمّة القنص لُموانا أو لميلديه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مْوانا هو ألمعُ قنّاص بالخردق، في حين أنّ ميلديه هو ألمعُ قنّاص بالرّصاص في غابة فيلير-كوتريه.

وإذا كان مونتانيون قد علّمني كيف أركّب بندقيّة وأُفكّكها، فإنّ مْوانا هو الذي علّمني طريقة استعمالها. لم يصنع منّي مونتانيون سوى طفل متدرّب على الأسلحة، أمّا مْوانا فجعل منّي صيّاداً حقيقياً.

عندما يصوّب مْوانا بندقيّته في اتجاه حيوان ما، من طائر الشّنقب إلى الأيّل، يكون ذلك الحيوان قد أضحى في عداد القتلى، إلّا إذا طرأ طارئ. وكانت هذه البراعة في التّصويب تمتدّ لتشمل من يصطادون بجوار مْوانا. فالسيّد دوفيولين، في رحلات قنصه الخاصّة، كان يدعو مْوانا لمرافقته، مدّعياً أنّه لا يُجيد التّصويب إلّا عندما يشعر به إلى جانبه.

وذات يوم إذْ كنتُ ثالثَهم في رحلة صيد، اكتشفت السّرّ: يُطلق مْوانا النّار في الوقتَ نفسه الذي يطلقها فيه دوفيولين، وعندما يتمّ إسقاط الطّريدة، يعتقد السيّد دوفيولين أنّه أطلق النّار بمفرده فيلتقطها؛ في حين أنّ مْوانا هو من يكون قتَلها.

لكنّه يتركه، بين الفينة والأخرى، يُطلق النّار بمفرده؛ حينئذٍ نادراً ما تسقط طريدة.

كانت لمْوانا شجاعةُ ألّا يفتخر أبداً بقضيّة التّزامن تلك، ممّا جعله يبقى مُفضَّل المفتّش إلى آخر حياته.

في هذه المرحلة التي أدركناها، كان مْوانا في السّتين من عمره، غير أنّه كان في قوّة السّير وحدّة البصر يتحدّى من هم أصغر منه سنّاً. في السّهل، يقطع فراسخه العشرة دون تعثّر، وفي المستنقعات، يدخل إلى أن يبلغ الماءُ أو الطّين بطنه. وفي الغابات، يدوس الأيكات الأكثر كثافة وأدغال العلّيق الكثيرة الشّوك. كان والدي يُحبّ مْوانا، وقد شرّفني بأن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أضحى -وهو لا يفعل ذلك مع النّاس جميعهم- ليس صديقي وحسب، وإنّما أيضاً معلّمي. وهو لم يندم على ذلك قطّ؛ ففي كلّ غابات البلد، حيث حصل أنْ علّقوا رُخَص صيدي، نظراً لكمّية الطّرائد التي كنت أقنصها، وبسبب صفعة كنت وجّهتها، تهوّراً منّي، لمفتّش، أظهرتُ أنّني تلميذ نجيب له، حسب ما أعتقد.

بيد أن علاقتي مع مْوانا ساءت، تقريباً كما ساءت علاقة فان ديك مع روبنس[1]، لأنّني صرعتُ يوماً يحموراً أخطأه مْوانا، فلم يغفر لي ذلك قطّ.

سبق أن قلت إنّ مْوانا كان أفضل قنّاص بالخردق، في حين كان ميلديه أفضل قنّاص بالرّصاص في غابة فيلير-كوتريه.

ولا أقصد بذلك القول إنّ مْوانا لم يكن قنّاصاً ممتازاً بالرّصاص كما بالخردق، بيد أنّ ميلديه كان قد جعل، خلال إقامة طويلة له في ألمانيا، من إطلاق النّار بالرّصاص اختصاصاً حقيقيّاً. فقد سبق لي أن رأيته يسمّر، على جذع شجرة بلّوط، سنجاباً كان يتسلّق ذلك الجذع بسرعة فائقة. ورأيته يعلّق حدوة فرس على جدار، ويصيب الثّقوب السّتة للحدوة بستّ رصاصات. كما رأيته، في لعبة لإطلاق النار بقربينة[2] تحوي اثنتَي عشرة طلقة، يرسم حول القُرص الأسود شريطاً من الثقوب

(1) الإشارة هنا إلى الرّسامين الشّهيرين الباروكيّين، الفلاماندي بيير بول روبنس Pierre Paul Rubens (1577- 1640)، والبلجيكي أنطوان فان ديك Antoine van Dyck (1599-1641)؛ وإلى تتلمُذ فان ديك على بول روبنس، بأنفيرس في بلجيكا، قبل توجّهه إلى إنجلترّا سنة 1640، حيث سيرسم البورتريهات الشّهيرة لكلّ من شارل الأوّل ملك أنجلترّا وأفراد أسرته وبعض من حاشيته. ما يعني، وهو ما يشير إليه دوما ههنا، أنّ التّلميذ تجاوز أستاذه في الإتقان.

(2) من الفرنسية Carabine (سلاح الفارس)، سلاح ناريّ اختُرِع في القرن السادس عشر، يعتبر سلف البندقيّة، وما تزال أنواع مطوّرة منه تُستخدم في الصيد (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بالرصاصات الإحدى عشرة الأولى، ثمّ يخرق الدريئة بالطّلقة الثّانية عشرة.

بعد مْوانا وميلديه، يأتي بيرتلان، عمّ شورون، الذي كان يُصيب بثلاثة أرباع طلقاته، وبعد بيرتلان يأتي الآخرون جميعاً.

في عهد الإمبراطور، تمّ القيام بكلّ شيء من أجل المحافظة على الخنزير البرّيّ في غابة فيلير-كوتريه. ومع بداية عودة آل بوربون[1]، لم يكَد السيّد دوقُ أورليان، الذي بيعت له تلك الغابة في شكل إقطاعة، يجد الوقت ليُصدر أوامره في ذلك الشأن. لكن، مع العودة الثّانية للملكيّة[2]، وجّه للسّيد دوفيولين أوامر صارمة بإبادة الخنازير البرّية، وذلِك على سبيل المعارضة من جهة، وبسبب خسائر حقيقية من جهة أخرى، إذ لقد اشتكى المُلّاك المجاورون من الخسائر التي تكبّدوها بسبب الخنزير البرّيّ، وقاموا بمهاجمة المكان.

أوامر مثل تلك يُحسِن الحرّاس دائماً استقبالها. فالخنزير البرّي، بوصفه طريدة مَهيبة، ليس لهم الحقّ في إطلاق النّار عليه، أو أنّه، إن حصل وأطلقوا عليه النّار، فذلك لأنّه طُلِب منهم ليغدو طعاماً. عندئذ يُقدَّم لهم ثمنُ الطّلقة، دون شرط أو قيد، أربعةً وعشرين سنتيماً، على ما أعتقد. لكن، في حال الإبادة، يكونُ الخنزير المقتول من حقّ مَن قتله. وخنزير برّيّ مملّح هو، كما تعلمون جيّداً، مؤونة إضافيّة ممتازة للشّتاء.

(1) زالت أسرة آل بوربون بفرنسا من الوجود سنة 1883، بوفاة الكونت شامبور دوقُ بيري، الذي لم يُخلّف أبناء. تعود بدايات هذه الأسرة إلى القرن الحادي عشر، وقد حكم بعض أفرادها فرنسا وإسبانيا ومملكة نابولي ودوقيّة بارما.

(2) استعاد النظام الملكيّ الحكم في فرنسا من 1815 إلى 1830، وقد جاءت هذه العودة الثانية إلى الملكية بعد فترة «المائة يوماً» المشار إليها من قبل، والتي كان نابليون الأوّل قد استعاد فيها الحكم مؤقّتاً (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

والحال أنّ موسم القنص كان قد انطلق منذ شهرين، عندما تقدّم لي السيّد دوفيولين بتلك الدّعوة الشّهيرة التي تملّكني منها ذلك الفرح كلّه.

وكانت تُخالط تلك الفرحةَ فكرةُ المجازفة؛ فتلك الخنازير البريّة الوادعة التي تُركت لشأنها طيلةَ ثلاث سنواتٍ أو أربع، نمت وتكاثرت، حتّى أنّها، من نموّها وتكاثرها، أضحت المتقدّمةُ في السّن منها بأحجام عملاقة، والصّغيرةُ بأعداد لا نهائية. كنتَ تلقاها في الغابة بمجموعات من اثني عشر خنزيراً أو خمسة عشر، وقد قُتِل بعضها، خلال فصل الشّتاء، حتّى في حدائق الخضار في المدينة.

هكذا نشأ أيضاً بين السّكان المجاورين للغابة ما يُشبه المثَل، في شكل أسئلة وأجوبة:

«السّؤال: عندما نزرع بطاطس على بعد خمسمائة متر عن الغابة، هل تعرفون ما ينتج عن ذلك؟

الجواب: طبعاً ينتج عن ذلك بطاطس.

جواب الجواب: لا، بل ينتج عنه خنازير».

فيجد أكبر المعارضين أنفسهم مضطرّين ليقولوا: «هذا صحيح».

والحال أنّ موسم القنص هذا بدأ منذ الخامس عشر من أيلول؛ أي منذ أربعة أشهر، على وجه التّقريب.

خلال تلك الشّهور الأربعة، كان شورون قد أتى بعجائب. وعندما يكون موعد حملة الصّيد قد حُدِّد في «المنزل الجديد»، وعندما يكون شورون قد كُلّف بمهمّة تحديد أماكن الخنازير لإثارتها، يصبح الفرح مُضاعفاً، فنحن لن نعود بخفّي حنين. صحيح أنّنا نقطع راجِلين فرسخاً ونصف فرسخ قبل أن نصل إلى «المنزل الجديد»، لكنّنا بوصولنا إلى انعطافة تلك الطّريق الجميلة المنحوتة عبر الغابة، نلمح عن بعدٍ شورونَ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

واقفاً على الطّريق، على مسافة أربع خطوات من باب منزله، ممسكاً ببوق صيد، وهو يُحيّي المفتّش وموكبه بطلقة أو بنفخة بوقٍ باللغة الحيويّة. وذلك يعني أنّ الحيوان أضحى في عداد القتلى أو أنّ المفتّش ورجال موكبه هُم إمّعات.

كما كنّا نجد في المنزل خمس قنّينات أو ستّاً من «المنقوع» كما كان شورون يُسمّي نبيذه الأبيض، وكؤوساً غسلتها بعناية ربّةُ بيت فاتنة، وخبزةَ العشرة أرطال التي تبدو وكأنّها معجونة بالثّلج. نأكل قطعة خبز مع قطعة جبن، ثمّ نُطري على خبز السيّدة شورون وعلى جبنها وعلى عينَيها، فننطلق في رحلة الصّيد.

لنقل، مروراً، إنّ شورون كان يعبد زوجته. ومن دون داعٍ أضحى تتملّكه الغيرة عليها يوماً بعد يوم. كان أصدقاؤه يمازحونَه أحياناً بخصوص تلك الغيرة المتنامية؛ غير أنّ هذه المزحة المعتادة كان أجلها قصيراً: كان لون شورون يمتقع فيبدو كالميّت. يلتفت بعد ذلك، وهو يُحرّك رأسه، في اتّجاه مَن لمس، دون تحوّط، جرحَ قلبه ذاك، الذي لا تستطيع ألسنة كلابه مداواته، ويُخاطبه قائلاً:

- اسمع! إنْ كان لي من نصيحة أقدّمها لك، فهي أن تخرس... أن تخرس فوراً... كلّما سارعت بالصّمت، كان ذلك أحسن لك!

فيلتزم الممازحُ المؤذي الصّمت فوراً. ولنضف أنّ التّلميحات التي كانوا يجرؤون على إلقائها حول نقطة الضعف الوحيدة لذلك الرّجل الخارق القوّة أمست، يوماً بعد يوم، نادرة وواعدة بأن تنبتّ تماماً، خلال وقت وجيز.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

5

شورون والكلب المسعور – نيكي، الملقّب بـ «بوبينو» – عشيقته – صيد الخنازير البرّية – نفخة البوق – ظفَر بوبينو – بوبينو يُقلَّد وساماً – الخنزير البريّ الذي قتله بوبينو يحيا من جديد.

ها نحن إذن قد عرّفنا بصيّادينا الجدد. أقبل يومُ الخميس. السّاعة الثّامنة ونصف صباحاً، وقد أفضى بنا المسير –أنا والسيّد دوفيولين وزوج أختي وحوالى اثني عشر حارس غابة، سواء من أتوا من فيلير–كوتريه أو مَن جُنّدوا على الطّريق–، أقول أفضى بنا إلى انعطافة الغابة الواقعة على بعد ما يقرب من أربعمائة خطوة من «المنزل الجديد».

كان شورون، كما جرت عادته، واقفاً أمام باب منزله، بوق الصّيد في يده. وما إن رآنا حتّى أطلق في الهواء النّغمات الأكثر ارتفاعاً، فما عاد لنا من شكّ في أنّ الصّيد أضحى مؤكّداً.

حثثنا الخطو فوصلنا.

كان داخلُ هذا المنزل الصّغير الذي كان السيّد دوفيولين قد عمل على تشييده منذ ثمانية أعوام أو ستّة، والذي يحمل اسم «المنزل الجديد»، فاتناً في ذوقه ونظافته.

ما زلت أرى ذلك الدّاخل كما تراءى لي عندما وضعت قدمي على عتبته، بسريره ذي السّتارة الخضراء، مع المدفأة، يساراً، وقد زُيّنت بثلاث

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بنادق. عند رأس السّرير تقوم نافذة متهلّلة بشعاع من شمسِ فصل الشّتاء، وعلى قدمه نُصبت نافذة أخرى بقصدِ مراَقبة جانبَي الطّريق معاً دون الخروج من المنزل. خزانة عليها أوانٍ فيها أغراس طويلة، مع تشكيلة كاملة من الحيوانات ذات الأربع ومن الطّيور المحنّطة.

كان بين تلك الحيوانات كلبُ رغْيٍ بشع، بلون ذئب، منفوش الوبر، عيناه دمويّتان وفمه مفتوح رائل.

يقول شورون إنّه لم يشعر بالخوف سوى مرّة واحدة في حياته، فعمل على تخليد باعث خوفه.

علّة خوفه هي هذا الكلب.

قبل أن يصبح محشوّاً بالقشّ كان مسعوراً.

كان شورون يُشذّب أشجاراً في حديقته الصّغيرة قبالة منزله، عندما رأى فجأة ذلك الكلب وهو يعمل جاهداً على عبور الحاجز. فهم على الفور من مظهر تينك العينين المتوقّدتين وذلك الفم المُزبد أنّ الحيوان مسعور، فانطلق شورون يعدو في اتّجاه منزله.

ومع أنّ شورون عدا بسرعة، كانت سرعة الحيوان أكبر، فلم يُسعف الوقتُ شورون لإغلاق بابه خلفه ولا ليُمسك ببندقيته المعلّقة فوق المدفأة. كلّ ما استطاع القيام به هو أن يقفز إلى فراشه وأن يلفّ الغطاء على جسده حتّى يصدّ ما أمكن من عضّات الكلب. قفز الحيوان إلى الفراش في الوقت نفسه الذي قفز فيه شورون، تقريباً، وجعل يعضّ عشوائياً حزمة الصّوف تلك، التي كان في داخلها رجل. لكنّ شورون بسط فجأةً الغطاء بشكل كامل ثم لفّه على الكلب. وبينما راح الحيوان يرفس بقوائمه، قفز شورون وأمسك ببندقيّته فأطلق عن قربٍ طلقتين عبر الغطاء الذي تلوّن بلون الدّم ثمّ اتّخذ شكلاً مُتشنّجاً لثوانٍ، لكن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سرعان ما قلّت التّموجات ثمّ كفّت كلّيةً، تاركةً مكانها لآخر ارتعاشات الحياة وهي تفنى. بسَطَ شورون الغطاء. كان الحيوان قد فارق الحياة.

حنّطَ شورن الكلب بالقشّ ووضعه على اللّحاف المدمى الذي كان الكلب يعضّه بعنف.

من ينظر إلى الكلب، مع كونه محنّطاً، يفهم أنّ شورون كان قد أخذ الخوف منه كلّ مأخذ.

فحصتُ تلك الحيوانات كلّها تباعاً، واستمعت إلى حكاياتها من أوّل واحد منها إلى الأخير. أكلت قطعة خبز مع جبن وأنا مُسترسل في طرح أسئلتي، وشربت كأسين من النّبيذ وأنا أستمع، فوجدت نفسي مستعدّاً للانطلاق قبل الآخرين.

أثناء خروجنا أراني السيّد دوفيولين، في حديقة شورون، باباً علوّه ستّ أقدام، كان رأى والدي يقفز فوقه، أثناء بناء المنزل، رغم معاناته في تلك الفترة.

كانت تلك القصّة قد تناهت إلى مسمع شورون، فحاول أكثر من مرّة أن يقوم بالمِثْل، دون أن يفلح في ذلك قطّ.

ما تتميّز به رحلات القنص تلك، المُشكّل طاقمها في جزئه الأكبر من حرّاس غابة، هو الغياب التّام للتّبجّح؛ وليُغفَر لي استعمال هذه الكلمة، فهي شائعة لدى الصّيادين. كلّ واحد منهم يعرف مجاوره، ويكون هو معروفاً لديه أيضاً، بما لا يسمح بأن يبهر أحدهما الآخر ببعض من تلك الأكاذيب البريئة التي بها يُعلي صيّادو سهل سان-دُني من قدْرهم. هم يعرفون مَن هم الأقوياء ومَن هم الضّعاف، فيعاملون الأقوياء بكامل الإنصاف.

لكنّهم يقسون أيضاً على الضّعاف.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وكان في مقدّمة الضّعاف شخص يُدعى نيكي، ويلقّب بـ «بوبينو»، بسبب شغفه –نحن نتحدّث عن سنّه المبكّرة طبعاً– باللّعب بالخذروف الذي يحمل هذا الاسم. هو مشهور بذكائه، لكنّه يُضيف إلى هذه السّمعة سمعة أخرى، يستحقّها مثل الأولى تماماً، وهي أنّه القنّاص الأقلّ براعة في المجموعة.

فكان أصحابنا يتحدّثون عن إقدام كلّ من شورون ومْوانا وميلديه وبيرتلان، لكنّهم يكيلون سخرية قاتلة للمسكين بوبينو.

وكان هو يردّ على ذلك بكلام لا علاقة له بما يكونون خائضين فيه، بطريقة مرحة، تُضفي عليها لكنته البروفنسالية صبغة سائغة للغاية.

ويومئذٍ، قدّر السيّد دوفيولين أن يُغيّر موضوع التّهكّم دون أن يُغيّر الهدف؛ فبوبينو هو من كان يُرمى لإغاظته، لكن ليس لقلّة براعته وإنّما بسبب عشيقته.

لبوبينو عشيقة... لم لا؟

لم تكن تلك العشيقة حسناء... لكلٍّ ذوقه.

تلك العشيقة هي تحديداً المرأة التي سبق لها أن صعدت سلّم عربة الجنرال لالمان وبصقت في وجهه.

خاطبه السّيد دوفيولين قائلاً:

– ما هذا يا نيكي، أنت المقترن بامرأة فارعة القامة ومكتنزة، أيّ سحر وجدته في تلك المرأة الجافّة مثل مسمار؟

– سيدي المفتّش، هي من أجل الأيّام العجاف.

فأجاب السّيد دوفيولين، ملحّاً:

– لو كانت جميلة، لكنت تفهّمت.

– آه يا سيّدي المفتّش، أنت لا تعرف!...

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- لكنْ، عينان حمراوان...
- سيّدي المفتّش، أنت لا تعرف!...
- لكنْ، أسنان سوداء...
- سيّدي المفتّش، ما الذي يجعل ساعات بريغيه[1] مثمّنة بهذا القدْر؟
- بحق الرّب! إنّها الحركة.
- إذن، سيدي المفتّش، حركة بريغيه!... حركة يجب أن توضع في علبة من ذهب!

علا صوت الجميع بالضّحك. ضحكت أنا بدوري مثل الآخرين، رغم أنّني لم أفهم من جواب بوبينو شيئاً.

كنت على وشك الاقتراب منه كي أطلب منه هو شخصيّاً تفسيراً لمزحته، عندما أشار لنا شورون بأنّ أوان الصّمت قد حان.

كنّا على بعد خمسمائة متر من مخبإ الخنزير البرّيّ.

بدءاً من تلك اللّحظة لم يعد يُسمع أيّ صوت. عندئذ عرضَ شورون خطّته على المفتّش، وأعطانا هذا الأخير أوامره بصوت خفيض، فذهبنا لنشغل مواقعنا حول المكان الذي كان شورون، برفقة كلبه الذي يُمسك هو به من مقْوده، يستعدّ للبحث فيه.

أنا أطلب، بتواضعٍ، المعذرة من قرّائي على استعمالي لمصطلحات الصّيد هذه كلّها، بالقدْر نفسه الذي يستعمله بها البارون في «المزعجون»[2]، لكنّ هذه المصطلحات وحدها تُعبّر عن فكري، وأنا، مع ذلك، أعتقد

(1) ولد أبراهام-لويس بريغيه Abraham-Louis Breguet سنة 1747 في نيوشاتل، وتوفّي بباريس في 1823. بدأ تعلّم صناعة السّاعات عندما كان في الخامسة عشرة من عمره. وبعد أن قضى سنوات طويلة في الدّراسة في هذا المضمار، أصبح معروفاً في فرنسا وفي العالم بتجويده لتلك الصّناعة وباختراعاته الباهرة فيها.

(2) «المُزعجون» *Les Fâcheux* باليّة ساخرة لموليير (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنّها كلّها معروفة بما يكفي وليست بحاجة لشرح.

كانت أمّي، كما هو معلوم، أوصت بي السيّد دوفيولين.

هي لم تسمح لي بمرافقة السّيد دو فيولين إلّا بشرط ألّا يتركني أغيب عن بصره، ووعدها هو بذلك. وكي يلتزم بوعده بدقّة كاملة، جعل موقعي بينه وبين مْوانا، وأمرني بأن أختبئ بشكل كامل خلف شجرة بلّوط ضخمة، ثمّ، إن أنا أطلقتُ النّار على الخنزير، فجرى الحيوان في اتّجاه الطلقة، عليّ أن أمسك بأحد أغصان الشّجرة وأن أعلوَ اعتماداً على قوّة معصميّ، تاركاً الحيوان يمرّ أسفل منّي.

كلّ قنّاص على قدر من التجربة يعرف أنّ تلك هي الطّريقة التي تتلاءم، بصفة عامّة، وظرفاً مثل ذاك.

قبل أن تمضي عشر دقائق كنّا كلّنا احتللنا مواقعنا.

وسرعان ما تعالى صوت كلب شورون، الذي وقع على الأثر، وراح يتردّد بقوّة وبوتيرة توحيان بقرب الكلب من الطريدة. فجأةً سمعنا تقصّف أشجار الأيكة. رأيت، من جهتي، شيئاً ما يمرّ، لكنْ قبل أن يكون لي الوقت الكافي لحمل البندقيّة إلى كتفي، كان ذلك الشّيء قد اختفى. أرسل مْوانا طلقته دون تصويب دقيق، لكنّه هو أيضاً حرّك رأسه دلالةَ عدم اعتقاده بإصابة الحيوان. ثمّ سمعنا، أبعد قليلاً، طلقة بندقيّة ثانية، ثمّ ثالثة، أُعقبت على الفور بصيحة نصر أطلقها بونينو من أعماقِ رئتيه.

استجاب الجميع للصّرخة رغم أنّهم، عندما عرفوا صوت المنادي، فكّر كلّ واحد منهم في أنّه قد يكون ضحيّة إحدى تلك الخدَع التي يخترعها ذلك الظّريف العابث.

عدوت مثل الآخرين، وعليّ أن أقول حتّى إنّني كنت أعدو أسرع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

منهم. لم يكن سبق لي أن سمعت صرخة إعلانِ قتلِ خنزير، فما أردت أن أُضيع فرجة مثل تلك. ألحّ عليّ السيّد دوفيولين بأَلّا أسرع، لكنّني لم أنصت له.

قلت إنّ الظّن ذهب بالجميع إلى أنّ في الأمر خدعة؛ لذلك أصيبوا بدهشة لا مثيل لها عندما وصلوا إلى طريق دامبلو، التي تقطع الطّريق المستعرضة التي كنّا احتللنا مواقعنا عليها، فرأوا، وسط الطّريق، بوبينو جالساً بهدوء على خنزيره.

وكي نُكمل هذه اللّوحة التي يمكنها أن تكون مثيلةَ موتِ خنزير كاليدونا الذي قتله ميلياغر[1]، نقول إنّ بوبينو جعل يقدح ولّاعته ليشعل غليونه في فمه، تعكس حالُه لا مبالاة رجلٍ عُهِدَ فيه هذا النّوعُ من البطولات.

مع طلقته الأولى تدحرج الحيوان مثل أرنب، فلم يعد إلى التّحرّك من موضعه الذي سقط فيه. ويمكننا أن نخمّن حفل التّهاني المشوبة بالسخرية التي ارتفعت حول صيّادنا المُظفّر وهو يجيب بين نفثتين من دخانه، معطياً الانطباع بأنّه مُستريح، وهو يُغطّي غليونه بقطعة من ورقة حتى لا تذهب الرّيح بالصّوفان[2]:

- أيْ نعم! هكذا نُسقطها، هذه الحيوانات الصّغيرة، نحن البروفنساليّين.

وبالفعل، كان كلّ شيء على أكمل وجه. حصل الإسقاط بطريقة

---

(1) الإشارة هنا إلى منحوتة شهيرة مُستوحاة من الميثولوجيا الأغريقية، يظهر فيها البطل الأسطوريّ ميلياغر على يساره خنزير كاليدونا البرّيّ المقتول، وعلى يمينه كلب الصّيد. وتذكر الأسطورة أنّ خنزير كاليدونا ذاك مخلوق عجائبيّ كان، قبل أن يُقتل، يعيث إتلافاً في جهة كاليدونا، الواقعة في غرب اليونان.

(2) مادّة تخرج من قلب الشجرة، رخوة ويابسة، تُقدح بها النار.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ممتازة؛ أصابت الرّصاصة الحيوان خلف أذنه، وما كان بإمكان مْوانا أو ميلديه أو برتولان أن يقوموا بأحسن من ذلك.

كان شورون آخر من وصل، غير مبادر إلى أن يخطو أسرع من الآخرين.

بمجرّد أن بدا لنا خارجاً من الغابة وقد أعاد كلبه إلى مقْوده، رأيناه يثبّت بصره المذهول على المجموعة التي نشكّلها، ويحتلّ نيكي محورها. عندما رأينا شورون تنحّينا جانباً كي يرى ما كنّا نراه نحن دون أن نُصدّق.

قال شورون من أبعد مكان يُمكن أن يُسمع منه صوته:

- ما هذا الذي يقولونه يا بوبينو؟ يقولون إن الخنزير ارتمى في طلقتك مثل أبله!

- أن يكون ارتمى في طلقتي أو أن تكون طلقتي ارتمت فيه، فإنّ ذلك لا يقلّ صحّة عن أنّ بوبينو المسكين سيكون له لحم يشويه طوال فصل شتائه، وأنّه لن يشاركه أكلَه في بيته إلّا من سيكونون قادرين على ردّ الدّعوة بمثلها، باستثناء السيّد المفتّش طبعاً، -تابعَ بوبينو وهو يرفع قبّعته-؛ فهو سيُشرِّف ويُسعِد دائماً خادمه المتواضع، عندما يبتغي تذوّق طبخ الأمّ بوبينا.

بهذه الطّريقة كان نيكي يدعو زوجته لأنّ هذا الاسم هو من وجهة نظره المؤنّث الطّبيعيّ لاسم بوبينو.

- شكراً نيكي، شكراً! قال السيّد دوفيولين، ليس ذلك ممّا يُرفض.

فقال حارسٌ يُدعى فرانسوا، وهو أخو خادم السيّد دوفيولين، ليون ماس، الذي سبق لي أن ذكرت اسمه غير مرّة:

- بربّك يا بوبينو، بما أنّه لا يحصل لك أن تقوم باستمرار بشيء مثل هذا، فعَليّ، بعد استئذان السيّد دوفيولين، أن أقلّدك وساماً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فأجاب بوبينو:

- قلِّدْ يا صديقي، قلِّدْ! فهناك أكثر من واحد قُلِّدَ وساماً في عهد الرجل الآخر[1]، وما كان ليستحقّ الوسام أكثر منّي.

لم يكن بوبينو عادلاً. ففي عهد ذلك الرجل لم تكن الأوسمة تُقدّم بهذا القدر من السّخاء.

لكن الشّغف كان يحجب عنه الرّؤية. فبوبينو، بعد أن كان مناصراً لعهد الإرهاب سنة 1793 [2]، أصبح ملكياً مُلتزماً سنة 1815، مشاركاً في ذلك محبوبته التي يوجد منزلها على طريق سواسون.

واصل بوبينو تدخينه بهدوئه الأدعى للسّخرية، بينما أخرج فرانسوا سكّيناً من جيبه واقترب من الجزء الخلفيّ للخنزير، فأمسك بذيله وفصله بضربة واحدة عن جسده.

وبصورة أدهشت الجميع، قام الخنزير، مع بقائه ساكناً، بإطلاق نخيرٍ بَهيم.

وفيما جعل فرانسوا يربط ذيل الحيوان إلى عروة بنطال القنّاص المُظفّر، سأل بوبينو:

- آه، ما هذا يا صغيري؟ يبدو أنّنا مُتشبّثون بقطعة الحبل هذه.

أطلق الخنزير نخيراً للمرّة الثّانية وهو يحرّك إحدى قوائمه، فقال بوبينو:

---

(1) يقصد عهد نابليون بونابرت (المُراجع).

(2) «عهد الإرهاب» أو «عهد الرعب» اسم لفترة من مراحل الثّورة الفرنسية، اتّسمت بسجن الثّوار واغتيالهم لأعداد كبيرة من الفرنسيين ممّن كانوا يسمّونهم «معارضي الثّورة». وقد انتشر هذا الإرهاب خصوصاً في فترتين، امتدّت أولاهما من العاشر من آب إلى العشرين من أيلول 1792، والثانية من الخامس من أيلول 1793 إلى الثامن والعشرين من تمّوز 1794.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- حسناً، حسناً! نحن نرى كابوساً[1]، مثل المسكين موكيه -كان كابوس موكيه قد أضحى مضربَ مثلٍ-، لكن ليست الأمّ دُوران هي من يجلس على البطن منّا، وإنّما الأب بوبينو، والأب بوبينو عندما يستقرّ في مكان، ليس من السّهل جعْله يُغادره!

لم يكد ينهي كلماته حتّى ألفى نفسه يتدحرج على بُعد عشر خطوات من المكان الذي كان فيه، أنفه ممرّغ في التّراب وغليونه مكسور بين أسنانه.

تنحّينا جميعاً ونحن نتساءل ما إذا كان زلزال قد ضرب الأرض.

لا، إطلاقاً، بل لقد نهض الخنزير الذي لم يكن، على ما بدا، إلّا مصعوقاً بالطّلقة، وقد استدعاه إلى الحياة النّزيف الذي كان أحدثه فيه فرانسوا. وبعد أن تخفّف، كما رأينا لتوّنا، من الحمل الذي كان يجثم عليه، انتصب واقفاً، لكن مترنّحاً على قوائمه كأنّه سكران.

- آه! بحقّ الرّب! قال السيّد دوفيولين، دعوه يفعل. سيكون مثيراً للفضول أن يعود للحياة!

صاح شورون وهو يبحث عن بندقيّته التي كان قد تركها في حفرة كي يعقِلَ كلب صيده:

- حذار! لا تدَعوه يفعل، بل بالعكس أطلقوا عليه النّار، أطلقوا النّار! أنا أعرف هذه الأنواع، من الصّعب قتلها. أطلقوا النّار، تبّاً لكم! أطلقوا بالأحرى طلقتين بدل واحدة، وإلّا فسيُفلت!

لكنّ الوقت كان قد فات. ارتمت الكلاب على الخنزير وهي تراه ينتصب واقفاً، بعضها مُمسكٌ بأذنيه وبعضها بفخذيه. تجمّعت كلّها، أخيراً، حول جلده، فحجبته بالكامل، حتّى لم يبقَ على جسده الشّاسع

(1) في هذه العبارة، وفي التي سبقتْها، يتكلّم بوبينو على سبيل السخرية بصيغة الجمع، واضعاً الكلام على لسان الخنزير البرّيّ، فكأنّه يتخيّل مشاعر الحيوان الجريح الذي كان هو يعتليه (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مثل درعٍ مكانٌ يمكن أن تُطلق فيه رصاصة.

أثناءَ ذلك، التجأ الخنزير بهدوء إلى الحفرة، وهو يسوق معه ذلك الرّهط، ثمّ ولج الأيكة فاختفى، يُطارده بوبينو الذي انتصب واقفاً يتملّكه الغضب، مُحاولاً بكلّ ما أوتي من قوّة أن يتجاوز الإهانة التي لحِقت به، فصاح شورون:

- أوقفه، أوقفه! أوقفه من ذيله يا بوبينو! أوقفه، أوقفه!

كان الجميع ينثني من الضّحك. سُمعت طلقتان، فقال شورون:

- هذا حسنٌ! هذا ممتاز! الحيوان هو الذي سيقتل كلابنا الآن!

لكنّنا لم نسمع أيّ صرخة توحي بأنّ نبوءة شورون المشؤومة تحقّقت. أخيراً، وبعد لحظة، رأينا بوبينو يعود للظّهور، خائباً. لقد أخطأه بطلقتيه، ففرّ الخنزير، تُطارده الكلاب جميعها ونحن نسمع أصواتها تبتعد بسرعة.

طاردناه النهارَ كلّه. قادنا على مسافة خمسة فراسخ أبعد من أيكة إيفور حيث كنّا، فما سمعنا عنه بعد ذلك أيّ خبر، رغم أنّ شورون أخبرَ حرّاس غابة فيلير-كوتريه جميعهم، من الذين لم يشهدوا الحادثة، لا بل أخبر حتّى حرّاس الغابات المُجاورة، بأنّه إن قتل أحدُهم، صدفةً، خنزيراً بلا ذيل، وكان حريصاً على الإمساك به كاملاً، فسيكون بإمكانه أن يعثر على ذلك الذّيل في عروة بنطال بوبينو.

كانت رحلة الصّيد تلك، بالتّأكيد، مسليّة أكثر ممّا لو كانت ناجحة؛ لكنّها لم تحقّق أهداف المفتّش الذي تلقّى الأوامر بإبادة الخنازير لا بإشالتها[1].

(1) الإشالة هي قطع العضلات التي تسمح لذنب الفرس بالهبوط، كي يبقى مرتفعاً على الدوام (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثمّ إنّ السيّد دوفيولين حدّد، عندما انفصلنا عن الحرّاس، رحلة صيد ليوم الأحد المقبل، آمراً بأن يتمّ، في الفترة الممتدّة من اليوم الذي كنّا فيه إلى غاية ذلك التّأريخ، تحديد مخابئ أكبر عدد ممكن من الخنازير، حتّى إذا ما خاب مسعانا في مِرصَدٍ[1] سارعنا إلى غيره.

وأثناء عودتي مع السيّد دوفيولين، جعلتُ أُلاطفه، فاستطعت بمساعدة من زوج أختي، الذي كان يُحبّه، أن أحصل على موافقته لا على مرافقته في رحلة القنص المقبلة فحسب، وإنّما في رحلات الصّيد القادمة كلّها، اللّهم إلّا أن يأتي الرّاهب غريغوار، غيرَ راضٍ عنّي، ليستعمل ضدّ مُتَعي حقّ النّقض الشّهير الذي كان كلّف غالياً لويس السّادس عشر[2].

(1) هو مكان الرصد، أي ذلك الحيّز من غابة أو من حقل يكمن فيه صيّاد أو أكثر، متربّصين بالطرائد (المُراجع).

(2) الإشارة هنا إلى حدث سياسيّ حصل أثناء فترة حكم ملك فرنسا لويس السّادس عشر (1754-1793)، عندما منحته الجمعيّة التّأسيسية حقّ النّقض (الفيتو)، ممّا ترتّب عنه اختلال في التّوازن بين السّلطتين التّنفيذية والتّشريعية، فلُقّب، نتيجة لذلك بـ «السيّد فيتو».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

6

الخنازير البرّية وحرس الغابة - رصاصة روبن هود - الجزّار

حُدّد موعد يوم الأحد عند سانت-هوبير؛ مكانِ التّلاقي الأكثر ارتياداً، وهو، في الأوان نفسه، أحد أجمل أماكن الغابة.

وصلنا، أنا والسيّد دوفيولين، في الوقت المُحدّد تماماً. ولم يستطع زوج أختي مصاحبتنا لأنّه كان في جولة عمل.

أتى الجميع في الموعد المتّفق عليه بدقّة متناهية.

كان قد تمّ تحديد مواضع ثلاثة خنازير؛ رتّين صغيرين وخنزيرة.

لا داعي طبعاً لقول إنّه لم يبق حارس غابة واحدٌ لم يسأل بوبينو عن أخبار خنزيره. لكن، وباستثناء الذّيل الذي سمحت روحه الطّيبة بالاحتفاظ به في عروة بنطاله، لم يَسمع هو أحداً يتحدّث عنه.

كان ثمّة، كما قلنا، ثلاثة خنازير علينا مهاجمتها: أحدها في مِرصد بيرتلان وآخر في مرصد شورون وثالث في مرصد مْوانا. بدأنا بالخنزير الأقرب، وهو رتّ صغير كان بيرتلان قد حَدّد موقعه.

قبل أن يخرج من الحصار الذي ضربناه حوله، قتله ميلديه بطلقة أصاب بها وسط جسده. انتقلنا للثّاني في مرصد شورون، على بعد حوالى فرسخ من المكان الذي قتلنا فيه الخنزير الأول. قادنا شورون، في البداية، كما جرت عليه عادته، إلى «المنزل الجديد»، ليشرب كلّ منّا كأساً ويأكل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كسرة خبز، ثمّ انطلقنا من جديد.

أطبقنا حصارنا. كان موقعي بين السيّد دوفيولين وفرانسوا؛ ذاك الذي وشّح بوبينو. وبعد فرانسوا يأتي مْوانا، وبعد مْوانا، ما عدتُ أذكر مَن.

نحن هذه المرّة في مواجهة الخنزيرة البريّة.

ولج شورون الأيكة ذات الأشجار الصّغيرة برفقة كلب صيده. بعد خمس دقائق انطلقت أنثى الخنزير. سمعناها قادمة، كما كان الشّأن في المرّة الأولى، وهي تضْرف بفكّيها. أطلق عليها السيّد دوفيولين الذي كان أوّل من مرّت أمامه، رصاصتين من بندقيّته دون أن يُصيبها. أطلقت عليها أنا طلقتي، لكن، وإذ كانت تلك طلقتي الأولى، أخطأتها أنا أيضاً. أطلق فرانسوا أخيراً النّار بدوره، فأصاب وسط جسدها. قامت الخنزيرة، على الفور، بالعودة في زاوية مستقيمة، فداهمت، بسرعة كسرعة البارود، من أطلق عليها النّار. انتظرها فرانسوا، الواثق من نفسه، ثابت القدمين، فرماها بطلقته الثّانية عن كثب، لكن في الأوان نفسه، ووسط الدّخان الذي لم تكن الرّيح قد بدّدته بعد، أضحى فرانسوا والخنزيرة يشكّلان كتلة واحدة لا شكل لها. سمعنا صرخة استغاثة. كان فرانسوا المنقلب على ظهره يحاول سدىً أن يستلّ مدية الصّيد، بينما كانت الخنزيرة، المهتاجة ضدّه، تنبش في جسمه بخطمها. سارعنا جميعنا لتقديم الغوث له، لكنّنا ما كدنا نتقدّم أربع خطوات حتّى سمعنا صوتاً يصيح بنبر آمر، أوقفَ السيّد دوفيولين أوّل من أوقف:

- لا تتحرّكوا!

توقّفنا جميعنا، ساكنين خُرْساً، في أماكننا. وحدها نظراتنا كلّها اتّجهت نحو مصدر الصّوت. عندئذ رأينا مْوانا يُنزل ماسورة بندقيته في اتّجاه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الكتلة الرّهيبة. بدا للحظة وكأنّ العجوز تحوّل إلى تمثال صخريّ. أخيراً انطلقت الرّصاصة، فتدحرج الحيوان، المُصاب في كتفه، على بُعد أربع خطوات من فرانسوا الذي ظلّ مصعوقاً.

قال فرانسوا وقد انتصب من جديدٍ بحيوية على ساقيه:

- شكراً، أيّها الصّديق! إن احتجتَ إليّ ذات يومٍ، فأنت تعرف، إمّا ممات وإمّا حياة! فأجابه مْوانا:

- أوه! لا شكر على واجب.

سارعنا جميعاً إلى فرانسوا؛ خدشٌ في فخذه وفي ذراعة عضّة، ذاك كلّ ما في الأمر. ليس ذلك بشيء بالمقارنة مع ما كان ممكناً أن يصير إليه لو واجه خنزيراً بدل خنزيرة. ولمّا تأكّدنا من ضآلة خطورة جرحَيه، تحوّلت الهتافات إلى تهانٍ مُقدّمة لْموانا. لكن، وبما أنّها لم تكن المرّةَ الأولى التي يغدو فيها مْوانا بطلَ مُغامرة مثل تلك، استقبل إطراءاتنا بمهابة الرّجل الذي لا يفهم كيف نجد خارقاً للعادة أمراً بهذه البساطة، أمراً هو، من وجهة نظره، سهل الإنجاز.

بعد اهتمامنا بالرّجلين، انشغلنا بالحيوان.

كانت الخنزيرة قد أُصيبت برصاصتَي فرانسوا، لكنّ إحداهما، المُطلقة من الجانب، مرّت على سطح الفخذ دون أن تخترق الجلد، والأخرى، التي أُطلقت من أمام، انزلقت على الرأس، حافرةً ثلماً نازفاً.

أمّا رصاصة مْوانا فأصابت الحيوان في كتفه، فأردته جثّة هامدة.

وزّعنا على الكلاب حصّتها ثمّ وضعنا الحيوان على أكتاف عاملَي غابةٍ كُلّفا بحمله إلى «المنزل الجديد»، كما لو كان لُقيَةً نفيسة، ثمّ انخرطنا ثانيةً في الصّيد وكأنّ شيئاً لم يحدث، أو كما لو كنّا نُبِّهنا إلى أنّ حدثاً مختلفاً في رهبته عن الذي حكيناه لتوّنا، سيحصل قبل نهاية النّهار.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان من المفروض أن يَحدُث الهجوم الثّالث في مرصد مْوانا المتاخم لذاك الذي قُلِّد فيه بوبينو وساماً قبل ثلاثة أيّام. أدركناه بعد ثلاثة أرباع السّاعة من المشي. اتُّخِذت الاحتياطات نفسها التي اتُّخذت في الحملات السّابقة. حوصر المجال، وشغلت مكاني هذه المرّة بين السيّد دوفيولين وبيرتلان، ثمّ، وبما أنّ مْوانا هو الذي حدّد موقع الوحش، فقد ولج المكان المُحاصر ليبحث فيه عنه. بعد ذلك بخمس دقائق، أعلنت الكلاب أنّ الخنزير قد انطلق.

ركّز كلّ واحد منّا انتباهه كي يغتنم فرصة مرور الخنزير. سمعنا فجأةً طلقة قربينة. في اللّحظة نفسها شاهدت، على بعد أربعين خطوة منّي تقريباً، حجراً رمليّاً ينفجر. بعد ذلك سمعت، على يميني، صرخة ألم. التفتّ فلمحت بيرتلان يتشبّث بكفٍّ بغصن شجرة، ويضغط بالأخرى على جنبه.

كان الدّم يسيل من بين أصابعه.

بدأ يتكوّم، ثمّ سقط على الأرض وهو يُصدر أنيناً عميقاً.

- النّجدة! النّجدة! صحتُ. بيرتلان مجروح!

عدوت في اتّجاهه، متبوعاً بالسيّد دوفيولين، بينما كان الصّيادون كلّهم يتقدّمون، في خطّ، نحونا، بخطوات سريعة.

كان بيرتلان فاقداً لوعيه. أسندناه بأذرعنا. الدّم يسيل بغزارة من جرح أصابه أعلى وركه الأيسر.

بقيت الرّصاصة في جسده.

كنّا جميعنا حول المُحتضَر، نتساءل بأعيننا عمّن أطلق الرّصاصة، وإذا بشورون يخرج من أيكة أشجار، دون قبّعة، ممتقعاً مثل شبح، حاملاً في يده القربينة التي كان ما يزال دخانها صاعداً، وهو يصيح:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- مجروح! مجروح! من قال إنّ عمّي مجروح؟

لم يجب أحد من بيننا، لكنّنا أريناه المُحتضر الذي كان يتقيّأ الدّم بملء فيه.

تقدّم شورون زائغ العينين متعرّق الجبهة، شعره منتصب على رأسه، فأضحى بقرب الجريح. راح ينظر إليه وهو يغدو أكثر فأكثر امتقاعاً، الأمر الذي كنّا نعتبره قبلذاك مستحيلاً، ثمّ أصدر ما يشبه الزّئير وهشّم خشب قربينته على شجرة ورمى بماسورتها على بعد خمسين خطوة منه.

بعد ذلك جثا على ركبتيه راجياً المحتضر أن يغفر له، لكنّ المُحتضر كان أغمض عينيه سلفاً فما عاد لفتحهما قطّ!

ارتُجِلت نقّالة على الفور، فوُضِع الجريح عليها وحُمِل إلى منزل مْوانا الذي لم يكن يبعدُ بأكثرَ من أربعمائة خطوة عن المكان الذي شهِد الحادث. رافقنا النقّالة جميعنا، أو بالأحرى سرنا في أعقاب شورون الذي كان يمشي بجانبها، ذراعاه متأرجحتان ورأسه مُنكّس، لا يتلفّظ بكلمة، ودون أن يذرف دمعة واحدة. في تلك الأثناء، امتطى أحد حرّاس الغابة فرسَ السيّد دوفيولين، وسارع للبحث عن طبيب.

بعد حوالى نصف ساعة أقبل الطّبيب كي يؤكّد ما سبق أن ساورنا جميعاً خوفٌ منه عندما رأينا أنّ بيرتلان لم يستعد وعيه، فالجرح قاتل.

كانت زوجة الجريح ما تزال جاهلة بالخبر فوجبَ نقله إليها. كُلّف السيّد دوفيولين بنقل تلك الرّسالة الحزينة، فشرع يستعدّ لمغادرة المنزل.

عندئذ وقف شورون واقترب منه، قائلاً:

- سيّد دوفيولين، من المعلوم أنّني ما دمت حيّاً، لن يُعوزها شيء، تلك المرأة المسكينة! وإن أرادت أن تأتي لتسكن معنا، فستُعامل على أنّها أمّي. .

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فأجاب السيّد دوفيولين، منقبض القلب:

- أجل يا شورون، أجل، أنا أعرف أنّ لك قلبَ رجلٍ شهم. أنت فتىً شريف. ما حيلتنا يا صديقي! أنت تعلم أنّ بعض الرّصاصات تُصَبّ وقد كُتب عليها اسمٌ ما؛ الخطأ ليس خطأكَ البتّة. هو خطأ القدر.

فصاح شورون:

- آه يا سيّدي المفتّش! قل لي كلمات أخرى مثل هذه، فأنت لا تعرف مقدار ما أشعر به منها من راحة... وأعتقد أنّني سأبكي.

قال السّيد دوفيولين:

- ابكِ يا ولدي، ابكِ! ابكِ، فالبكاء سيُريحك.

فصاح الشّقي أخيراً وهو ينفجر باكياً ويتهالك على أريكة:

- أوه! يا إلهي، يا إلهي!.

لم يسبق لشيء أن أثّر فيّ كما أثّرت فيّ رؤية قوّة عظيمة يكسرها ألمٌ عظيم. رؤية بيرتلان وهو يصارع الموت ويُريق دمه أثّرت فيّ أقلّ ممّا أثّرت رؤية شورون يصارع اليأس عاجزاً عن سفح دمعة واحدة.

غادرنا تباعاً غرفة الموت تلك، فخلَتْ إلّا من المحتضر والطّبيب ومُوانا وشورون.

لفظ بيرتلان أنفاسه الأخيرة ليلاً. ويمكن تخمين شعور أمّي عندما علمت بما حصل، والخطاب الرّائع الذي ألقته على مسامعي عن الرّصاصات الطّائشة. ألم يكن ممكناً أن تُصيبني أنا رصاصة شورون، تماماً كما أصابت بيرتلان؟ لو كان ذلك كذلك، لكانت هي التي تبكي الآن بالقرب من جثّتي!

نزلت عند رأيها، فقلت لها إنّ كلّ شيء ممكن، لكن هذه هي الحادثة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأولى من نوعها التي تقع في الغابة، حسب ما يتذكّره النّاس؛ وإنّ حصولها بالطّريقة التي حصلت بها هو الذي سيحول دون وقوع مثلها في غضون مائة سنة قادمة؛ وإنّه، في تلك المائة سنة، مَن لن يكون قضى بالرّصاص سيكون أماته ذلك القنّاص الأكثر إرعاباً، والذي نسمّيه الزّمن. وعليه، فما من سببٍ يجعلني أُحجم عن الذّهاب في رحلات القنص المقبلة، كما ذهبتُ في الرّحلات السّابقة... وا أسفاه! لم تكن لأمّي إرادة أخرى غير إرادتي، وأنا ألححتُ في إزعاجها إلى أن استسلمتْ.

آه يا أمّيَ المسكينة! أنت التي قتلك فيما بعدُ قنّاص القدَر قبل الأوان، في اللّحظة التي كنت أنا أهمّ بأن أسدّد لك، فرَحاً وراحةً، ثمنَ تلك الآلام كلّها التي كنتُ سببَها، وذلك الإزعاج كلّه الذي كنت أنا مصدره!

يوم الخميس الموالي ذهبت في رحلة الصّيد رغم حادث الأحد الرّهيب.

حُدّد الموعد هذه المرّة في «خلنج الذّئاب».

دعا السيّد دوفيولين الجميع عدا شورون.

لكن سواءٌ استُدعيَ شورون أم لم يُستدعَ، هو ليس من الرّجال الذين يتخلّفون عن واجبهم. أقبل في الوقت الذي وصل فيه الجميع، غير أنّه لم يكن يحمل بندقيّة، فقال السّيد دوفيولين:

- هو ذا! كنت متأكّداً من ذلك.

ثمّ انثنى نحوه:

- لماذا أتيت، بحقّ الشّيطان، يا شورون؟

- لأنّني رئيس فرقة، سيّدي المفتّش.

- لكنّني لم أستدعك.

- نعم، أنا أفهم، وأشكرك... لكن الأمر ليس كذلك البتّة. الأولويّة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

للعمل. الله يعلم أنّني كنت مستعدّاً لبذل حياتي مقابل ألّا تحدث تلك الفاجعة، لكنّني عندما أظلّ أندب في البيت، لن يقلّل ذلك من أَقدام التّراب السّت المُهالة على جثمان ذلك الرّجل المسكين الغالي!... أوه! ثمّة أمر يُحيّرني، يا سيّد دوفيولين.

- ما هو يا شورون؟

- ذلك أنّه مات دون أن يُسامحني.

- كيف تُريد أن يُسامحك؟ هو لم يعرف حتّى أنّك أنت من أطلق تلكَ الرّصاصة الشّقية من القربينة.

- لا، هو لم يعرف ذلك لحظة موته، لكنّه سيعرفه، هناك في السماء. الموتى يعرفون كلّ شيء، حسبَ ما يُقال.

فقال السيّد دوفيولين:

- هيّا يا شورون، هيّا! بعض الشّجاعة.

- بعض الشّجاعة! تبّاً! أنت ترى جيّداً أنّني شُجاع، سيّدي المفتّش، ما دمت هنا. لكن لا يهمّ. كنت أودّ لو سامحني.

ثم أضاف، وهو ينحني على أذن الرّئيس:

- ستحصل لي مصيبة، سترى، يا سيّد دوفيولين، ستحلّ بي مصيبة.. وذلك...

- وذلك؟

- ذلك لأنّه لم يُسامحني.

- أنت مجنون!

- سترى.

- شورون!

- ماذا تريد! تلك فكرتي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- حسناً، اصمت أو فلنتحدّث في أمر آخر.
- في ما تشاء، سيّدي المفتّش.
- لماذا أتيت من غير سلاح؟
- لأنّني طوال حياتي، أتسمع؟ طوال حياتي لن ألمس قربينة ولا بندقيّة.
- وبأيّ وسيلة ستقتل الخنزير إن هاجم الكلاب؟
- بأيّ وسيلة سأقتله؟

ثمّ أخرج شورون مُدية من جيبه.

هزّ السيّد دوفيولين كتفيه.

- هزّ كتفيك كما تشاء، سيّد دوفيولين، سيكون الأمر كما قلت لك. فهذه الخنازير قاطِعةُ الطّريق هي السّبب في قتلي لعمّي! وبالبندقيّة أو بالقربينة، لن أشعر أنّني أقتلها، بينما بمُديتي، سيكون الأمر مُختلفاً! ثمّ، بأيّ شيء نذبح الخنازير الدّاجنة؟ بالسّكّين. إذن، فالخنزير البرّي ليس أيّ شيء آخر غير خنزير داجن.

فقال السيّد دوفيولين الذي فهم أنّ الكلمة الأخيرة لن تكون له:

- بما أنّك لا تريد في النّهاية أن تسمع أيّ شيء، يلزم تركك تفعل.
- أجل، أجل، اتركني أفعل، سيّدي المفتّش، وسترى.

فصاح المفتّش:

- هيّا إلى الصّيد، إلى الصّيد أيّها السّادة!

حُدِّد موقع الخنزير في مرصد شخص يُدعى لاجونيس. هاجمناه على الفور، تقريباً، لأنّ المكان الذي التقينا فيه لم يكن يبعد عن المخبأ بأكثر من خمسمائة خطوة.

لكن هذه المرّة، ورغم أنّ الخنزير، البالغ من العمر ثلاث سنوات،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أُصيب بأربع رصاصات أو خمس، انطلق بقوّة، ولم يقرّر أن يواجه الكلاب إلّا بعد أربع ساعات أو خمس من المطاردة.

يعرف الجميع أنّنا نكون منهكين إلى درجة لا نعود معها قادرين على الثّبات على سيقاننا، لكن التّعب كلّه يتبدّد في لحظة مواجهة الخنزير للكلاب. كنّا قطَعنا في ذَرْعِ الغابة أكثر من عشرة فراسخ، ومع ذلك، ما إن عرفنا، من نباح الكلاب، أنّها في صراع مع الحيوان، حتّى استعاد كلّ واحد منّا قوّاه، وجعل يعدو نحو المكان الذي غدا بؤرة للنباح.

كانت المأساة تحصل في أيكة عمر أشجارها ثمانية أعوام أو عشرة؛ أي في أيكة يبلغ علوّ أشجارها عشر أقدام أو اثنتَي عشرة قدماً. كان نُباح الكلاب يتضاعف بقدرما نتقدّم، وكنّا نلمح، من حين لآخر، فوق قمم الأشجار، كلباً يقذف به خطم الخنزير، قوائمه الأربع في الهواء، وهو يُطلق صرخات يائسة، لكنّه ما إن يسقط على الأرض حتّى ينقذف من جديد على الخنزير. وصلنا أخيراً إلى فسحة داخل الغابة، فوجدنا الحيوان محشوراً، وكأنّه داخل حصن، في جذر شجرة كبيرة أطاح بها إعصار. أربعة وعشرون كلباً أو ثلاثون تُهاجمه دفعة واحدة. عشرة منها أو اثنا عشر مُصابة بجروح، وبعضها بطونها مبقورة. لكنّ تلك الحيوانات النّبيلة لم تكن تشعر بالألم، فتعود إلى المعركة واطئة بقوائمها أحشاءها المتدلّية. كان ذلك رائعاً ورهيباً في رؤيته!

- هيّا، هيّا، يا ميلديه أو مُوانا، طلقة على هذا الجَسُور! يكفي ما قتلَ من كلاب، لنضع حدّاً لهذا كلّه.

فصاح شوررون:

- همم! ماذا تقول، سيّدي المفتّش؟ طلقة بندقيّة! طلقة بندقيّة على خنزير؟ هيّا! طعنة سكّين أحسن له... انتظروا وسترون!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

استلّ شورون سكّينه وانطلق نحو الخنزير، مُبعداً الكلاب التي سرعان ما عادت لتختلط بتلك الكتلة المتحرّكة والعاوية. أصبح مستحيلاً، خلال ثانيتين أو ثلاث، تمييز أيّ شيء. لكنّ الخنزير قام، فجأةً، بمجهود عنيف كما لو كان يريد الانطلاق. كان كلّ واحد منّا قد حمل إصبعه سلفاً إلى زناد بندقيّته، عندما انتبهنا إلى أنّ الحيوان، عوضَ أن ينطلق، قام، على العكس من ذلك، بحركة تقهقر. انتصب شورون وأمسك بالحيوان من قائمتيه الخلفيّتين، كما يُفعل بنقّالة يدوية. ورغم مجهودات الخنزير الجبّارة، ظلّ شورون مُمسكاً به بتلك القبضة الحديدية التي نعرفها له، بينما انقذفت الكلاب عليه من جديد، وغطّته بأجسادها فأضحت مثل بساط متحرّك مُتعدّد الألوان.

عندئذ خاطبني السيّد دوفيولين:

- هيّا يا دُوما، هذا لك. اذهب وأطلق طلقتك الأولى.

اقتربت من الخنزير الذي ضاعف من حركاته وهو يراني أتقدّم، صارّاً فكّيه وناظراً إليّ بعينيه الدّمويتين. كان واقعاً في كمّاشة حقيقية، غير قادر على التّخلّص منها مهما بذل من جهود.

أدخلت طرف ماسورة بندقيّتي في أذنه، وأطلقت النّار. كانت الرّجة من القوّة بحيث انفلت الحيوان من يدي شورون، لكن فقط كي يذهب ليتدحرج على بعد عشر خطوات. الرّصاصة والحشوة والنّار؛ كلّ ذلك دخَل رأسه. كنت بالفعل قد أحرقت دماغه.

انطلق شورون في قهقهة عالية.

- هيّا، هيّا! أنا أرى أنّه ما تزال على الأرض مُتَعٌ يمكن تحصيلها!

فقال السيّد دوفيولين مرعوباً ممّا رآه لتوّه:

- أجل، غير أنّك إن تصرّفت، يا ولدي، بهذه الطّريقة، فممكن جدّاً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أن لا تتسلّى طويلاً... لكن ماذا أصابك في يدك؟

- لا شيء. صلابة جلْد هذا الوغد ثنَت سكّيني.

قال السيّد دوفيولين:

- أجل، وقد قطعَت إصبعك لدى انثنائها.

- تماماً، سيّدي المفتّش، تماماً!

عندئذ بسط شورون كفّه اليمنى المفتقدة سبّابتُها للسُّلامى الأولى.

بعد ذلك، ووسط الصّمت الذي تمخّض عنه ذلك المشهد، اقترب شورون من السيّد دوفيولين وهو يقول:

- هذا منتهى العدل، سيّدي المفتّش، إنّها الإصبع التي قتلتُ بها عمّي.

- لكن يجب معالجة هذا الجرح يا شورون!

- معالجة هذا؟ يا له من أمر عظيم! لو كانت تهبّ ريح، لكان جفّ سلفاً.

قال شورون ذلك وأعاد فتح مُديته فوزّع على الكلاب حصّتها من الحيوان، بهدوء كما لو أنّ شيئاً لم يحصل له.

عاد شورون، في رحلة الصّيد الموالية، ليس بسكّينه وإنّما بخنجر على شكل حربة، له مقبض يشمل الكّف كلّها صنعه أخوه، صانع السّلاح بفيلير-كوتريه، من أجله وبحضوره.

لم يكن بإمكان ذلك الخنجر أن ينكسر أو أن ينسدّ؛ ومدفوعاً بقبضة شورون يمكنه أن يخترق جذع شجرة بلّوط إلى أن يدرك لبّها.

عندئذ تجدّد المشهد الذي سبق لي أن وصفته؛ غير أنّ الخنزير البرّي ظلّ، هذه المرّة، في مكانه، مذبوحاً وكأنّه خنزير داجن.

وقد حصل الأمر نفسه في رحلات الصّيد كلّها، حتّى أنّ رفاقه ما عادوا يُنادونه إلّا بالجزّار.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثمّ إنّه لمن الغريب أنّ شورونَ لم يكن يُصاب ولو بخدش صغير، حيث يكون مُحتملاً أن يفقد رجلٌ آخرُ غيره حياته؛ فلكأنّه بقطعه رأسَ إصبعه يكون قد بتر الجزء الوحيد الضّعيف من جسده.

لكنّ ذلك كلّه لم يجعله ينسى موت بيرتلان. أضحى أكثر فأكثر قتامةً، وكان يقول للمفتّش، من حين لآخر:

– أتدري، يا سيّد دوفيولين، هذا كلّه لا يمنع أنّ مصيبة ستحلّ بي ذات يوم!

ثمّ إنّ زوجته جعلت تُسِرّ بشكواها لصديقاتها من غيرته؛ كانت تقول:

– ذات يوم، سيقتلني هذا الشّقي كما قتل عمّي بيرتلان!

هل يتعيّن عليّ أن أضع حدّاً، على الفور، لحكاية شورون المؤسية هذه؟ أم عليّ أن أنتظر، متتبّعاً تسلسل انصرام الأيّام، إلى أن تحين خاتمتها بطريقة طبيعيّة وفي وقتها المناسب؟

كلاّ، لنتخلّص من هذه اللّطخة الدّامية العالقة بالصّفحات الأولى من كتاب شبابي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

7

قنص الذّئاب – المدن الصّغيرة – الموت المأساويّ لشورون

انصرمت على الأحداث التي حكيناها لتوّنا خمس سنوات أو ستّ. كنت غادرت فيلير-كوتريه، وعدت إليها كي أقضي بضعة أيّام بالقرب من أمّي الطّيبة.

حدث ذلك خلال شهر كانون الأوّل، والأرض مكسوّة بالثّلوج. وبعد أن قبّلتُ والدتي وأعدت تقبيلها، عدوت رأساً إلى منزل السيّد دوفيولين.

– آه! ها أنت ذا، يا فتى. أتيت في الوقت المناسب!

– قنص الذّئاب، أليس كذلك؟

– تماماً.

– فكّرت في ذلك عندما رأيت الثّلج، وأنا سعيد بألّا أكون قد أخطأت في توقّعي.

– نعم، شوهد ثلاثة أو أربعة منها في الغابة، وبما أنّ اثنين منها يوجدان في مرصد شورون فقد أمرته اليوم بتحديد موقعهما هذه اللّيلة، كما أخبرته بأنّنا سنحلّ في بيته غداً صباحاً في السّاعة السّابعة.

– دائماً في «المنزل الجديد» ؟

– أجل.

– وماذا حلّ بذلك المسكين شورون؟ أما يزال يقتل الخنازير بطعنات من مُديته؟

– أوه! الخنازير البريّة أبيدت عن آخرها. أنا أعتقد أنّه لم يعد بالغابة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

خنزير واحد. هو اهتمّ بأمرها كلّها.

- وهل عزّاه قتلها؟

- أبداً. وستراه. أصبح المسكين أكثر حزناً وقتامة من أيّ وقت مضى. شورون تغيّر، مع أنني عملتُ على جعل أرملة بيرتلان تحصل على مرتّب تقاعديّ. لكن لا شيء يمكن أن يشفيه من حزنه؛ هو معضوض في قلبه. أضف إلى ذلك أنّه أمسى أشدّ غيرة ممّا كان عليه سابقاً.

- على غير حقّ، دائماً؟

- الزّوجة الصّغيرة المسكينة ملاك!

- هو مُصاب بوسواس متسلّط، إذن! وذلك لا يقلّل من كونه أحد أفضل حرّاسك، أليس كذلك؟

- إنّه فذّ!

- ولن يجعلنا نعود غداً صفر الأيدي؟

- أجل. أضمن لك ذلك.

- هذا ما يهمّنا، أمّا جنونه فلنعهد به إلى الزّمن، هو كفيل بإشفائه.

- ماذا تقول يا فتى! أنا أخشى على العكس من ذلك، ألّا يفعل الزّمن غير أن يزيد الأمر سوءاً. فمن فرط ما سمعته يُكرّر قوله بأنّ مصيبة ستحلّ به، بدأت أعتقد بذلك.

- صحيح! إلى هذه الدّرجة؟

- نعم، أمّا غير هذا، فقد قمت بما أستطيع، ولن يكون لي شيء ألوم نفسي عليه.

- والآخرون، كيف أحوالهم؟

- على ما يُرام. .

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- وميلديه؟

- ما يزال يشطر السّناجبَ نصفين بالرّصاص الحيّ. غير أنّه لم يعد يقوم بذلك اليوم عند صعودها جذوعَ الشّجر، وإنّما لحظةَ قفزها من شجرة إلى أخرى.

- ومُنافسه مْوانا؟

- آه! المسكين، أتدري ما الذي حلّ به؟

- أيكون هو أيضاً قتله ابن أخ له؟

- في فصل الشّتاء الماضي، أثناء رحلة لقنص الذّئاب، انفجرت بندقيّته وذهبت بيده اليسرى.

- حادث مثل هذا لرجل عجوز مثله! وكيف حصل ذلك؟

- ذات يوم، وهو يقفز على حفرة، أُترِبَ فم الماسورة؛ لم ينتبه لذلك فانفجرت الماسورة، بسبب حاجتها للهواء.

- وهل وُجدت وسيلة لإنقاذ جزء من يده؟

- ولا إصبع واحدة. لقد بترَها ليكوس على بعد بوصة من معصمه.

- ما عاد إذن بإمكانه أن يصطاد؟

- آه، بلى. قمنا أمس برحلة صيد في مستنقعات كويول، ومن أصل تسعة عشر طائر شنقبٍ رماها، أصاب سبعة عشر.

- هذا لطيف! أنا أرجو لبوبينو، بكلتا يديه، أن يقوم بالشّيء نفسه. بالمناسبة، ما الذي حلّ به؟

- بوبينو؟

- نعم.

- صنع من ذيل خنزيره صفّارة للمناداة على الكلاب، وصرّح أنّه لن يرتاح في هذا العالم ولا في العالم الآخر إلّا عندما يضع يده على بقيّة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حيوانه.

- باستثناء المسكين شورون، إذن، كلّ شيء على ما يُرام.

- تماماً.

- تقول إنّ الموعد...

- في تمام السّاعة السّادسة صباحاً، عند منتهى الممرّات الكبرى، وذلك حتّى يكون الجميع في «المنزل الجديد» في تمام السّاعة السّابعة.

- سنكون حاضرين.

عندئذٍ غادرتُ السيّد دوفيولين كي أذهب لأحيّي أصدقائي القدامى كلّهم، أصافح بعضهم وأعانق آخرين متمنّياً السّعادة لهم جميعاً.

إنّ لمن أكبر مُتع هذه الحياة أن يولد المرء في مدينة صغيرة، يعرف سكّانَها جميعاً، ويحتفظ له كلّ منزل بذكرى. أنا أعلم أنّ مشاعر عظيمة تنتابني عندما أعود -حتّى في هذا العمر، وقد مرّت على شبابي الأوّل ثلاثون سنة من الأشغال ومن الصّراع، فجرّدَته من طراوته النّاعمة- أقول عندما أعود إلى هذه البلدة الوادعة الصّغيرة، شبه غير المعروفة في بقيّة العالم، والتي عانقتُ فيها بسعادةٍ أُولى أطياف الحياة؛ تلك الأطياف التي كانت جباهها مكلّلة بهالات أو بوُرود. قبل أن أصل بنصف فرسخ[1]، أترجّل من العربة، وأروح أمشي على جانب الطّريق، أعدّ الأشجار؛ أعرف منها تلك التي علّقتُ على أغصانها طائراتي الورقية وأولجتُ فيها سهامي واكتشفتُ أعشاش الطّيور. أجلس في ظلّ بعضها وأستغرق، مغمض العينين، في بعضٍ من تلك الأحلام العذبة التي تعيدني إلى شبابي، عشرين سنة إلى الوراء. أُحبّ بعضاً من تلك الأشجار وكأنّها من أصدقائي القدامى، فأنحني أمامها عند مروري. وأخرى غُرسَت بعد

---

(1) يعادل الفرسخ ما يقرب من أربعة كيلومترات.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رحيلي، أمرّ أمامها دون أن أنظر إليها وكأنّني أمرّ أمام أناس غير ذوي بالٍ وغير معروفين. ثمّ يصبح الأمر مُختلفاً عندما أدخل المدينة. يطلق أوّل شخص يلقاني صرخة، ثم يخفّ إلى عتبة بيته. وبقدرما أتقدّم يقوم كلّ من يلقاني بالشّيء نفسه. هذا فضلاً عن أنّ سكّان البلدة يروحون، من ورائي، يتبادلون التّحية ويتحدّثون عنّي وعن مغامرات شبابي وعن حياتي التي انتقلت إلى مكان بعيد عنهم، عاصفةً ومضطربةً، والتي كانت ستسري هادئة مطمئنّة لو أنّني مكثت مثلهم في المنزل الذي رأيت فيه النّور. بعد ذلك بعشر دقائق، يغدو قدومي الخبرَ الذي تتداوله المدينة، فيصبح ذلك اليوم حفلاً في قلبي وفي ألفين أو ثلاثة آلافٍ من قلوب أخرى، في الأوان نفسه.

لنا موطن في كلّ مكان. في باريس وحدها يكون لنا شارع يُغيَّر اسمه ويُغيَّر شكله ويمتدّ أو ينحسر حسب نزوة كبار البيوت. غادِرْ باريس لعشر سنوات، ولن تستطيع من بعدُ معرفة شارعك ولا منزلك.

أنا موعودٌ إذن بفرح عظيم عندما ألتقي، غداً، بكلّ رفاقِ صيدي.

بدأ ذلك الحفل في السّاعة السّادسة صباحاً. رأيت وجوه أصدقائي القدامى مكسوّةٌ سوالفها بالجليد؛ ذلك أنّها أثلجت في المدينة كما قلت سابقاً، فأصبح الجوّ بارداً بصورة رهيبة. تبادلنا تحيات حارّة بأكفّنا ثم انتهجنا طريق «المنزل الجديد». لم يكن النّهار طلعَ بعد.

أدركنا موضعاً يسمّى «قفزة الأيّل» -وقد سمّي كذلك لأنّ دوق أورليان كان، ذات يوم، يصطاد في الغابة، فقفز أيّل فوق تلك الطّريق المحشورة في ذلك الموضع بين أيكتين صغيرتين. لاحظنا أنّ الظّلام بدأ ينقشع وأنّ الجوّ مناسب تماماً لرحلة صيد. لم تُثلج خلال اثنتي عشرة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ساعة سلفت، فلن يمنع شيء من تتبّع مَكاسِر الطّريدة[1]؛ وبذلك تُصبح الذّئاب، عندما نكتشف مخابئها، من نصيبنا.

واصلنا السّير نصف فرسخ آخر، فأدركنا المكان الذي نرى منه المنعطف حيث اعتاد شورون أن ينتظرنا. لم يكن هناك من أحد.

بدأ هذا الإخلال بالعادة، عند رجل مثل شورون معروف بانضباطه لمواعيده، يُقلقنا. ضاعفنا من خطواتنا فوصلنا إلى المنعطف نفسه الذي يكون بإمكاننا أن نرى منه «المنزل الجديد» الواقع على بعدِ أقلّ من كيلومتر واحد.

وبفضل بساط الثّلج المفروش على الأرض، أضحى بالإمكان تمييز الأشياء، حتّى شديدة البعد منها. رأينا المنزل الأبيض الصّغير، شبه ضائع بين الأشجار، ورأينا عمود دخان خفيف يصعد من المدخنة إلى الجوّ، ورأينا أخيراً فرساً بلا فارس، مُسرجاً ومُلجماً، لكنّنا لم نرَ شورون.

فقط سمعنا كلابه تعوي بطريقة حزينة.

تبادلنا النّظرات وحرّكنا رؤوسنا بحزن.

أسرّت لنا غريزتنا أنّ أمراً ما غريباً طرأ، فحثثنا الخطى أكثر فأكثر.

لم نرَ، ونحن نقترب، أيّ شيء يتغيّر في الأفق أمامنا.

عندما أصبحنا على بعد مائة خطوة من المنزل، تباطأنا في مشينا بالرّغم منّا. شعرنا أنّنا إن مددنا أكفّنا لمسنا فاجعةً.

وعلى بعد خمسين خطوة من المنزل، كففنا عن المشي أو كدنا، فقال السيّد دوفيولين:

– ومع ذلك، علينا أن نعرف ما الأمر.

شرعنا نتقدّم من جديد، لكن صامتين، بقلوب منقبضة، دون أن

---

(1) هي أغصان يكسرها مثيرو الطرائد ليعلّموا مكان مرورها (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نتلفّظ ببنت شفة.

عندما رآنا الفرس نقترب مدّ عنقه نحونا، وأبخرة تخرج من خطمه، وجعل يصهل.

طفقت الكلاب ترطم عوارض أوجارها، وهي تعضّها بأسنانها.

قبل المنزل بعشر خطوات، كان ثمّة بركة دم صغيرة، وعلى القرب منها مسدّس غير مشحون.

ثمّ تنطلق من بركة الدّم الصّغيرة تلك، مصحوبةً بآثار خطوات في اتّجاه المنزل، آثارٌ دموية.

نادينا ولم يُجب أحد، فقال المفتّش:

- لندخلْ.

دخلنا فوجدنا شورون ممدّداً على الأرض قرب سريره، ما يزال ممسكاً باللّحاف بيديه المتشنّجتين.

عند رأس السّرير، على المائدة الصّغيرة، وُضعت قنّينتان من النّبيذ الأبيض، إحداهما فارغة والثّانية فارغ بعضها. بدا على جانبه الأيسر جرح واسع، كان كلبه المفضّل آخذاً في لعق دمه.

كان شورون ما يزال دافئاً، وقد فارق الحياة قبل عشر دقائق تقريباً.

وهذا ما حدث؛ عرفناه في اليوم التّالي من ساعي بريد إحدى القرى المجاورة، كان قد حضر الحدث كلّه أو أغلبه.

كان شورون، كما أشرنا إلى ذلك، يغار على زوجته. لا شيء كان يُبرّر تلك الغيرة، غير أنّها لم تزدد، حسب ما أخبرني به المفتّش، مع الوقت إلّا استفحالاً.

كان شورون قد ذهب في السّاعة الواحدة صباحاً، مُستغلّاً نور القمر الوهّاج، ليكتشف مخبأ الذّئبين الموجودين في مرصده.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وبعد ربع ساعة من انصرافه، أقبل مسرعاً مبعوثٌ ليُخبر زوجته أنّ أباها أُصيب بسكتة دماغية، وهو يطلب أن يراها قبل أن يُسلم الرّوح.

انتصبت المرأة المسكينة وانطلقت على الفور، دون أن تستطيع أن تقول إلى أين؛ فلا هي ولا المبعوث يعرفان الكتابة.

عندما عاد شورون في الخامسة صباحاً وجد المنزل فارغاً. جسّ الفراش فألفاه بارداً. نادى زوجته وبحث عنها في كلّ مكان؛ كانت زوجته قد اختفت.

- الأمر جليّ، قال شورون، استغلّت غيابي كي تذهب إلى عشيقها، وظنّاً منها أنّني لن آتي باكراً، لم تعد بعد. هي تخونني، وعليّ أن أقتلها!

اعتقدَ أنّه يعرف المكان الذي توجد فيه.

فكّ مسدّسيه من قربوس السّرج وشحنهما؛ فحشا الأوّل بأربع عشرة رصاصة والثّاني بسبع عشرة. تمّ لاحقاً العثور على الأربع عشرة رصاصة في المسدّس الذي ظلّ معبّأً، في حين عُثر على السّبع عشرة رصاصة الأخرى في جسد شورون.

بعد ذلك ذهب ليُسرج فرسه فأخرجه من الإسطبل وأتى به ليوقفه أمام الباب.

عندئذٍ أمسك بأحد المسدّسين ووضعه في غمده الجلديّ على يمين السّرج.

هذا المسدّس دخل الغِمد بسهولة.

لكنّ الغمد الجلديّ الثّاني الواقع يسار السّرج كان، لسببٍ ما، أضيق من الآخر. وجد شورون بعض الصّعوبة في وضع المسدّس في مكانه.

أراد شورون أن يُدخله مستعملاً قوّته.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أمسك بالغمد بيد ومؤخّرة المسدّس بأخرى ودفع بعنفٍ بالمسدّس في الغمد.

أرخت الاهتزازة النّابض فانطلقت الرّصاصة.

كان شورون، كي يجعل عملية الإدخال ملائمة أكثر، يُمسك بالغمد مضغوطاً إلى جسده. الطّلقة كلّها، من رصاص وحشوة وبارود، اخترقت خاصرته اليُسرى، حارقةً وممزّقةً، في الآن نفسه، أحشاءه.

عندما سمع ساعي البريد، وهو يمرّ في تلك اللّحظة، صوت الطّلقة، عدا في اتّجاه مصدرها. كان شارون ظلّ واقفاً متشبّثاً بالسّرج، فسأله ساعي البريد:

- يا إلهي! ما الذي حصل يا سيّد شورون؟

أجاب شورون:

- ما حصل أنّ ما توقّعته وقع، يا مارتينو المسكين؛ قتلت في الماضي عمّي برصاصة من قربينة، وقتلت لتوّي نفسي بمسدّس. فقد كُتب في مكانٍ ما من الإنجيل أنّ «من قتلَ بالسّيف، بالسّيف يُقتل».

فصاح ساعي البريد:

- قتلت نفسك؟ أنت قتلت نفسك يا سيّد شورون؟ لكن لا يبدو عليك أثر لشيء.

ابتسم شورون وأبان عن جانبه. بدت ملابسه المحترقة ودمه السّائل بغزارة تحت سرواله الذي احمرّ كلّه.

هتفَ ساعي البريد وهو يعود القهقرى:

- أوه! يا إلهي! ما الذي يمكنني القيام به من أجلك؟ أتريد أن أذهب للبحث عن طبيب؟

فأجابه شورون:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- طبيب! وماذا عساه يفعل؟

ثمّ أضاف بصوت كئيب:

- وهل حالَ الطّبيب دون موت عمّي بيرتلان المسكين؟

- لكن، اسألني شيئاً أفعله يا سيد شوررون.

- اذهب إلى السّرداب وهات قنّينتَي نبيذ أبيض، وأطلق الكلب روكادور من مربطه.

أمسك ساعي البريد، الذي كان كلّ صباح يشرب، عند مروره، كأساً مع شوررون، بالمفتاح ونزل السّرداب فأخرج قنّينتين من النّبيذ الأبيض، وذهب ليفكّ روكادور من مربطه، ثمّ دخل.

وجد شوررون جالساً إلى طاولةٍ يكتب، فخاطبه قائلاً:

- هذا ما طلبتَ.

قال شوررون:

- جيّد يا صديقي. ضع القنّينتين على المائدة الصّغيرة جنب السّرير واذهب لعملك.

- لكن، يا سيّد شوررون، ألحّ ساعي البريد، قل لي على الأقلّ كيف حدث الأمر.

فكّر شوررون للحظة ثمّ قال متمتماً:

- بالفعل، لا بأس من أن يُعلَم ما حصل.

ثمّ قال وهو يلتفت نحوه:

- عندما أُخبرك بكلّ شيء، تنصرف؟

- أجل، يا سيّد شوررون.

عندئذ حكى له «الأمر»، كما قال ساعي البريد، بتفاصيله كلّها.

- الآن وقد عرفتَ ما أردت أن تعرفه، هيّا انصرف.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- أنت تريد ذلك إذن؟

- نعم.

- بالتّأكيد؟

- نعم.

- إلى اللّقاء، إذن.

- وداعاً.

فانصرف ساعي البريد، متمنّياً من عمق قلبه أن يكون جرح شورون أقلّ خطورة ممّا يقول هو؛ إذْ كيف يمكن أن نفكّر، ونحن أمام مثل ذلك الهدوء وتلك السّكينة، أنّ الرّجل الذي يحتفظ بهما مُصاب بطلقة قاتلة.

أما ما حدث بعد انصراف ساعي البريد، فلا أحد يعرفه. لم يحضر أحدٌ منازعة الرّجل مع الموت والاحتضار الحزين والوحدة. قام شورون فقط، حسب ما يُفترض، بشرب ما ينقص من نبيذ في القنّينتين، ثمّ أراد أن يصعد إلى سريره، فخانته قوّاه.

سقط أرضاً، متشبّثاً باللّحاف فأسلم الرّوح وهو على تلك الوضعية التي وجدناه عليها.

كانت ورقة موضوعة على الطاولة؛ هي الورقة التي رآه ساعي البريد يكتب فيها عندما صعد من السّرداب.

على تلك الورقة المكتوبة بيدٍ ما تزال ثابتة، خُطّت هذه الأسطر:

سيّدي المفتّش،

ستعثر على أحد الذّئبين في غابة دوكينوا، أمّا الآخر فقد فرّ.

وداعاً أيها السيّد دوفيولين... سبق لي أن أكّدت لك أنّ مصيبة ستحلّ بي.

المخلص

شورون، حارسٌ رئيس

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ما قلته منذ لحظة عن المدن الصّغيرة بصدد الذّكريات الجميلة، يمكننا أن نقوله حقّاً أيضاً عن الذّكريات الرّهيبة.

فكارثة مثل هذه، لو كانت حصلت في ضاحية سان-مارتان أو في شارع بواسونيير أو ساحة القصر الملكيّ بباريس، لما بقيت ذكراها أكثر من أسبوع أو أسبوعين أو شهر على أكبر تقدير.

أما في مدينة فيلير كوتريه الصّغيرة هذه، الواقعة على تلك الطّريق المؤدّية إلى سواسون والتي تمرّ أمام المنزل الكئيب، تحت أقواس الخضرة تلك التي تُشكّلها أشجار البلّوط والزّان المعمّرة، والتي يمشي الحرّاس تحتها بخطىً لا رجع لها وهم يتحادثون بصوت خافت، فإنّ الحادثة التي حكيتها لتوّي ما تزال ذكراها حيّة مثل أوّل يوم وقعت فيه، ويمكن لكلّ واحد أن يحكيها لكم كما حكيتها لكم أنا.

وا أسفاه! يا شورون المسكين! عندما دخلت بيتك، وعندما جعلت أنظر، ممتقع اللّون، إلى القنّينتين الفارغتين إلى النصف وإلى جسدك المرتعش، وإلى ذلك الكلب وهو يلعق جرحك، كنت أبعد ما أكون عن تخمين أنّني سأكون ذات يوم مؤرِّخاً لحياتك المجهولة ولموتك الدّامي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

كلب صيدٍ اسكتلنديّ

أنتم كلّكم تعرفون، أعزّائي القرّاء، ما معنى «كلبِ دلّالٍ»[1] في لغة الصّيد، لكن ربّما كانت قارئاتي الجميلات جاهلاتٍ به، لكونهنّ أقلّ اعتياداً منّا على ما له صلة بالصّيد.

من أجلهنّ إذن نسوق الشّروح الآتية.

الكلب الدلّال، كما يدلّ على ذلك اسمه، هو كلب يعرف كيف يلاحق الطريدة ببراعة وكيف يدلّ عليها.

الكلاب الدلّالة الجيّدة إنجليزية، أمّا الممتازة فاسكتلندية.

هو ذا أسلوب الكلب الدلّال في التّصرّف: عوضَ أن يصطاد على مقربة من ماسورة البندقيّة، مثل الكلاب المعروفة بـ «الزُّغْر» و«الإسبانيوليّ» و«البارببيه»، يذهب هو للبحث عن الطّريدة بعيداً عن صاحبه بمائة خطوة أو مائتين أو حتّى ثلاثمائة.

بيد أنّ الكلب الدلّال الممتاز ما إن يعثر على الطّريدة حتّى يُوقفها ويَقعد بلا حراك، مثل كلب كيفالوس[2]، إلى أن يطأ صاحبُه ذيله.

---

(1) الكلب الذي يجعل منه دوما بطل نصّه هذا هو من فئة الـ pointer، وهي تسمية إنجليزيّة تبنّاها الفرنسيّون في لغتهم بعد فَرْنسَة لفظها (ينطقونها «بوانْتَير» بدل «بَوينْتر»)، وهو ما يُدعى في العربيّة «الكلب الدلّال»، وذلك لأنّه يُلاحق الطريدة ويستوقفها ويظلّ يدلّ عليها أو يشير إليها بوقفته حتّى ينتبه إليها صاحبه ويقتنصها (المُراجِع).

(2) أرسل تيميس، بهدف انتقاميّ، الثّعلب توميسوس الذي كان يتّصف بالقدرة على الإفلات من كلّ مطاردة، فعاث في البلاد فساداً، حتّى خصّص له السّكّان طفلاً كلّ شهر ليكفّ عن ذلك. لكنّ البطل الأسطوريّ كيفالوس أرسل في عقب الثّعلب كلبه ليلابْس. غير أنّ زفس، كبير الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية، رأى أن الحلّ لصراع الحيوانين هو تحويلهما=

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ونقول لقرّائنا أو لقارئاتنا ممّن ليسوا معتادين على الميثولوجيا إنّ كلب كيفالوس تحوّل إلى حجر وهو يعدو خلف الثّعلب.

ونُضيف لمن يريدون أن يعرفوا كلّ شيء، إنّ كلب كيفالوس يُدعى ليلابْس.

لكن كيف كان يُدعى الثّعلب؟

أنتم تعتقدون أنّكم تباغتونني؛ إنّ الاسم الإغريقي «ألوبيكس» alôpex يعني «ثعلب».

والحال أنّ ذلك الثّعلب كان هو الثعلب بامتياز؛ وكما كانت روما تُدعى «المدينة»، فإنّ هذا الثّعلب كان يُدعى «الثّعلب».

وهو يستحقّ بالفعل هذا الشّرف.

تصوّروا ثعلباً عملاقاً يُرسله تيميس لينتقم من سكّان طيبة، فلزم أن تُقدّم له كلَّ شهر ضحيّة آدمية؛ ممّا يعني اثنتي عشرة ضحيّة في السّنة، أو اثنتين فقط أقلّ من قرابين المينوتور[1]، ممّا يجعلنا نفترض وجود ثعلب لا يقلّ عن الثور إلّا بأربع بوصات أو خمس.

قدٌّ رشيق بالنّسبة لثعلب!

- لكن إذا كان ليلابس تحوّل إلى حجر، فهل نجا الثّعلب؟

أطمئنكنّ، يا قارئاتي العزيزات؛ فالثّعلب تحوّل في الأوان نفسه إلى حجر أيضاً.

إن حصل أن ذهبتنّ يوماً إلى طيبة، فسيدلّونكنّ عليهما معاً، وهما يحاولان منذ ثلاثة آلاف سنة؛ الثّعلب أن يفرّ من الكلب والكلب أن يلحق بالثّعلب.

= إلى تمثالَين من رُخام.

(1) المينوتور (مينوتوروس باليونانية) هو في الميثولوجيا الإغريقية وحش ضخم له جسد رجل ورأس ثور.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ماذا كنّا نقول؟

آه، كنّا نتحدّث عن الكلاب الدلّالة التي لا تُعوّض عجزَها عن الهجوم إلّا بحراسة الطّريدة بصرامة مثل كلاب من الصوّان.

في إنجلترا، بلد الأرستقراطيّة، حيث يصطادون في حدائق من أكثر من ثلاثة آلاف هكتار، مُسوّرة ومأهولة بالحجل الأحمر وطائر التّدرّج، ومزّينة بنباتات النفل والنّضَم والفصّة واللّفت– هذه النباتات التي يُتجنّب بشدّة قطعها لتجد الطّريدة فيها مخبأها–، يكون بإمكان الكلاب الدلّالة أن تحرس الطّريدة على مهل وبصرامة وكأنّها كلاب من حجر.

فتربض الطّريدة في مكانها لا تبرحه.

لكن في بلدنا، فرنسا الدّيموقراطية، المقسّمة بين خمسة ملايين أو أكثر من المُلّاك، وحيث يملك كلّ مزارع بندقيّة ذات طلقتين معلّقة إلى المدفأة، وحيث تأتي الغلّة، التي ينتظرها صاحبها بفارغ الصّبر، في وقتها، وغالباً ما تكون ناضجة كلّها حتّى قبل أن يحلّ موسم الصّيد، فإنّ الكلب الدلّال يعتبر حيواناً كارثيّاً.

والحال أنّ بريتشارد، كما قلت سلفاً، هو كلبٌ دلّال.

الآن، وقد عرفنا مضارّ الاستعمال السّيئ لكلبِ دلّالٍ بفرنسا، قد تسألون كيف حدث أن كان لي أنا كلبٌ دلّال؟

أوه! يا إلهي! كيف يحصل أن تكون لنا زوجة سيّئة؛ وكيف يكون لك صديق يخونك؛ ومن أين نحصل على بندقيّة تنفجر بين أيدينا؛ هذا على معرفتنا بالنّساء وبالرّجال وبالبنادق؟

هي الظروف!

أنتم تعرفون القول السائر: «في هذا العالم لا وجود إلّا لسعادة وشقاء».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كنت ذهبت إلى هام[1] لزيارة سجين أكنّ له بالغ التّقدير.

أنا أكنّ دائماً تقديراً كبيراً للمسجونين والمنفيّين.

يقول سوفوكليس:

«لنبجّل الشّقاء، فهو من الآلهة».

كان هذا السّجين يخصّني، من جهته، ببعض المودّة.

بعد ذلك ساءت علاقتنا.

قضيت في هام بضعة أيّام ألفيتُي خلالها، وبطبيعة الحال، على اتّصال بالمفوّض الخاصّ للحكومة.

اسمه السيّد ليرا. وهو شخص جذّاب، يجب التمييز بينه وبين السيّد ليرا دو مانييتو الذي يجمع أو جمعَ هو أيضاً بين وظيفة مفوّض للشّرطة وصفة الرّجل الجذّاب.

خصّني السيّد ليرا، المنتمي لبلدة هام، بأصناف من المودّة؛ قادني إلى معرض شوني حيث اشتريت فرَسين، ثمّ إلى قصر كوسي حيث صعدت إلى البرج.

وعندما كنت أهمّ بالمغادرة، وقد سمعني أقول إنّني لا أملك كلب صيد، قال لي:

- آه! كم أنا سعيد بقدرتي على أن أقدّم لك هديّة حقيقية. أرسلَ لي صديق يُقيم في اسكتلندة كلباً من سلالة عريقة، وأنا أهبه لك.

كيف يمكن رفض كلب يُهدى بكلّ هذه الكياسة، ناهيك عن أنّه كلبُ دلّال؟

ثمّ أضاف موجّها كلامه لطفلتيه الفاتنتين، وكانتا على التوالي في الحادية عشرة والثّانية عشرة:

---

(1) هام Ham بلدة فرنسية تقع في جهة بيكاردي بشمال فرنسا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- جيئا ببريتشارد.

فأدخلتا بريتشارد.

هو كلب بأذنين شبهِ مستقيمتين، عيناه بلون الخردل، وبره طويل رماديّ أبيض، ويحمل في ذيله خصلة رائعة أشبه ما تكون بالريش.

وباستثناء تلك الخصلة شبْه الريشيّة، هو حيوان دميم.

لكنّني كنت تعلّمت من «حكايات مختارة لكتّاب الوثنيّة» *Selectæ e profanis scriptoribus historiæ* أنّ علينا ألّا نحكم على النّاس من مظاهرهم؛ ومن «دون كيخوته» أنّ «المسوح لا تصنع الرّاهب» ؛ فقلت لنفسي لماذا لا أطبّق على الكلاب قاعدة قابلة للتّطبيق على الإنسان.

ومدفوعاً بإيماني بسينيكا[1] وبترفانتيس فتحت ذراعيّ للهديّة المقدّمة لي.

بدا السيّد ليرا أكثر سروراً بتقديمه الكلب لي ممّا كنت أنا سعيداً بالحصول عليه. وتلك خصلة القلوب الطيّبة، حبّها للأخذ أقلّ من حبّها للعطاء.

- الطّفلتان، قال لي ضاحكاً، تسمّيانه بريتشارد. وسيكون لك الخيار إن لم يُناسبك الاسم في أن تناديه بما تشاء.

لم يكن لي أيّ اعتراض على الاسم؛ لا بل رأيي هو أنّه إنْ كان من كائنات يحقّ لها الاحتجاج على أسمائها، فهي الكلاب.

استمرّ بريتشارد إذن فِي حمل اسم بريتشارد.

عدت إلى سان جيرمان -لم أكن انتقلتُ بعدُ في تلك الفترة للسّكن في مونتي كريستو- وأنا أغنى أو أفقر، كما تشاؤون، بكلب وفرَسين، ممّا غادرت.

---

(1) ولد سينيكا (Lucius Annaeus Seneca) في أراضي قرطبة الحاليّة، بين السّنة الرّابعة والسّنة الأولى قبل الميلاد، وتوفّي سنة 65 ميلادية. هو فيلسوف لاتينيّ وكاتب مسرحيّ ورجل دولة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وأنا أعتقد أنّ كلمة «أفقَر»، في هذا المقام، أنسب من كلمة «أغنى» لأنّ أحد الفرسين أصيب بمرض الخيل، وابتُلي الثّاني بالعرج، ما دفعني إلى التّخلّص منهما معاً مقابل مائة وخمسين فرنكاً؛ فادّعى الطّبيب البيطريّ، مع ذلك، أنّني حقّقت صفقة ممتازة.

كانا كلّفاني ألفَي فرنك.

أمّا بالنّسبة لبريتشارد الذي ينصبّ عليه طبعاً اهتمامكم كلّه، فستعرفون ما حلّ به.

في حوزتنا أبو زريق

حسب المعطيات الأكثر احتمالاً، كان عمر بريتشارد على الأرجح تسعة أشهر أو عشرة.

وهي السّن التي من المفروض أن تبدأ فيها تربية الكلاب.

فأصبح من اللّازم أن يُختار له مدرّب ماهر.

لي صديق عجوز من غابة فيزينيه كان يُدعى فاتران؛ ويمكنني حتّى أن أقول إنّه يُدعى كذلك، لأنّني آمل أن يكون ما يزال على قيد الحياة.

تعود علاقتنا إلى أيّام شبابي الأولى. كان أبوه حارساً لجزء الغابة الواقع في فيلير-كوتريه، حيث كان أبي حائزاً على رُخص صَيد. عندئذ، كان فاتران الابن في العاشرة أو الثّانية عشرة. وقد ظلّ مُحتفظاً بذكرى عظيمة عن الجنرال؛ إذْ بتلك الصّفة كان يُنادي والدي.

لنحكمْ ممّا يلي.

أحسّ والدي ذات يوم بالظّمأ، فتوقّف أمام منزل الحارس فاتران وطلب كأس ماء.

قدّم الأب فاتران للجنرال كأس نبيذ عوضَ كأس ماء. وعندما شرب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الجنرال وضع ذلك الرّجل الشّهم الكأسَ على قاعدة من خشب أسود وغطّاها بما يحميها وكأنّها ذخيرة مقدّسة. وعند إسلامه الرّوح أورثَها ابنَه.

ومن المحتمل جدّاً أن تكون تلك الكأس اليوم هي أهمّ ما تُزيَّن به مدفأة الحارس العجوز؛ ذلك أنّ الابن أضحى عجوزاً بدوره. وهو ما لا يحول دون أن يكون، كما رأيته آخر مرّة، أحد أنشطِ رؤساءِ الحرّاس في غابة سان-جيرمان.

من المُرجّح أن يكون فاتران يكبرني بحوالى خمس عشرة سنة.

أيّام شبابنا، أنا وهو، كان هذا الفارق في السّن محسوساً أكثر ممّا هو عليه اليوم. كان آنئذ فتىً كبيراً بينما كنت أنا بعدُ طفلاً، أمشي في أثره بذلك الإعجاب الساذج الذي يسِم مرحلة الطّفولة، في جولة صيد بتقليد زقزقة الطّيور أو الصيد في المستنقعات.

ذلك أنّ فاتران كان أحد أمهر من رأيت في نصب فخاخ الغراء[1].

أكثر من مرّة، عندما أحدّث باريسيّين أو باريسيّات عن هذه الطّريقة الباهرة في الصّيد، وبعد أن أقوم بكلّ ما أستطيع لأشرح لهم آليّاتها، يقول أحد المستمعين:

- أعترف أنّني أودّ القيام برحلة صيد مثل هذه.

طلبت من الجماعة تحديد يوم؛ وعندما حُدّدَ كتبت لفاتران:

«عزيزي فاتران، أعدَّ شجرة. سنذهب لنقضي ليلتنا في اليوم الفلانيّ عند كولينيه، وفي الغد في الخامسة صباحاً سنكون رهن إشارتك».

أنتم تعرفون من هو كولينيه، أليس كذلك؟ هو سيّدُ فسطاط هنري

---

(1) طريقة في الصّيد يتمّ فيها دهن غصن أو فرع نبتة بمادّة الغراء اللّزجة، فإذا حطّ الطائر عليها التصق وما عاد قادراً على التّحليق.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الرّابع إذ هو طّباخه المُجوِّد.

عندما تزورون سان-جرمان طالبوه -وقولوا له إنكم تفعلون ذلك بتوصية منّي- بشرائح لحم بصَلصة مدينة بيارْن المشهورة، ثم أنبِئوني بالخبر.

فأقبل فاتران عند كولينيه، وقال مع طريقة في الغمز لا يُتقنها سواه:

- تمّ الأمر.
- أُعدّت الشّجرة؟
- تكاد تكون مكتملة.
- وطائر أبي زريق؟
- في حوزتنا.
- مرحى إذن!

ثمّ التفتُّ نحو أعضاء الجماعة قائلاً:

أيّها السيّدات والسّادة، نبأ سارّ؛ في حوزتنا طائر أبي زريق.

لا أحد على الأرجح كان يعرف ما يعنيه ذلك الكلام.

على أنّ لما قلتُه دلالة واضحة؛ هي ضمان رحلة صيد الغد؛ فبدءاً باللحظة التي نحصل فيها على طائر أبي زريق نطمئنّ على أنّ رحلة الصّيد ستكون موفّقة.

لنفسّر إذن هذه الأهمّية كلّها التي تتمتّع بها كلمات: «في حوزتنا أبو زريق».

سبق للافونتين، الذي يُعاندون في مناداته بالطيّب القلب لافونتين، كما كانوا ينادون بلوتارك[1] بالطيّب القلب بلوتارك، أنْ كتبَ خرافة عن

---

(1) بلوتارك مؤرّخ ومفكّر رومانيّ فذّ من أصول يونانية. ولد سنة 46 ميلادية وتوفّي حوالى 125.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

طائر أبي زريق.

منح تلك الخرافة عنوان «طائر أبي زريق ينتحل ريش الطّاووس».

وما ذلك إلّا افتراء!

إنّ طائر أبي زريق، الذي يُعدّ أحد الحيوانات التي تُراود ذهنها أقبح الأفكار، لم يسبق له أبداً، وأنا أقسم على ذلك، أن راودته الفكرة التي ينسبها إليه لافونتين، بأن ينتحل ريش الطّاووس ويتباهى به.

لاحظوا أنّني لا أؤكّد أنّه لم يدَّعِه لنفسه فحسب، بل كذلك استعداد مائة شخص للمراهنة ضدّ شخص واحد بأنّ ذلك الطائر الشّقيّ لم تُراوده قطّ تلك الفكرة.

وكان أفضل له أن يتباهى بريش الطّاووس من أن يقوم بما يقوم به؛ فلم يسبق لطائر أن جمع حوله من الأعداء ما جمعه هو.

ما الذي يقترفه طائر أبي زريق إذن؟

هل أنتم على علم بقصّة زُحل[1] الذي يلتهم أبناءه؟ وعليه، فأبو زريق أبٌ أرأم من زحل، فهو لا يأكل إلّا أبناء الآخرين.

من هذا ستفهمون مقدار الكراهية التي تكنّها طيور القُرقف والشّرشور والعكتر والدّغناش والدُّخلة وأبي الحنّاء والعندليب والحسّون والزّقيقيّ لأبي زريق الذي يلتهم بيضها أو يأكل فراخها.

هي كراهية حتّى الموت.

ولكن لا طائر من هذه الطّيور قادر على مضاهاة أبي زريق.

وعندما تحلّ بأبي زريق مصيبة أو حادثة أو كارثة، تجتاح البهجة طيور القُطر كلّها.

(1) الإشارة هنا إلى الأسطورة التي تتحدّث عن خوف زُحل («كرونوس» باليونانية، «كيوان» عند العرب) من تحقّق النّبوءة التي تقول إنّ أحد أبنائه سيُزيحه عن العرش ليحتلّ مكانه، ممّا جعله يلتهم كلّ ابن يولد له.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

والحال أنّ وقوع طائر أبي زريق بين يدي ناصب الغراء، هو مصيبة وحدث وكارثة. كما أنّ ذلك يُعدّ، في الوقت نفسه، حظّاً سعيداً للصّياد. فهو عندما يُعدّ شجرته، أي عندما ينزع أوراقها ويُحزّز أغصانها، ويضع الغراء اللّزج في تلك الحزّات؛ وعندما يُنشئ تحت تلك الشّجرة كوخه المُموّه بنباتات الوزّال والسّرخس، وعندما يلجه، بمفرده أو برفقة جماعته، عوضَ أن يكون مُضطرّاً لتقليد أغاريد مختلف أنواع الطّيور، أو بالأحرى صيحاتها، مستعيناً بورقة من نبات النّجيل أو بقطعة حرير، لا يكون في حاجة، إن هو امتلك طائر أبي زريق، سوى إلى إخراجه من جيبه ونتف ريشة من جناحه.

فيُطلق أبو زريق صرخة!

تُصدي الصّرخة في الغابة.

في تلك اللّحظة نفسها يرتعشُ ويُرهفُ السّمعَ كلُّ ما يوجد في الغابة من طيور القُرقف والشّرشور والعكتر والدّغناش والدخّلة وأبي الحنّاء والعندليب والحسّون والزّقيقيّ.

ينتف الصيّاد ريشة ثانية من جناح أبي زريق.

فيُصدر أبو زريق صرخة ثانية.

عندئذٍ يسود ما يُشبه الحفل وسط كلّ ما ينتمي إلى أمّة الطير؛ فمن المحتّم أنّ مصيبة قد حلّت بالعدوّ المشترك.

ما عساه يكون حلّ به؟

يجب رؤية ذلك! أين يوجد؟ في أيّ جهة؟ من هنا، من هناك!

ثمّ ينتف الصّياد ريشة ثالثة من جناح أبي زريق.

يُطلق أبو زريق صرخة جديدة، فتصيح الطّيور في جوقة واحدة:

- هناك، هناك!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثمّ تُسارع طائرةً، في مجموعات صغيرة أو أسراب متراصّة، نحو الشّجرة التي انطلقت الصّرخات الثّلاث منها.

وبما أنّ الشّجرة مدهونة كلّها بالغراء اللّازق، فكلّ ما يحطّ عليها من الطّير يكون في عداد الواقع في الشّرَك.

هو ذا السّبب في أنّني قلت لضيوفي عندما قدّمت لهم فاتران: «سيّداتي وسادتي. خبر سعيد. في حوزتنا طائر أبي زريق!»

ها أنتم ترون، يا قرّائي الأعزّاء، أن كلّ شيء يجد شرحه عندي. فقط يتعيّن أن أُمهَل بعض الوقت، خصوصاً عندما أستعمل طريقة والتر سكوت[1].

إلى فاتران الشّهم هذا إذن –والذي استعرت تحبّباً اسمه لأطلقه على البطل الرّئيس لروايتي «كاترين بلوم» – قُدتُ بريتشارد.

فاتران وغليونه

رمى فاتران بريتشارد بنظرة احتقار.

حسناً، إنجليزيّ آخر! قال.

وعليكم أن تعرفوا أوّلاً من هو فاتران.

فاتران رجل يبلغ طوله خمس أقدام وستّ بوصات، نحيل بارز العظام حادّها، ما من دغلِ عوسج إلّا وتسحقه ساقاه الملفوفتان في طِماقين جلديّين طويلين، وما من أيكة ذات أشجار طريّة إلّا ويخترقها بكوعه المدبّب مثل مثلّث قائم الزّوايا.

هو صموت بطبعه، مثل الرّجال المُعتادين على الجولات اللّيلة.

---

(1) السّير والتر سكوت شاعر وكاتب اسكتلنديّ ولد سنة 1771 في أدنبرة وتوفّي سنة 1832 في أبوتسفورد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وعندما يكون أمام مرؤوسيه من حرس الغابة، الذين يعتبرونه عرّافاً، يكتفي بأن يُصدر لهم إشارة من عينه أو حركة من يده، فيفهمون.

ويُعتبر غليونه أحد زخارف وجهه؛ وقد أقول حتّى إنّه أحد مَلاحق وجهه.

أنا لا أدري ما إذا كان لذلك الغليون يوماً أنبوب، فأنا لم أرَ منه قطّ إلاّ محرقة تبغه المشتعلة.

والأمر بسيط: فاتران لا يكفّ عن التّدخين.

والحال أنّ عبور الأدغال يتطلّب غليوناً من نوع خاصّ؛ غليون لا يتجاوز طوله الأنفَ حتّى يشتغل الغليون والأنف بقوّة متساوية أثناء مرور الوجه.

ومن فرط ما ضغط فاتران على أنبوب الغليون أضحت أسنانه التي تضغط عليه مكوّرة من أسفل ومن أعلى؛ حتّى ليبدو الغليون وكأنّه في كمّاشة، ما إن يُحشر فيها حتّى يُصبح مستحيلاً فكاكه منها. غليون فاتران لا يُفارق فمه إلّا عندما يميل برشاقة على حوافّ كيس تبغه ليُعبّأ، كما حصل لقارورة الأميرة نوسيكا[1] في الينبوع أو لجرّة راحيل[2] في البئر.

ما إن يُترَع غليون فاتران، حتّى يعود ليستقرّ داخل الكمّاشة، فيُخرج رئيس الحرس الهرِم من جيبه القدّاحة وحجر النّار والصّوفان -فاتران لا يهتمّ بالأفكار الجديدة ويستنكف من كلّ ما له علاقة بالكيمياء-، ثمّ يُشعل غليونه، ويظلّ الدّخان يخرج من فيه بانتظامِ دخانِ آلةٍ بخارية وبما

(1) نوسيكا شخصيّة من شخوص ملحمة «الأوديسة» لهوميروس. والإشارة هنا إلى الأنشودة السّادسة حيث تتوجّه الأميرة برفقة تابعاتها إلى الوادي المُجاور كي يغسلن الملابس استعداداً لحفل الزّفاف.

(2) الإشارة هنا إلى لحظة وقوع يعقوب في حبّ راحيل الرّاعية عندما رآها تُورِد قطيع غنمها وتستقي الماء من البئر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يُقارب غزارته، إلى أن يُستنزَف بشكل كامل.

قلت له ذات يوم:

- أنت يا فاتران، عندما ستصبح عاجزاً عن المشي، لن يكون عليك إلّا أن تتّخذ عَجلتين وسيكون رأسك قاطرةً لجسدك.

- سأظلّ أمشي دائماً، أجابني فاتران بكلّ بساطة.

ولقد صدقَ فاتران، فاليهوديّ التّائه لا يتفوّق عليه في قطع المسافات.

من البديهيّ أنّ فاتران يُجيب دون أن يكون في حاجة إلى التّخلي عن غليونه؛ ذلك أنّ غليونه هو نوع من النبات معرّش في فكّه، مرجان أسود مُطعّمة به أسنانه. غير أنّه يتكلّم مُحدثاً نوعاً من صفير خاصّ به، ناتج عن الفضاء القليل الذي تتركه الأسنان للصّوت لكي يمرّ.

لفاتران ثلاث طرق لتقديم التّحية.

فمعي أنا مثلاً، يكتفي برفع قبّعته وإعادتها إلى رأسه.

ومع أحد رؤسائه يخلع قبّعته فيتحدّث وهي في يده.

ومع أمير، يرفع قبّعته من على رأسه وغليونه من فمه.

أسمى إشارة تقدير يُمكن لفاتران أن يُقدّمها هي أن يُزيح الغليون من فمه.

غير أنّه عندما يُزيح غليونه، لا ينتج عن ذلك أدنى انفراج لأسنانه؛ بل على العكس، عندما لا يعود لفكّيه شيء يفصل بينهما ينطبقان كما لو بفعل نابض، وعوضَ أن يقلّ الصّفير يزداد، ما دامت لم تعد للصّوت تلك الفجوة الصّغيرة ليمرّ منها، والتي كان يُوجِدها أنبوب غليونه.

وهو، مع كلّ ذلك، قنّاص صلب لذوات الوبر كما لذوات الريش، لا تخيب طلقته إلّا في النّادر. وهو يقنص طائر الشّنقب كما يمكننا أن نقنص أنا وأنت طائر التّدرج، عارفاً بمواعيد انتقالاته وبمكاسِره وآثاره،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ويُخبرك من أوّل جولة رصدٍ يقوم بها أيّ خنزير ستواجه، ما إذا كان ربّاً صغيراً، ابن سنة أو اثنتين أو ثلاث، أو بلغَ السنة الرابعة أو تعدّاها. وهو يميّز أنثى الخنزير فيقول لك عبر انفراجة كمّاشة غليونه ما إذا كانت حبلى ومنذ متى هي كذلك. هو، في النّهاية، يُخبر بكلّ ما يُريد فضول الصّياد أن يعرفه قبل مهاجمة الحيوان.

وعليه، فقد نظر فاتران إلى بريتشارد وقال: «حسناً! إنجليزيّ آخر!».

وبذا يكون قدّر قيمة بريتشارد.

لم يكن فاتران يعتقد بإمكان تطوير لا الكلاب المنزليّة ولا كلاب الصيد. كلّ ما استطاع أن يتنازل به من حيث تطوّر الصّيد هو الانتقال من كلب الزُّغْر الفرنسيّ، كلب آبائنا النّزيه، الرّماديّ والبنّيّ، إلى الكلبة الإنجليزية ذات الأنفين، أبيض وأحمر.

بيد أنّه لم يكن يقبل بالكلب الدلّال.

لذا وضع مختلف أنواع العراقيل كي لا يُكلَّف بتربية بريتشارد.

وقد بلغ به الأمر حدّ أن اقترح عليّ كلباً يملكه؛ وهو أحد تلك الكلاب العاملة المسنّة التي لا يُفارقها القنّاص إلّا من أجل أبيه أو ابنه.

رفضتُ؛ فبريتشارد هو ما أريد وليس أيّ كلب آخر.

أصدر فاتران تنهيدة وقدّم لي نبيذاً في كأس الجنرال، ثمّ احتفظ ببريتشارد.

احتفظ به، لكن لا كما ينبغي، إذ لم تكد ساعتان تمرّان حتّى عاد بريتشارد إلى فيلّا ميديسيس.

سبق أن قلت إنّني في تلك الفترة لم أكن انتقلتُ بعدُ للسّكن بمونتي كريستو، لكنّني نسيت أن أقول إنّني كنت أقطن فيلّا ميديسيس.

لم يكن بريتشارد مُرحَّباً به؛ فتلقّى رَشقة من ضربات السّوط، وكُلِّف

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ميشال، البستانيّ والبوّاب ورجل الثّقة، بإعادته لفاتران.

اقتاد ميشال بريتشارد واستخبر عن تفاصيل الهروب، فاتّضح أنّ بريتشارد ما إن ألفى نفسه محبوساً برفقة باقي كلاب صاحبنا رئيس الحرس حتّى قفز على السّياج فعاد إلى المنزل الذي يفضّله هو.

يبلغ علوّ السّياج أربع أقدام؛ ولم يسبق لفاتران أن رأى كلباً يقوم بقفزة مثل تلك.

وصحيح أيضاً أنّ فاتران لم يسبق له أن امتلك كلباً دلّالاً.

في الغد، عندما فُتحت باب فيلّا ميديسيس عُثر على بريتشارد قاعداً على العتبة.

تلقّى بريتشارد رشقة جديدة من ضربات السّوط، فكُلّف ميشال مرّة ثانية باقتياده إلى فاتران.

وضع فاتران ساجوراً عتيقاً في عنق بريتشارد ووصله بسلسلة.

عاد ميشال وأخبرني بذلك الإجراء القاسي والضّروريّ. وقد وعد فاتران بألّا أعود لرؤية بريتشارد إلّا عندما تنتهي تربيته.

في الغد، وبينما كنت أشتغل في جناح يقع في عمق الحديقة، سمعت نباحاً غاضباً.

هو بريتشارد مشتبك مع كلب ضخم أصله من جبال البيرينيس قدّمه لي حديثاً هديّةً أحدُ جيراني، السيّد شلاميل.

نسيت، يا قرّائي الأعزّاء، أن أحدّثكم عن كلب جبال البيرينيس. واسمحوا لي بأن أعود إلى شأنه في أحد الفصول المُقبلة. غير أنّ هذا النّسيان سيكون محسوباً، حتّى لَيُمكن عدّه حِذقاً؛ فهو سيُبرز إحدى فضائلي المُهيمنة، وهي غُفران السّباب.

سحب ميشال بريتشارد من بين أنياب موتون (كان اسم كلب جبال

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

البيرينيس ذاك هو «موتون»، أي «خروف»، وذلك لا بسبب طِباعه، إذْ ستكون تسميته من هذه الناحية سيّئة، وإنّما بسبب وبره الأبيض النّاعم مثل الصّوف)، فتلقّى رشقةً من لسعات السوط جديدةً، واقتيد للمرّة الثّالثة عند فاتران.

كان بريتشارد قد التهم ساجورَه!

تساءل فاتران مراراً كيف تصرّف بريتشارد ليأكل عقده، فلم يستطع أن يتوصّل إلى إجابة.

حُبس بريتشارد في غرفة شبيهة بمستودع للحطب، يستحيل أن يهرب منها، اللّهم إلّا إذا أكل الجدران أو الباب.

حاول مع الجدران، ثمّ مع الباب، فوجدَ، بالتّأكيد، أنّ الباب أكثر قابلية للهضم من الجدران، فأكل الباب مثلما كان فعل أبو الأسيرة في رواية السيّد دارلنكور[1]:

«وحده والدي، في سجني، كان يأتيني بطعام».

وبعد الغدِ، رأينا، وقت العشاء، بريتشارد يلج قاعة الطّعام، بذيله الشبيه في جزءٍ منه بالريش يتراقص في الهواء، وبعينيه اللّتين هما بلون الخردل، باكياً من الرّضا.

هذه المرّة لم نضرب بريتشارد ولم نسعَ لإرجاعه ثانية.

انتظرنا مقدم فاتران كي نعقد مجلساً حربيّاً يُحاكَم بريتشارد فيه على فراره من «الجنديّة» للمرّة الرّابعة.

---

(1) الإشارة هنا إلى أبي بطلة رواية «الأسيرة» *La Captive* لشارل–فيكتور بريفو دارلنْكور Charles-Victor Prévost *d'Arlincourt*، الشّاعر والرّوائيّ الفرنسي (1788–1856).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في الغد رأيت فاتران مقبلاً مُقتفياً خُطى الفجر، فسألني:

- هل سبق لك أن رأيت وغداً؟....

بدا فاتران من اعتكار المزاج بحيث لم يقل لي لا صباح الخير ولا مساء الخير، فقلت له:

- فاتران، أنا أُلاحظ أمراً؛ غليونك صار أقصر منه في أيّ وقت مضى.

- أنا أعتقد بذلك، قال فاتران؛ فبريتشارد الوغد جعلني على درجة من الغضب سحقتُ معها بين أسناني أنبوب غليوني ثلاث مرّات، إلى أن لم تجد زوجتي بدّاً من شدّه بخيط. ولولا صنيعها لكان هذا المُتشرّد دفعني إلى الإفلاس لكثرة ما يحطّم من غلايين.

قلت لبريتشارد القابع على الأرضية الخشبية:

- أتسمع ما الذي يُقال عنك؟

سمع بريتشارد، لكنّه لم يفهم بالتّأكيد خطورة التّهمة، لأنّه ظلّ ينظر إليّ بعينيه الحانيتين وهو يمسح الأرضيّة بذيله، فقال فاتران:

- آه لو كان الجنرال قد امتلك كلباً مثل هذا!

- ماذا كان سيفعل يا فاتران؟ سألت، فنفعل نحن ما كان سيفعله هو.

أجاب فاتران:

- لكانَ، لكانَ...

ثم صمت مفكّراً، فواصل:

- لَمَا كان فعل أيّ شيء؛ لأنّ الجنرال، أتفهم؟ كان رجلاً محفوفاً بعناية الله.

- وماذا سنفعل نحن إذن يا فاتران؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- عُوقبتُ إن كنت أعرف! قال فاتران. إن أنا عاندتُ واحتفظت بهذا الوغد فسيُدمّر المنزل، وإن أعدته لك...؛ أنا لا أريد أن تكون الغلبة للكلب؛ لأنّ ذلك مُذلّ للإنسان، أتعرف ذلك؟

كان فاتران من فرط توتّر أعصابه يتحدّث باللّغة البلجيكية دون أن يشعر بالأمر، مثلما كان البرجوازيّ النّبيل ينطق نثراً دون أن يعلم بذلك[1]. لاحظت أنّه وصل إلى أقصى درجات السّخط فارتأيت أن أتقدّم باقتراحٍ توافقيّ، لذلك قلت له:

- اسمعَ يا فاتران، سأرتدي حذاء الصّيد مع الطّاقين وسنهبط إلى فيزينيه لنقوم بجولة في مرصدك وسنرى معاً إن كان هذا الوغد كما تسمّيه يستحق منّا مزيداً من الاهتمام.

- سأناديه باسمه. ينبغي ألاّ نسمّيه بريتشارد، هو كارتوش، ماندْران، بولاييه، أرتيفاي[2]. هكذا سرد فاتران ألقاب أكبر أربعة قُطّاع طرُق هذْهدَت قصصُ مغامراتهم شبابَه.

- يا للخطب! قلت لفاتران، لنستمرّ في مناداته باسم بريتشارد، وكفى! فبريتشارد الشجاع كان أيضاً يستحقّ حمل اسمه، هذا فضلاً عن أنّه ما يزال يستحقّه.

أجاب فاتران:

- حسناً! أنا أقول ذلك لأنّني لم أعرف بريتشارد من قبل، ولأنّني

---

(1) «البرجوازيّ النّبيل» *Le Bourgeois gentilhomme* مسرحية لموليير من خمسة مشاهد، مكتوبة نثراً، باستثناء الاستهلال الذي كُتب شعراً. عُرضت أوّل مرّة سنة 1670. والإشارة هنا إلى السيّد جوردان Jourdain (أحد شخوصها)، الذي يخبره معلّمه في الفلسفة ما هو النثر، فيهتف: «هذا يعني أنّني أقول النثر منذ أربعين عاماً ولا أعلم!»، فذهبت العبارة مثلاً لمن يمارس عملاً لا يعلم هو بوجوده.

(2) ألقاب ساخرة تعني على التوالي: خرطوشة، ملْقط، قنّ دجاج ورغيف خُبز (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أعرف الآخرين.

ناديت ميشال.

- ميشال، آتني الطّاقين وحذاء الصّيد، سنتوجّه إلى فيزينيه لنقفَ على ما يُجيد بريتشارد القيامَ به.

فقال ميشال:

- سيرى سيّدي أنّه لن يكون مستاء منه بالدّرجة التي يظن.

شعر ميشال على الدّوام بضعف تُجاه بريتشارد.

ذلك أنّ ميشال كان أحياناً يصطاد خارج القانون، في حين أنّ بريتشارد، كما سنرى لاحقاً، هو كلبٌ منذورٌ لصيّادٍ خارج القانون.

هبطنا إلى فيزينيه، يُمسك ميشال ببريتشارد من مقْوده، بينما انخرطنا فاتران وأنا في دردشة، لا على شاكلة أماديس(1)، في قضايا الحرب والحبّ، وإنّما في شؤون الصّيد.

وعند انعطافة المنحدر قلت:

- انظر يا ميشال، هو ذا كلب يُشبه بريتشارد شبهاً كبيراً!

- أين هو؟

- هناك عند الجسر، على بعد خمسمائة خطوة أمامنا.

- نعم هذا صحيح، قال فاتران.

بدا التّشابه لميشال صادماً ممّا حدا به للنّظر خلفه.

ما عاد بريتشارد في يده.

كان بريتشارد قد قطع مقْوده دون عنف بقواطعه، فقام بالتفافة وتقدّمنا.

---

(1) الإشارة هنا إلى رواية الفروسية الإسبانية «أماديس الغاليّ» *Amadís de Gaula* التي كتبها غارسي رودريغيز دو مونتالفو Garci Rodríguez de Montalvo ونشرت سنة 1508. ترجمت بعد ذلك إلى الفرنسية فنُشرت لأول مرّة بباريس سنة 1540.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بريتشارد هو الكلب الذي يتبختر على جسر بيك، ينظر إلى الماء ينساب عبر انفراجات الحاجز.

- اللّعنة! صاح ميشال.

- حسناً! قلت، ها أنت ذا تتحدّث لهجة الأوفيرنيا[1]. فإن لم نعرف يا فاتران ما نصنعه ببريتشارد، فسنجعل منه معلّماً للّغة.

- ستصنع منه متشرّداً وليس أيّ شيء آخر، هذا كلّ ما في الأمر، قال فاتران. أترى أين ذهب! انظر، انظر.

- لا تُجرّمْ يا فاتران بريتشارد على خصاله الجيّدة، فسيكون لك، صدّقني، ما تفعله مع الخصال السّيئة. أين ذهب؟ سأقول لك: ذهب ليقول «نهارك سعيد» لصديقي كوريج، وسيأكل طعامه إن لم تنتبه الخادمة.

وبالفعل، بعد ذلك بهنيهة، خرج بريتشار من محطّة بيك، تعدو في أثره امرأة مسلّحة بمكنسة.

كان يحمل في فمه شريحة لحم أمسك بها لتوّه من المشواة. وكانت المرأة تصيح:

- يا سيّد دوما، يا سيّد دوما، أوقفْ كلبك.

فقطعنا الطّريق على بريتشارد، والمرأة تصيح:

- توقّفْ، توقّفْ!

نعمْ، كان ذلك بمثْل عبثيّة محاولة إيقاف بورياس وهو يختطف أوريثي[2].

---

(1) الأوفرنيّة auvergnat لهجة يتحدّثها سكّان منطقة أوفيرنيا، في فرنسا الوسطى، ودوما يُشير إليها هنا لأنّ ميشال استعمل للدّلالة على «اللّعنة» كلمة «fichtra» وهي منها.

(2) إشارة إلى إحدى أساطير الإغريق القديمة. بورياس (ومعنى اسمه باليونانيّة «ريح الشّمال») أحبّ أوريثي، لكنّهم حاولوا منع ارتباطهما فأتى في شكل عاصفة واختطفها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مرّ بريتشارد بيني وبين ميشال بسرعة البرق، فقال ميشال:

- يبدو أن النّذل يُحبّ اللّحم نصف المشويّ.

عندئذ قال فاتران بنبرِ حكيم وهو يتابع بريتشارد، الذي كان قد اختفى عند انعطافة الطريق الصاعِد:

- خروف يثغو، عِجل دامٍ، حيوان آخر منتن.

فقلت له:

- أنت لا تعرف بعدُ يا فاتران، إن كان يأتي بشيء، لكنّك تعرف سلفاً أنّه يأخذ.

التحقت المرأة بنا وهي تُريد أن تُعاند في ملاحقة بريتشارد، فقلت لها:

- أوه! أيّتها السيّدة الطّيبة، يبدو لي أنّك تُضيعين وقتك. فعندما تلحقين ببريتشارد، إن لحقتِ به، يُحتمل أن تكون شريحة اللّحم قد أضحت في مكان بعيد.

فسألتِ المرأة وهي تتّكئ على ذراع المكنسة كي تستعيد أنفاسها:

- أتعتقد بذلك؟

- أنا متأكّد من ذلك.

- يمكنك إذن أن تفخر بأنّك تُطعم هنا لصّاً معتدّاً بنفسه.

- أنتِ، سيّدتي الفاضلة، مَن أطعمه هذا الصّباح وليس أنا.

- ما يعني أنّني... أنا، أنا... لا بل السيّد كوريج... ماذا سيقول، يا ترى، السيّد كوريج؟

- سيقول ما قاله ميشال: «يبدو أنّ بريتشارد يُحبّ اللّحم نصف المشويّ».

- أجل، لكنّه لن يكون سعيداً، وسينقلب ذلك عليّ أنا.

- اسمعي، أنا سأُخطره بأنّني سأصطحبه ليتناول غداءه معي في فيلّا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ميديسيس.

- لا يهمّ! إن واصل القيام بالأمر نفسه فسيحصل له مكروه، كلبك هذا... أكتفي بأن أقول لك ذلك، سيُصاب بمكروه.

ثمّ مدّت مكنستها في اتّجاه المكان الذي اختفى منه بريتشارد.

وكما ترون، لم تكن نبوءة السّاحرة تفتقر لأيّ شيء؛ ولا حتّى للمكنسة.

نبيذ لواريه[1]

ظللنا على جسر بيك، أنا وفاتران وميشال، عيوننا موجّهة نحو نقطة الأفق التي اختفى منها بريتشارد، والمرأة مادّة مكنستها نحوه لاعنة.

إن راودتْ يوماً رسّاماً فكرةُ استيحاء لوحة من هذا السّرد الذي لي شرف سوقه لكم، فأنا أعتقد أنّ هذه بالضّبط هي النُّقطة التي عليه اختيارها.

عليه أن يجعل في الواجهة أربع شخصيّات متجمّعة بطريقة مثيرة، وبعيداً بريتشارد هارباً، شريحة لحم الخروف بين شدقيه؛ ذلك أنّ من الضّروريّ إظهار بريتشارد ليُفهَم المشهد. أخيراً، في العمق، حاجبةً الأفق، تلك المدينةُ الجميلة، سان-جيرمان، المشيّدة في شكلٍ مُدرّج، عارضةً في البداية على عينَي المسافر، كأحسن ما يمكنها أن تهدينا إيّاه، الفسطاط الذي وَضَعتْ فيه آن النّمساوية[2] حَملها والذي أرى لويس الثّالث عشر، مُشرقَ الوجه، من نافذته، ابنَه لويس الرّابع عشر للشّعب.

فاتران هو أوّل من عاود الكلام، فراح يُردّد:

---

(1) لواريه Loiret محافظة فرنسيّة تقع على بعد حوالى مائة كيلومتر جنوب باريس، استمدّت اسمها من نهر يمرّ بها.

(2) ابنة الملك فيليبه الثّالث، ملك إسبانيا، وهي أمّ ملك فرنسا لويس الرّابع عشر، من الملك لويس الثّالث عشر. وُلدت سنة 1601 وتوفّيت سنة 1666.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- آه، النّذل! آه، النّذل!

فأجبته:

- إنّني أعتقد، يا عزيزي فاتران، أنّ رحلة صيدنا لهذا اليوم قد انتهت.

فسألني ميشال:

- ولماذا؟

- لأنّنا كنّا نصطاد بريتشارد، وما دام ما عاد لنا من بريتشارد...

- يعتقد سيّدي أنّه لن يعود؟

- أجل يا ميشال. أنا أحكم قياساً إلى نفسي، فلو كنت مكانه لما عدتُ.

- سيّدي لا يعرف بريتشارد. إنّه وقح.

- وماذا ترى يا ميشال؟

- هيّا بنا نمضي بهدوء إلى منزل السيّد فاتران، حيث نتناول قطعة خبز بجبن، ونشرب كأس نبيذ، وسترى إن كنتَ لن تحسّ، في غضون عشر دقائق، بذيل بريتشارد يحتكّ بربلة ساقيك.

فقال فاتران:

- قُضي الأمر! الزّوجة طبخت بالفعل قطعة من لحم العجل أمس، وثمّة بعضٌ من نبيذ لواريه -أنتم تعلمون أنّها بلد زوجتي-؛ نبيذ من لواريه، ستحبّونه... وأنا أذكر أنّك تستطيب لحم العجل.

- أنت عرفتني في صباك، يا عزيزي فاتران، ولا يُمكنني أن أخفي عنك أيّاً من نواقصي... لكن ماذا عن السيّد كوريج؟

- نصطحبه في طريقنا؛ فعندما يكون ثمّة أكل لشخصين، يكون كافياً لثلاثة.

- أجل، وعندما يكونون أربعة؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- هناك الدّجاجات! هل تعتقد أنّ مؤخرّاتها مَخيطة! سنهيّئ عجّة بيض.

- ليكن يا فاتران، سأستمتع بيوم طيّب. هيّا بنا إلى نبيذ لواريه ولحم العجل وعجّة البيض.

- دون أن ننسى فنجان قهوة سائغة. آه! وستتذوّقون الحليب.

- حسناً، لنذهب إذن يا فاتران.

- هيّا بنا!... أيّها النّذل بريتشارد، انصرف!

- ماذا دهاك من جديد؟

- تركت غليوني ينطفئ بسببه! تلميذ آخر مثله، ويُفقدانني صوابي معاً.

أخرج فاتران حجر النّار والصّوفان فقدحَ ولّاعته وأعاد إشعال غليونه.

انتهجنا طريقنا.

وقبل أن نقطع عشرين خطوة لمسني ميشال في كوعي.

نظرت إليه فأشار عليَّ بأن أنظر خلفي.

كان نصف جسد بريتشارد يتجاوز زاوية الجدار الذي كان قد اختفى خلفه.

هو ينظر إلى ما نقوم به ويحاول، ربّما، أن يُخمّن ما الذي نُفكّر فيه. قال ميشال:

- تظاهرْ بعدم رؤيته، وسيمشي في أثرنا.

وبالفعل، تظاهرتُ بعدم رؤية بريتشارد فتبعنا.

عندما مررنا أمام محطّة فيزينيه، دعوتُ كوريج ليرافقني.

هل تُريدون، قرّائي الأعزّاء، أن تُشاهدوا سبّاحاً ماهراً وفتىً طيّباً؟ اقتنوا إذن من محطّة قطار سان-جيرمان تذكرةً للذهاب إلى محطّة فيزينيه،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثمّ اسألوا عن كوريج.

بوصفه فتىً طيّباً سيضع نفسه، أنا أضمن ذلك، في خدمتكم في أيّ شيء تريدونه.

وبوصفه سبّاحاً ماهراً، سيصعد برفقتكم نهر السّين إلى غاية سان-كلود، وإن استعجلتموه قليلاً، فإلى غاية باريس.

وصلنا إلى منزل فاتران. وقبل أن ندخل التفتّ فلمحتُ بريتشارد وقد ظلّ بعيداً بمائتي متر، محاذراً.

أصدرت لميشال إشارة ارتياح ودخلنا.

صاح فاتران:

- الغداء يا امرأة.

ألقت السيّدة فاتران نظرة هلع في اتّجاهنا، قائلة:

- آه! يا إلهي!

فقال فاتران:

- ما المشكل؟ نحن أربعة، إذن أربع زجاجات نبيذ وعجّة من اثنتي عشرة بيضة وقطعة لحم العجل مع فنجان قهوة لكلّ واحد منّا، ويكون كلّ شي على ما يُرام.

أصدرت السيّدة فاتران تنهيدة، لا لأنّ تلك المرأة الرّائعة ألْفت عددنا كبيراً وإنّما خشيةَ ألّا يكون في حوزتها ما يكفي.

ثمّ واصل فاتران:

- هيّا، هيّا، لنترك التّحسّر إلى غدٍ. أعدّي المائدة بسرعة، نحن مُستعجلون.

أُعدّت المائدة في رمشة عين، فاصطفّت عليها زجاجات النّبيذ الأربع.

سمعنا صوت الزّبدة وقد بدأت تُقلى على النّار.

قال فاتران وهو يملأ لي من النّبيذ كأساً عن آخرها:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- تذوّق هذا النّبيذ المتواضع.
- فاتران، فاتران، قلت، باللّه ماذا تفعل؟
- صحيح! نسيتُ أنّك مثل الجنرال؛ فهو لم يكن يشرب إلّا الماء. وأحياناً، صدفةً، في حفلات كُبرى، كأسَ نبيذ أحمر. غير أنّ والدي جعله، ذات مرّة، يشرب كأس خمرة خالصة. انظر، قدّمها له في تلك الكأس المُذهّبة هناك على المدفأة. يا سيّد كوريج، أنت لم ترها بعدُ تلك الكأس، أليس كذلك؟ إنّها كأس الجنرال. الجنرال العاثر الحظّ![1]

ثمّ التفت نحوي:
- آه لو كان رآك تكتب كتباً بالطّريقة التي تكتب بها وتُطلق النّار بالطّريقة التي تُطلقها بها، لكانت غمرَته السّعادة.

أضحى الدّور دوري في إصدار تنهيدة، فقال فاتران:
- ها أنذا قد ارتكبت حماقة؛ فأنا أعرف، مع ذلك، أنّ حديثي عن الجنرال سيُحدث فيك هذا الأثر. لكن ما حيلتي؟ أنا لا أستطيع منع نفسي من الحديث عنه. بحقّ الله، كان رجلاً! حسناً! ها غليوني قد انكسر.

بالفعل، أراد فاتران، كي يجعل كلامه أكثر دلالة، أن يصرّ على أسنانه، فقطع هذه المرّة أنبوب غليونه من طوق محرقة تبغه.

سقطت المحرقة أرضاً وتفتّتت، فقال فاتران من جديد:
- اللّعنة!... إنّه غليون اسودَّ بصورة رائعة!
- عليك إذن بتسويدِ غليون آخر.

---

(1) إشارة عطف إلى سنوات الفقر والمرض التي عاشها الجنرال دوما، أبو الكاتب، بعد انفصاله عن نابليون بونابرت واستقالته من منصبه، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فأجابني فاتران:

- نعرف أنّك لا تُدخّن؛ ولو كنت تفعل لعلمتَ أنّ غليوناً يكون في حاجة إلى ستّة أشهر كي يسودّ[1] ويصير له بعضُ الطّعم. وأنت يا سيّد كوريج، هل تُدخّن؟

- بالتّأكيد، غير أنّني أُدخّن السّيجار.

- آه! قال فاتران، أنت إذن لا تعرف ما معنى غليون.

فتح فاتران دولاباً وأخذ منه غليوناً يكاد يكون بمثْلِ درجة اسوداد الغليون الذي أصيب بفقده لتوّه، فقلت له:

- حسناً! لديك احتياطيّ منها، عزيزي فاتران.

- أجل، أنا لي من مثل هذا عشرة أو اثنا عشر، بدرجات جودة مختلفة؛ لكنّ هذا هو المفضّل.

- تبّاً! لنكفّ عن الكلام في هذا يا فاتران؛ فالمصائب التي لا حلّ لها، خاصّةً، هي التي يجب أن تُنسى قبل غيرها.

- أنت على حقّ. تذوّق هذه الخمرة وانظر إليها في ضوء النّهار. هي صافية مثل الياقوت. في صحّتك.

- في صحّتك يا فاتران.

- وأفرغتُ الكأس كي أُظهر أنّه على حقّ.

إساءات جديدة تبدر عن بريتشارد

ما إن انتهيت من إفراغ الكأس حتى سمعنا صرخات قويّة.

- آه! لصّ! آه! قاطع طريق! آه! أيّها البائس!

(1) معروف أنّ الغليون يسودّ داخل محرقة تبغه على أثر استخدامه، وذلك بتجمّع بعض طبقات الكربون فيها، ممّا يشكّل حماية للغليون ويهب التدخين به نكهة لا يمنحها غليون جديد (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هكذا كان يرتفع صوت السيّدة فاتران بالصّياح في المطبخ، فقال ميشال:

- أطلقوا النار!

لم يكد ميشال يُنهي كلامه حتّى انطلقت كأس فاتران بكلّ ما في عضلات ذراعي وكتفي من قوّة.

سمعنا صرخة ألم، فقال ميشال ضاحكاً:

- آه! هذه المرّة، سيّدي لم يُخطئك. أليس كذلك!

فسأل كوريج:

- ماذا هناك؟

أجاب فاتران:

- أراهن على أنّ للأمر علاقة مرّة أخرى بريتشارد النّذل.

فقلت له وأنا أنطلق نحو الفناء:

- راهنْ يا فاتران، راهن وستفوز.

قال فاتران وهو يشْحب:

- عسى ألّا يكون سرق قطعة لحم العجل.

قالت السيّدة فاتران، وهي تظهر على عتبة الباب:

- بالضّبط. هي قطعة لحم العجل، وضعتُها على حافة النّافذة فأخذها ذلك المتسوّل بريتشارد.

فقلت وأنا أدخل، حاملاً في يدي قطعة لحم العجل:

- أنا أعيدها لك.

- كنتَ إذن ألقيتَ الكأس في أثره؟

أجاب ميشال:

- أجل، والكأس لم تنكسر! أحسنتَ يا سيّدي، هي ذي تسديدة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حاذقة وخبيرة.

بالفعل، كانت الكأس أصابت كتف بريتشارد وسقطت على العشب دون أن تنكسر.

غير أنّ الارتطام كان قويّاً فجعل بريتشارد يُطلق صرخة.

وكي يُطلق بريتشارد صرخة، اضطرّ لفتح شدقيه.

وبفتحه لهما أطلق قطعة لحم العِجل.

سقطت قطعة لحم العجل على النّبات النديّ.

التقطتها وأتيت بها.

عندئذ قلت:

- هيّا، هيّا. هوّني عليك، أيتّها السيّدة فاتران، ولنتناول غداءنا.

كنت على وشك أن أضيف، مثل أجاكس[1]: «على رغم أنف السّماء!»، لكنّني قدّرت أنّ الجملة مُفرطة في تكلّفها، فاكتفيت بالقول:

- برغم أنف بريتشارد.

فسألت السيّدة فاتران:

- كيف! ستأكلون تلك القطعة؟

- أعتقد ذلك، علّق ميشال. يُنزَع فقط الموضع الذي لمسته أنياب الحيوان، ولن يعود من مشكل...

- إلّا إن كان مسعوراً.

- آه! تلك قضيّة أخرى. لكن إن حصل يوماً وعضّ سيّدي كلبٌ مسعور، فعليه أن يأخذ الجزء الخلفيّ من ضفدعة وكذلك...

- حسناً، يا ميشال! إن حصل وعُضِضتُ، فأنا أعدك بأن ألجأ إلى وصفتك.

---

(1) أجاكس في الميثولوجيا الأغريقية بطل من أبطال حرب طروادة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- كما أنّ سيّدي إن حصل ولسعتْه أفعى... هل سبق لك أن رأيت يا فاتران أفعى في غابة فيزينيه؟

- لا، إطلاقاً.

- هذا أفضل، لأنّك إن حصل لك ولسعتك أفعى، فلن يكون أمامك...

قاطعتُه:

- إلّا أن تفرك الجرح بالنشادر، وأن تشرب منه خمس قطرات أو ستّاً، محلولة في الماء.

- نعم، لكن إن كان سيّدي بعيداً عن المدينة بثلاثة فراسخ أو أربعة، فمن أين له بالنّشادر؟

- آه! قال كوريج، فمن أين لك به؟

- صحيح، قلت منكّساً رأسي، لفرط ما كنت مسحوقاً بثقل الحجّة، لا أدري من أين سأحصل عليه.

- كيف سيتصرّف سيّدي إذن؟

- سأُحاكي ما تقوم به بعض الحشرات؛ سأبتدئ بمصّ الجرح.

- وإذا كان الجرح في مكان لا يستطيع سيّدي أن يمصّه... كالكوع مثلاً؟...

أفحمتني الحجّة ثانيةً بأكثر ممّا فعلَت في المرّة الأولى.

- لن يكون أمام سيّدي، إذن، إلّا أن يقبض على أفعى سامّة فيسحق رأسها ويبقر بطنها فيأخذ مرّتها ويفرك بها المكان الملسوع. بعد ذلك بساعتين، يكون الجرح اندمل.

- أنت متأكّد يا ميشال؟

- حسناً! أنا أعتقد تماماً بأنّني متأكّد. السيّد إزيدور جوفروا سانت-

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هيلير[1] هو من قال لي ذلك، آخرَ مرّة رحت أبحث عن البيض في حديقة النّباتات [بباريس]. وأنت لن تقول إنّه ليس عالماً، ذاك الرّجل.

- أوه! لا يا ميشال. يمكنك أن تطمئنّ، لن أقول ذلك.

لميشال جمهرة كاملة من الوصفات، كلّها أكثر فعّالية بعضها من بعض، يستقي مكوّناتها من مصادر مختلفة. ومن الواجب القول إنّ المصادر التي يستقي منها ميشال وصفاته كلّها ليست أكثر استدعاءً للتّقدير من مصدره الأخير الذي ذكره لتوّه.

- هي ذي! قال كوريج.

معنى ذلك أنّ قطعة لحم العجل خضعت لعمليّة، فأبْدَت على وجوهها الأربعة لحماً مورّداً جالباً للشّهية، بعد أن اختفى منها أيّ أثر لأنياب بريتشارد.

بعد لحم العجل، أتى دور عجّة البيض؛ عجّة سميكة ملوّنة بشكل جيّد ومائعة قليلاً من داخلها.

المعذرة يا قارئاتي العزيزات، لكن طبّاختكنّ إن كانت تُجيد إعداد العجّات، وهو ما أشكّ فيه، فستقول لكنّ إنّ تلك هي الكلمة، وأنّ معجم بيشريل[2]، الذي يزيد على محتوى معجم الأكاديمية الفرنسية بعشرة آلاف كلمة، لا يتضمّن كلمة أخرى بهذا الصّدد.

(1) إزيدور جوفروا سانت–هيلير Isidore Geoffroy Saint-Hilaire عالم بالحيوان، فرنسيّ (1805–1861)، نجل عالم النباتيّات الشهير إتيان جوفروا سانت–هيلير Isidore Geoffroy Saint-Hilaire (1772–1844).

(2) لويس–نيكولا بيشريل Louis-Nicolas Bescherelle (1802–1883) نحويّ فرنسيّ، ألّف ونشر المعجم المُشار إليه، وعُدَّ عمدة في مجاله آنئذ. وتكريماً له سمّيت باسمه سلسلة كتب مرجعيّة في قواعد اللّغة الفرنسية. ومعروف عنه أيضاً تأليفه بالاشتراك مع شقيقه هنري بيشريل Henri Bescherelle كتاباً ما يزال معتمَداً في تصريف الأفعال الفرنسية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثمّ لا تغضبنَ إن كنت أشكّ في أن تكون طبّاختكنّ تُجيد إعداد العجّات.

أَلَكُنّ طبّاخة ماهرة؟

تلك حجّة إضافية! فالعجّة وجبة المرأة المنظِّفة والمُزارعة والفلاّحة، وليست وجبة طبّاخة ماهرة.

عجّة أو يخنة دجاج، ذلك ما أطلب من طبّاخي أو طاهيتي تحضيره قبل أيّ وجبة أخرى عندما أمتحنهما قبل تشغيلهما.

تسألن أيضاً من يأكل العجّات؟

أوه! يا له من خطأ فادح، يا قارئاتي الجميلات! افتحن كتاب بريا-سافاران[1]، على المقال الذي يحمل عنوان «عجّة»، واقرأنَ الفقرة المعنوَنة «عجّة ببطارخ الشبّوط».

عجّة! اسألن الذّواقين الحقيقيين عن معنى الكلمة «عجّة».

لقد جعلتُ معلّمي لآلة الكمنجة يقطع عشرة فراسخ من أجل أكلِ عجّة بحساء الجمبري وسلَطة بالشحم.

- كان لك إذن مُعلّم كمنجة؟

- كيف تسألني هل كان لي معلّم كمنجة... لمدّة ثلاث سنوات، انظروا مذكّراتي.

- لكن لم يتناهَ إلى سمعي أنّك تعزف على الكمنجة.

- أنا فعلاً لا أعزف على الكمنجة، لكنّ هذا لا يمنع من أنّني تعلّمت العزف عليها. انظروا مذكّراتي.

- كان عليك أن تكون أكثر إصراراً.

(1) يشير هنا إلى جان-أنتيلم بريا سافاران **Jean Anthelme Brillat-Savarin** خبير المأكولات (1755-1826)، وتحديداً إلى كتابه «فيزيولوجيا الذّوق» *Physiologie du gout* الذي طبقت شهرته الآفاق بفرنسا عند صدوره سنة 1825.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- أوه! أنا لست آنغر ولا رفائيل[1] حتّى أكون بهذا الإصرار كلّه.

على أيّ حال، وحتّى نعود إلى عجّة السيّدة فاتران، فإنّها كانت ممتازة. نادينا المرأة ذات الشّهامة كي نُطري عليها، لكنّها أنصتت لكلامنا شاردة، لا تكفّ عن النّظر حولها.

- عمّ تبحثين؟ سأل فاتران.

- ما أبحث عنه... ما أبحث عنه... قالت السيّدة فاتران؛ هذا مدهش!

- قولي عمّ تبحثين، قال فاتران.

- أنا أبحث عن... لكنّني رأيتها وأمسكت بها قبل أقلّ من عشر دقائق.

- ماذا رأيت؟ وبأي شيء أمسكت؟ تحدّثي.

- ما دمتُ ملأتها سكّراً.

- أتبحثين عن سكّريتك؟

- نعم، سكّريتي.

- حسناً، قال كوريج، هناك جرذان كثيرة هذه السّنة.

- غير أنّه ليس في صالح الجرذان أن تأكل سكّراً، قال ميشال.

- أصحيحٌ يا ميشال؟

- بالتّأكيد، إنّ سيّدي يعلم أنّ جرذاً لا نُطعمه إلّا سكّراً يصير إلى العمى.

- أجل يا ميشال أنا على علم بذلك، لكن لا مجال لاتّهام الجرذان في

---

(1) جان–أوغست–دومنيك آنْغر Jean-Auguste-Dominique Ingres (1780–1867)، رسّام فرنسي من تيار الكلاسيكية الجديدة، ورفائيلو سانتسيو Raffaello Sanzio (1483–1520)، الرسّام والمهندس الايطالي المعروف باسم رفائيل، من كبار فنّاني عصر النّهضة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هذه القضيّة؛ فلو افترضنا أنّها أكلت السّكر فإنّها لن تكون أكلت السّكّرية.

- وما أدرانا! قال كوريج.

- ممّ صُنعت سكّريتك؟ سأل ميشال.

- من الخزف الصينيّ، أجابت السيّدة فاتران، من الخزف. سكّرية رائعة ربحتُها في معرض «لوج».

- متى حصل ذلك؟

- العام الفائت.

- يا سيّدة فاتران، قال كوريج، أنا ربحت قطعة أثاث أخرى. إن شئت قدّمتها لك هديّةً تعويضاً لسكّريتك؛ فنحن لم نستعملها بعد.

- بالفعل، قالت السيّدة فاتران، لكن، مع هذا كلّه، ما عسى يكون حلّ بسكّريتي؟

- لكن أين كنت وضعتها؟ سأل فاتران.

- وضعتها على المائدة الصّغيرة قرب النّافذة.

- آه! قال ميشال وكأنّ فكرة مفاجئة لمعت في ذهنه، وخرج.

عاد للدّخول بعد خمس دقائق دافعاً أمامه بريتشارد، حاملاً السّكرية في شكل كمّامة على خطمه، وهو يقول:

- هو ذا إذن كائن عوقب بما اقترفه.

- كيف؟ هو الذي أخذ السّكرية؟

- أنتم ترون، ما دام بعدُ يحملها. أوه! هو لم يكتفِ بقطعة سكّر، بل أراد السّكرية معها.

- ربطتَ السّكرية على خطمه، أنا أفهم...

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- لا، هو ممسك بها بنفسه.
- بنفسه؟
- أجل، انظر بالأحرى.
- هل أرنبة أنف قاطع الطّريق هذا إذن مغناطيسيّة؟
- الأمر ليس كذلك. أنتم تفهمون أنّه حشر خطمه في السّكرية الواسعة في عمقها أكثر ممّا في فتحتها، ثمّ فتح فمه وملأه بقطع السّكر. وصلت أنا في تلك اللّحظة فأراد أن يُغلق فاه إلّا أنّ قطع السّكر منعته من ذلك. أراد أن يسحب خطمه فلم يستطع، لأنّ فمه ظلّ مفتوحاً. ألفى «السيّد» بريتشارد نفسه محبوساً في السّكرية مثل غُراب في قِمع، وسيظلّ هكذا إلى أن يذوب السّكر.
- أوه! سواءٌ ذلك، يا سيّد دوما، قالت السيّدة فاتران. أنت توافق على أنّ لك هنا كلباً رهيباً، وأنّ من أعطاك إيّاه كان أحسن صُنعاً لو احتفظ به لنفسه.
- أتريدين أن اعترف لك بشيء، عزيزتي السيّدة فاتران؟ أجبتُها. إنّني بدأت أنحاز لرأيك.
- هذا مدهش، قال فاتران. إنّ هذا كلّه لَيجعلني أنا، خلافاً لكم، أزداد تعلّقاً به. أنا أشعر أنّنا سنصنع منه شيئاً ما.
- وأنت على حقّ، يا فاتران الأب، قال كوريج. الرّجال العِظام كلّهم كانت لهم نواقص عظيمة، وعندما غادروا الإعدادية، فليست جوائز الشّرف هي ما جعل النّاس يتحدّثون عنهم.

أثناء ذلك ذاب السّكّر، وكما تنبّأ به ميشال، تخلّص بريتشارد بنفسه من الكمّامة.

غير أنّ ميشال، وتفادياً لحوادث جديدة، عقد أحد طرفَي منديله حول

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عنق بريتشارد وأدار الطّرف الثّاني حول يُمناه.

- هيّا هيّا! قال فاتران، هاتي سكّراً. لنشربْ قهوتنا ونذهب لتجريب هذا الجَسور.

تناولنا قهوتنا التّي فاقت في جودتها كلّ ما كان قاله لنا فاتران سابقاً، فجعلنا نُردّد خلفه:

- هيّا نُجرّب هذا الجَسور.

حيث يُبطل بريتشارد القوّةَ بالحيلة

غير أنّ ميشال حرصَ، قبل أن ننصرف، على إبدال المنديل بساجورِ ردْع.

أتعلمنَ ما هو السّاجور؟

سؤالي ليس موجّهاً لكم أنتم يا قرّائي الأعزّاء وإنّما لقارئاتي الجميلات.

- لا.

- هل سبق لكنّ أن رأيتنّ في أعناق بعض كلاب الأمان الشّرسة والمُحبّة للشّجار ساجوراً مرصّعاً بمسامير أسنانها بارزة إلى الخارج، هدفها الحيلولة دون إمساك الكلاب المُخاصِمة بها من جلد عنقها؟

- نعم.

- ذاك إذن هو ساجور الحماية موضوعاً في مكانه.

ولكي نجعل من ساجور الحماية ساجور ردع، يجب تحويل طريقة وضعه وجعل أسنان المسامير إلى الدّاخل.

بعد ذلك يُضيف مروّض الكلاب إلى ذلك السّاجور حبلاً يُبقي به الكلبَ بعيداً عنه بنحو عشرين خطوة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وهذا ما يُسمّى الصّيد على مقربة من ماسورة البندقية.

فطالما لم يُشدّ الحبلُ، تظلّ المسامير تُدغدغ عنق الحيوان بلطفٍ.

لكن إن اشتطّ الحيوان، انشدّ الحبل بعنف، وبما أنّ المسامير تدخل على الفور في حنجرته، يتوقّف الكلب وهو يُصدر صرخة متفاوتة الحدّة، حسب دخول المسامير بأعمقَ أو بأقلّ عُمقاً.

نادراً ما لا يفهم الحيوان، عندما يُوقَف على هذه الشاكلة حوالى مائة مرّة، أنّ هدف هذه الطّريقة في الإصلاح هو منعه من الذّهاب بعيداً أثناء التّربّص.

في البداية نُعوّده على ذلك شيئاً فشيئاً.

نبدأ بترك الحبل يُسحب خلفه مع تثبيت عصاً بطول ثماني بوصات أو عشر في طرفه؛ العصا نفسها وهي تُسحب في الدّغل أو عبرَ نبات النفل أو الفصّة، تستحيل عائقاً أمام سَير الحيوان وتُفهمه أنّه يرتكب خطأً.

بعد ذلك نترك الحبل يُسحب دون عصاً.

وتلك هي مرحلة التّربية الثّانية. هنا تكون الإعاقة أقلّ والألم الذي يعانيه الحيوان أخفّ حدّة.

ثمّ نُزيح الحبل فلا يبقى إلّا السّاجور الذي يُوفّر للكلب الدّغدغة التي تحدّثنا عنها؛ تلك الدّغدغة التي برغم لُطفها تُذكّره بأنّ السّاجور ما يزال موجوداً، وبأنّ سيف ديموقليس[1] يستمرّ في تهديده.

أخيراً، نُزيل السّاجور، على أن نُعيد إحكامه حول عُنقه في المناسبات الكبرى. وبذلك تكون تربيّته قد اكتملت أو كادت.

---

(1) يعني تعبير «سيف ديموقليس» التّهديد المستمرّ. وأصله من الحكاية التي تقول إن الملك ديونيسيوس، في القرن الرّابع قبل الميلاد، وضع شرطاً لتحقيق رغبة ديموقليس في أن يُصبح ملكاً ولو ليوم واحد، وهو أن يضع سيفاً محمولاً بشعرة حصان فوق رأس ديموقليس، فعاش هذا يوماً ملكيّاً مُرعِباً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان على بريتشارد إذن أن يجتاز هذا الامتحان الرّهيب.

وعليكم أن تُقدّروا مقدار الإهانة التي يتعرّض لها كلبٌ دلّال معتاد على أن يكون خلال حملات الصّيد بعيداً عن صاحبه بثلاثمائة خطوة، وهو يجد نفسه مُرغماً على أن يصطاد على مقربة من ماسورة بندقيّة صاحبه.

أمّا أنا فكان اعتقادي راسخاً بأنّه لن يخضع لذلك أبداً.

ادّعى فاتران أنّه طوّع من قبلُ كلاباً أكثر عناداً من بريتشارد.

قال ميشال بحذر:

- ينبغي أن نرى.

حصل ذلك على الفور.

عند أوّل شجرة لاقاها بريتشارد، دار حول جذعها ثلاث دورات فانحشر بالحبل، ثمّ لبث واقفاً هناك.

- هل سبق لكم أن رأيتم بهيمة مثل هذه؟ قال فاتران.

ثمّ قام بعدد الدّورات التي قام بها بريتشارد، فخلّصه.

سلكنا الطّريق.

عند ثاني شجرة يلقاها بريتشارد، قام بثلاث دورات أخرى حول جذعها، فألفى نفسه محصوراً من جديد.

فقط، عوض أن يقوم بثلاث دورات يميناً، كما في المرّة الأولى، قام بثلاثٍ إلى اليسار.

ما كان بإمكان رقيب مدرَّب في الحرس الوطنيّ أن يقود مناورة بمثْل ذلك الانتظام.

فمن المؤكّد أن رجاله كانوا، حسب كلّ الاحتمالات، سيؤدّونها بمهارة أقلّ.

- هي ذي بهيمة مرّتين! قال فاتران.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قام فاتران يساراً[1]، حول الشّجرة الثّانية، بعدد الدورات نفسه الذي كان قام به حول الشّجرة الأولى، ففكّ بريتشارد.

قام بريتشارد عند الشّجرة الثّالثة بالشّيء نفسه.

- هي ذي بهيمة ثلاثاً.

طفق ميشال يضحك.

- حسناً، وماذا بعد؟ سأل فاتران.

- أنت ترى أنّه يقوم بذلك عمداً، قال ميشال.

بدأت أؤمن بذلك مثل ميشال.

- ماذا؟ يقوم بذلك عمداً؟

نظر فاتران في اتّجاهي.

- أخشى أن يكون الأمر كذلك، قلت له.

- ليس هذا طريفاً، قال فاتران، وسترى.

أخرج فاتران سوطه من جيبه.

اضطجع بريتشارد مستسلماً مثل قِنّ روسيّ محكوم عليه بالجَلْد.

- ما العمل؟ هل يتعيّن أن نُوسعه ضرباً مُبرّحاً، هذا النّذل؟

- لا يا فاتران، لن تكون لذلك فائدة، أجبتُ.

- ما العمل إذن؟ ما العمل إذن؟ ما العمل؟ صاح فاتران في قمّة الغيظ.

- ينبغي ترك الحيوان لغريزته، فأنت لن يمكنك أن تمهر كلباً دلّالاً بصفاتِ كلب من فئة الزُّغْر.

- أنت إذن تؤيّد فكرة تركه يفعل ما يشاء؟

(1) هكذا في الأصل «يساراً»، والحال أنّ ذلك لا يستقيم. فإذا كان بريتشارد قد دار بالحبل يساراً، يكون على فاتران لتخليصه أن يدور يميناً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- أجلْ يا فاتران.

- هيّا، سرْ، أيّها المتسكّع! قال فاتران وهو يُخلّصه من الحبل.

وما إن شعر بريتشارد بنفسه حرّاً حتّى اختفى في الدغل، دون أن يلفّ ويدور حول أيّ شجرة، خطمه مُنكّس وريشته في الهواء.

- ها هو إذن قد انصرف، ذاك الظريف، قلت.

- لنبحث عنه، قال ميشال.

- لنبحث عنه، قال فاتران وهو يهزّ رأسه مثل رجل قليل الاقتناع بحقيقة الحكمة الإنجيليّة التي تقول: «ابحثْ تجدْ».

وانطلقنا في البحث عن بريتشارد.

جيب لاستقبال الأرانب

لم يكن ثمّة، بالفعل، ما هو أحسن من البحث عن بريتشارد؛ ومن المحتمل أن تكونوا أنتم، في هذا، إلى جانب فكرة ميشال.

بحثنا إذن عن بريتشارد منادين ومُصفّرين على «المتسكّع» كما سمّاه رجل الغابات المَهيب.

دام ذلك البحث ما يُناهز نصف ساعة، في حين ظلّ بريتشارد يحاذر من الاستجابة لصفيرنا ومناداتنا.

أخيراً توقّف ميشال الذي كان يمشي في مُستواي، على بعد ثلاثين خطوة.

- سيّدي، قال، سيّدي!

- ماذا وراءك يا ميشال؟

- تعال لترى. أوه، تعال لترى.

لم تكن لي، على وجه التّرجيح، كما كانت لبريتشارد، أيّة دواعٍ فعلية،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تفرض عليّ أن ألزم الصمت أو أجمد في مكاني لا أبرحه. ولذا لم أُعرب عن أيّة صعوبة في الاستجابة لنداء ميشال.

توجّهتُ نحوه.

- ماذا هناك؟ سألت.

- لا شيء، فقط انظر.

فمدّ ميشال ذراعه أمامه.

تبعت الاتّجاه المُشار إليه، فلمحت بريتشارد جامداً جمودَ كلب كيفالوس المشهور الذي كان لي شرف محادثتكم عنه.

كان يُشكّل رأسه وظهره وذيله خطّاً مستقيماً شديد الصّلابة.

- فاتران، قلت بدوري، تعال.

أقبل فاتران.

أريته بريتشارد.

- حسناً، أعتقد أنّه مُتربّص بطريدة.

- بحق الرّب! قال ميشال.

- بأيّة طريدة يتربّص؟ سألت.

- هيّا لنرى، قال فاتران.

اقتربنا منه. قام فاتران حول بريتشارد بدورات تضاهي في عددها عدد الدورات التي كان قد قام بها بريتشارد حول الأشجار.

لم يتزحزح بريتشارد البتّة.

- أيّاً كانت الطريدة، قال فاتران، هو ذا تربّص صارم.

ثمّ أشار لي بيده.

- تعال، قال لي.

فذهبتُ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- انظر... هناك... أترى شيئاً؟
- لا أرى شيئاً.
- كيف؟ ألا ترى أرنباً بريّة في جُحرها؟
- بلى، أرى.
- اللّعنة! قال فاتران. لو كانت عصاي معي، لصرعتُها، ولأُعِدّت لك مُحمّرةً بالنّبيذ.
- أوه! هتفَ ميشال. ليس هذا بمبرِّر، اقطع لنفسك عصاً.
- حسناً، وفي تلك الأثناء قد يرخي بريتشارد قبضته!
- لا خطر، أنا أضمن بقاءه على حاله، إلّا أن تفرّ الأرنب أثناء ذلك.
- سأذهب لأقطع العصا، قال فاتران، وأضاف: أقلّه لنرى ما سيحدث.

وشرع فاتران في قطع عصاً.

لم يحد بريتشار عن موضعه. اكتفى، من حين لآخر، بأن أدار نحونا عينيه اللّتين بلون الخردل، واللّامعتين كأنّهما من الزبرجد.

- صبراً، صبراً، قال له ميشال، أنت ترى أنّ السيّد فاتران يقطع عصاً.

فبدا أنّ بريتشارد فهمَ وهو ينظر إلى فاتران؛ فأعاد رأسه إلى اتّجاهه المستقيم، واستعاد سكينته.

قطع فاتران عصاه.

- آه! قال ميشال، لديك الوقت لتشذّب الغصن.

فشذّب فاتران الغصن.

ثمّ، وبعد أن شُذّب الغصن، اقترب مُحاذراً، مُتّخذاً تدابيره فهوى بعصاه وسط ضمّة العشب الصّغيرة حيث كانت تأوي الأرنب.

وعلى الفور رأينا البطن الأبيض للحيوان المسكين وهو يضرب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بقوائمه الأربع في الهواء.

أراد بريتشارد أن يُسارع إلى الأرنب، لكنّ فاتران كان هناك، وبعد لحظة صراع، كانت الغلبة للقانون.

- ضع هذه الجَسور في جيبك يا ميشال، فهي المُحمّرة بالنّبيذ الموعودة.

- لها صُلب قويّ، قال ميشال وهو يحشرها بين بطانة سترته الرّودنغوت وظاهرها.

يعلم الله كم من أرنب استقبل ذلك الجيب.

بحث فاتران عن بريتشارد كي يُهنّئه.

لكنّ بريتشارد كان قد اختفى.

- يا للشّيطان! أين هو؟ سأل فاتران.

- أين هو؟ قال ميشال، ليس صعباً تخمين ذلك. هو يبحث عن أرنب أخرى.

ما قاله صحيح؛ جعلنا نبحث عن بريتشارد.

بعد عشر دقائق عثرنا عليه.

- وكأنّه صخر! قال ميشال. انظروا.

وبالفعل، كان بريتشارد متربّصاً بإخلاصٍ ويقظة، كما تربّص في المرّة الأولى.

اقترب فاتران.

- هي ذي الأرنب، قال.

- هيّا، يا فاتران، أنت تملك هذه المرّة عصاك مُعدّة.

انتصبت العصا ثمّ هوت على الفور مصفّرة في نبتة علّيق.

فأغطس فاتران يده في العلّيق وأخرج أرنباً ثانية مُمسكاً بها من أذنيها.

- خذ يا ميشال، قال. ضع هذه في جيبك الثّاني.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يتأخرّ ميشال في القيام بذلك، غير أنّه وضعها في الجيب ذاته الذي كان قد وضع فيه الأرنب الأولى.

- لكن يا ميشال، لماذا لم تضعها في الجيب الآخر كما قال لك فاتران؟

- آه! سيّدي، قال ميشال، هذا الجيب يمكنه أن يسع خمساً.

- ويحك يا ميشال! مثل هذه الأمور لا تُقال أمام موظّف عمومي.

ثمّ أضفت وأنا ألتفت صوب فاتران:

- هيّا يا فاتران، إنّ العدد ثلاثة يروق للرّب.

- هذا ممكن، قال فاتران، لكنّه قد لا يروق للسّيد غيران.

السيّد غيران هو مفتّش الصيد.

- ولكن لا فائدة من ذلك، قلت له، هل صرتَ تعرف بريتشارد؟

- كأنّني صنعتُه؛ قال فاتران.

- ما رأيك فيه إذن؟

- حسناً! أنا أقول، بالتّأكيد، إنّه إنِ اصطاد بالقرب من ماسورة بندقية صاحبه فهو حيوان مستهتر، لكنْ إن تربّص، فهو يُحسن التّربّص.

- لكن أين هو ثانيةً؟ قلت لميشال.

- أوه! قد يكون وقع على أرنب ثالثة.

بحثنا فوجدنا بريتشارد بالفعل مُتربّصاً.

- يشتدّ بي الفضول، قال فاتران، لأعرف كم من الوقت سيبقى على هذه الحال.

أخرج فاتران ساعته.

- حسناً يا فاتران، قلت له، بما أنّ وجودك هنا يدخل في إطار مزاولتك لمهامّك، فلتعشْ نزوتك؛ أمّا أنا فاسمحوا لي بالعودة إلى منزلي ما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دمت في انتظار أناس سيزوررونني.

- لك ذلك، قال فاتران.

فانتهجنا، أنا وميشال، طريق فيلّا ميديسيس.

عندما التفتّ لآخر مرّة رأيت فاتران يضع ساجور الردع حول عنق بريتشارد دون أن يبدو على الكلب أنّه لاحظ بما كان ينشغل الرّجل.

بعد ذلك بساعة، ولج فاتران منزلي. صاحَ في اتّجاهي من أبعد مكان رآني منه:

- سبع وعشرون دقيقة؛ ولو لم تنطلق الأرنب لكانَ الكلب ما يزال رابضاً هناك.

- ما رأيك إذن يا فاتران؟

- أرى بالتّأكيد أنّه يُحسن التّربّص.

- أجل، هذا معروف، لكن ماذا بقي لك لتعلّمه إيّاه؟

- أمر يتعلّمه منك أنت تماماً كما يتعلّمه منّي. تُرّهة على أيّ حال؛ أن يُحسن الإتيان بالطّريدة. ستلقّنه ذلك عن طريق اللّعب، ولا حاجة لك بي للقيام بالأمر.

- أتسمع يا ميشال؟

- أوه! سيّدي، قال ميشال، الأمر حاصل سلفاً.

- كيف الأمر حاصل؟

- أجل، هو يأتي بالطّريدة مثل ملاك.

لم يُمكّني كلام ميشال من تكوين فكرة واضحة عن الطّريقة التي يُحضر بها بريتشارد الطّريدة.

لكنّ ميشال رمى بمنديله فأحضره له بريتشارد.

ثم رمى ميشال بإحدى أرنبَي فاتران، فأتاه بها بريتشارد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أخيراً، ذهب ميشال إلى قُنّ الدّجاج وأمسك ببيضة ووضعها على الأرض.

أتى بريتشارد بالبيضة كما أتى من قبلُ بالأرنب وبالمنديل.

- بات جليّاً أنّ الحيوان، قال فاتران، يعرف كلّ ما يلزمه معرفته، وما عاد أمامه غير التطبيق.

- في الثاني من أيلول المُقبل، يا فاتران، سآتيك بأخبار بريتشارد.

- عندما نُفكّر ملياً، قال فاتران، فإنّ وغداً مثل هذا، إذا ما قبلَ بالصّيد بالقرب من ماسورة بندقيّة صاحبه، أصبح ثمنه خمسمائة فرنك، وسيكون ذلك في الحقيقة ثمناً بخساً.

- صحيح يا فاتران، قلت له، لكن عليك أن تيأس من ذلك؛ فلن يقبل أبداً.

في تلك اللّحظة وصل الأشخاص الذين كنت أنتظرهم. وبما أنّ إحدى مميّزات فاتران هي الرزانة، فقد انسحب، وبانسحابه وضع حدّاً لمحادثتنا، على أهمّيتها.

ألفريد وميدور

عدت هذه المرّة وأنا أقود طابوراً مكوّناً من ولدي وماكيه وابن أختي.

ابني تعرفونه.

وكذلك ماكيه.

غير أنّكم لا تعرفون ابن أختي.

كان ابن أختي في تلك الفترة فتىً كبيراً أو بالأحرى طويلاً بخمس أقدام وثماني بوصات، وكان أوفر حظّاً من جَمَل الكتاب المقدّس، حتّى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لَكان بإمكانه أن يمرّ عبر خرم إبرة[1].
لكلّ إنسان شبيهه في النّوع الحيوانيّ.
وضمن النّوع الحيوانيّ، ابن أختي من نوع الطّيور ذوات السّيقان الطّويلة.

اسم عمادته هو ألفريد.
خلال أيّام القنص يكون مصحوباً بكلب يُدعى ميدور.
أوه! ميدور، إنّ ميدور ليستحقّ أن يُبنى له هيكل.
لكن أيضاً، كمْ هما متناسبان، ألفريد وميدور!
ومنذ أن فقد ألفريد ميدور ما عاد هو ألفريد.
ألفريد يُحسن الرّماية بالبندقيّة، فيُصيب بثلاثة أرباعِ طلقاته.
أمّا ميدور فلا يرتكب خطأً أبداً، ولا يتربّص أبداً بقَبّرة.
خلال أيّام افتتاح الموسم، نبدأ الصّيد أبكرَ ما يمكن؛ في الخامسة صباحاً؛ فيصطفّ ألفريد وباقي الصّيادين.
لكنّ ذلك يكون مجرّد تنازلٍ منه للأعراف.
فعند أوّل غابة نبلغها، عند أوّل مَرْنَبة[2]، عند أول أكمة، يختفي ألفريد.
نراه يبتعد بصحبة ميدور الذي يصطاد على بعد عشرين خطوة منه.
عند منتصف النّهار، خلال الاستراحة التي نقيمها من أجل الغداء، يعود ألفريد للظّهور، فنراه يمشي دائماً بالخطوة نفسها، مادّاً ساقيه بالانتظام نفسه.
بركارٌ حقيقيّ لمسّاح أراضٍ بقياسِ مترٍ هو ألفريد.
وميدور هادئ، ميدور يمشي وألفريدَ جنباً إلى جنب.

(1) الإشارة هنا إلى ما ورد في الإنجيل: «أن يدخل الجمل في ثُقب الإبرة أيسر من أن يدخل غنيّ ملكوت الله» (متّى 24/19؛ مرقس 25/10؛ لوقا 25/18).
(2) أرض تكثر فيها الأرانب البرّيّة (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نلوّح بأيدينا لألفريد كي يأتي ليتناول الغداء بصُحبة الآخرين. لكنه يرينا من بعيدٍ قطعة خبز وقنّينة صغيرة فيها مشروب، وهو يُحرّك رأسه دلالةً على اعتباره غداءَنا مجرّد ترف لا يليق بصيّاد حقيقيّ، ويعود للاختفاء ثانية.

مساءً، عند السّاعة الخامسة، نقفل جميعاً عائدين.

نعدّ بعضنا بعضاً. الكلّ يردون على النّداء، خلا ألفريد.

عند السّابعة نغادر المائدة ونذهب أمام باب المزرعة كي نستمتع بالهواء ونستمع لأصوات مناداة الحجل.

عندئذ يصرخ من كان منّا ذا نظرٍ سليم.

في الأفق، وفي حمرة المغيب، نلمح ألفريد يخطو دائماً متراً في كلّ خطوة؛ غير أنّ ميدور، الذي كان صباحاً يتقدّمه بعشرين متراً، وكان يمشي، في منتصف النّهار، وإيّاه جنباً إلى جنب، يلوح، مساءً، وهو يتبعه متخلّفاً عنه بعشرين خطوة.

وعندما يلفّ الظّلام الدّنيا، يلج الصّيادون والكلاب المزرعة.

بانتظام، يأتي ألفريد بما يقرب من خمسة وثلاثين حجل وبعشرة من طيور السّماني، وثلاث أرانب داجنة أو أربع، وبأرنبين بريّتين أو ثلاث، وغالباً بزوج من طيور الصِّفرد فوق ذاك كلّه.

يأتي بذلك في جراب صيده دون ادّعاء وبدون تواضع أيضاً.

ما يُحضره يمكن أن يملأ ثلاثة أجربة، لكنّ جرابه هو يبدو نصفُه فارغاً.

أكيدٌ أنّ ألفريد يَقدِر على ملء حقيبة كبيرة.

يُخرج من جرابه الطّرائد واحدة تلو الأخرى، ويتأمّلها ثمّ يمسّد ريشها ويضعها على المائدة، مبتدئاً بأصغرها ومنتهياً بالكبرى.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يدوم ذلك ربع ساعة.

نَعدّ.

يبلغ العدد خمسين أو ستّين طريدة.

بعد ذلك ينطق ألفريد بجملته المعهودة:

- آه! أعتقد أنّ هذا أوان الاغتسال.

وقبل أن يتناول ألفريد أيّ شيء، يصعد إلى غرفته كي يرتدي جوربين مخطّطين وخفّين برّاقين وسروالاً وسترة قطنية، ويشدّ على جيده الطّويل ربطة عنق بعرضِ إصبع، لونها فاتح، ويمرّر -لاعتبارات وقائية على الأرجح- في شعره النادر مشطاً أسنانه أكثر عدداً ممّا على الرأس الذي يمشّطه هو من شعر.

في تلك الأثناء نشرع نحن بفحص طرائد ألفريد. على ما يناهز رُبعها لا نعثر على أيّ أثر لجُرح.

ذاك الرّبع هو ما يكون اصطاده ميدور.

لا وجود لكلب يُحسِن، مثل ميدور، الإمساك أو تمكين صاحبه من الإمساك بأرنب بريّة في جُحرها أو بطائر السماني.

في اليوم التالي نستأنف حملةَ الصّيد جميعاً، صيّادين وكلاباً، بحماس متناقص؛ لكنّ ألفريد وميدور يستأنفانها بالحماسة ذاتها.

ذلك اليوم [بعد عودتي] تصارعَ، مثل ريّاضيَّين، ميدور الذي كان في شيخوخته وبريتشارد الذي كان في مقتبل عمره.

لو كان ذلك سباقَ جرْي لكان فاز به بريتشارد بالتّأكيد.

بمجرّد مغادرة المزرعة، صعد بريتشارد حافة هوّة، ودرس الموقع بعينيه اللّتين بلون الخردل، وهو يضرب الهواء بذيله الناعم كالرّيش، ثمّ انطلق فجأة في اتّجاه حقلِ نفْل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لا جدوى من الصّفير والنّداءات. أغلق بريتشارد أذنية فأضحى أصمّ مثل الموت في قصيدة ماليرب[1]، غير عابئ بصراخنا في أثره.

عندما اقتحم ثلث الحقل توقّف فجأة.

فقال ألفريد الذي نظر إليه، وهو ينطلق، بازدراء شديد:

- انظروا، يبدو أنّه يتربّص بشيء!

- ولماذا لا يتربّص؟ سألت.

- نعم!

كان ولدي ألكساندر يُعدّ سيجارة، فأراد أن يتركها جانباً ليصل في الوقت المناسب.

- أوه! قلت له، لستَ في عجلة من أمرك، أشعلْ، أشعلْ!

أنهى ألكسندر إعداد سيجارته، ثمّ بلّلها وأشعلها.

ظلّ بريتشارد جامداً مثل صخرة.

- هيّا نرى ما يحدث، قال ألفريد.

ثم طفقنا نمشي في اتّجاه حقل النفْل.

لم يكن بريتشارد يبعد عنّا بأكثر من أربعمائة خطوة.

أدركناه من الخلف.

- تقدّمْ أمامه، قلت لألكساندر.

تقدّم ألكساندر أمامه، فلم يتحرّك شيء.

- آه! قال ألكساندر، كلبك أحول.

- كيف، أحول؟

---

(1) فرانسوا دو ماليرب François de Malherbe (1555–1628). شاعر فرنسيّ. والإشارة هنا إلى القصيدة التي عزّى بها أحدَهم، ويُدعى السيّد دو بيرير M. du Perrier، بمناسبة وفاة ابنته، أضفى فيها على الموت مجموعة من النّعوت.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- إنّه ينظر إلى مورينفال مُستطلعاً إن كانت بييرفون تحترق[1].

- انظرْ أنت إذن أمام قدميك وانتبه إلى ما سينطلق.

قبل أن أنهي كلامي انطلقت أرنب بريّة هاربة.

أطلق عليها ألكساندر النّار من بندقيّته فخرّت منقلبة.

ظلّ بريتشادر بغير حراك.

هو فقط كفَّ عن البقاء أَحولَ. فالعين التي تنظر إلى مورينفال إن كانت بييرفون تحترق، التحقت بتلك التي تنظر إلى بييرفون.

قال ألفريد، وهو يقذفه برجله تحت ذنبه.

- غبيّ، ألا ترى أنّها صُرِعتْ؟

التفت بريتشارد ولسان حاله يقول «أنت الغبيّ!»، ثمّ واصل تربّصه.

- عجباً، قال ألفريد.

- ألا ترى، قلت له، أنّه يتربّص بأرنبين معاً، وأنّ إحداهما انطلقت بالقرب من ألكساندر والثّانية ستنطلق بالقرب من ماكيه؟

قبل أن أنهي كلامي انطلقت الأرنب الثانية بدورها، كما لو لم تكن تنتظر إلّا إشارتي.

أخطأها ماكيه بطلقته الأولى وقتلها بالثّانية.

- تعال يا ميدور، تعال، هتف ألفريد.

وهبط في اتّجاه مورينفال.

- حسناً، قلت لألكساندر، هو ذا ألفريد يذهب في رحلة صيده، ولن نراه إلّا مساءً.

- لنعزِّ أنفسنا لفقده بالأمل في ألّا يعود، قال ألكساندر.

ثمّ وضع أرنبه في جرابه.

---

(1) مورينفال Morienval وبييرفون Pierrefonds بلدتان فرنسيّتان.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فعل ماكيه الشّيء نفسه بأرنبه.

- أربعة صيّادين بكلبين، كان الأمر ممتازاً، بينما ثلاثة بواحد...

- أنا أرى أنّ بريتشارد بمفرده يساوي كلبين اثنين، قال ماكيه.

- أين هو؟ سأل ألكساندر؟

نظرنا من حولنا في كلّ الاتّجاهات.

لم يكن لبريتشارد من وجود.

في تلك اللّحظة أثارت انتباهنا طلقةٌ من ألفريد الذي كان قد اختفى لتوّه خلف قمّة شجرةٍ أرْزيّة.

وأعقبَ تلك الطّلقة بصرخات: «ابحثْ، هاتِ، ميدور! ابحثْ!»

- هو ذا ألفريد يبدأ صيده! قال ألكساندر.

وعندما شرع ألكساندر وماكيه يُعيدان حشوَ بندقيّتيهما، لم يكتفِ ألفريد بمواصلة صرخاته، وإنّما ضاعف من حدّتها.

- انْظُر، قلت لألكساندر، ألا انْظُر!

نظر ألكسندر في الاتّجاه الذي كنت أشير إليه.

- آه! عجباً، قال. هو ذا بريتشارد قد اصطاد حجلة.

- هو لم يصطدها وإنّما سرقها.

- ممّن؟

- من ألفريد. هي الحجلة التي يحضّ ألفريد ميدور على البحث عنها.

في تلك اللّحظة دوّت طلقة ثانية، ومن جهة ألفريد أيضاً.

- انظر إلى ما يفعله بريتشارد، قلت لألكساندر.

- آه! أجاب. كان عليك أن تقول إنّنا آتون إلى عرضٍ وليس إلى حملة صيد. لَكنتُ أتيت بمنظار أوبرا بدل بندقيّة.

وبالفعل، كان بريتشارد قد ترك الحجلة التي أتى بها تسقط من فمه في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثلم، وانطلق يعدو بخطوات واسعة في اتّجاه الطّلقة.

بعد عشر ثوانٍ عاد للظّهور حاملاً حجلة ثانية.

واصل ألفريد صراخه بصوت عالٍ:

- هاتِ يا ميدور، هاتِ!

- هلّا تفضّلت بأن تشرح لي ما يحدث، قال ماكيه.

- أوه! الأمر بسيط، قلت له. ثمّة في المُنحدر غابة صغيرة. وعلى مدخل تلك الغابة، عرَضت لألفريد حجلة فرماها وقتلها. غير أنّ الحجلة سقطت في الغابة. لم يقلق ألفريد من ذلك فصرخ وهو آخذ في إعادة تعبئة بندقيّته: «ابحثْ يا ميدور»، لأنّ ألفريد يعرف ميدور، فلم يخش شيئاً. لكنّ ألفريد لا يعرف بريتشارد. فهو لصّ وقرصان ومحتال! كان في تلك الغابة فالتقط حجلة ألفريد قبل أن يجتاز ميدور الحفرة، وأتاني بها دون أن يهتمّ بها إذا كنت أنا حقّاً من أسقطها. وعندما قلق ألفريد من عدم رؤيته لا ميدور ولا الحجلة، ولج الغابة كي يُعين ميدور. عندئذٍ انطلقت حجلة أخرى في الغابة. وكما قتل الأولى قتلها هي أيضاً. ومن حيث كان يوجد بريتشارد استطاع أن يرى الاتّجاه الذي سقطت فيه، فأطلق الأولى وهُرِعَ إلى الثّانية... ثمّ، انظر، ها هو آتٍ بالثّانية كما أتى بالأولى، أو بالأحرى، هو ذا قد أتى بهما معاً.

- آه، هكذا!

- الأرجح أنّه أتى إلى الثّلم حيث كان ترك حجلته الأولى، وعندما وصل إليه، وبما أنّه أحسّ بفمه مُترعاً لحمله حجلتين، قام بالمجهود الذي ترونه، أو بالأحرى لا ترونه... انظر يا ألكساندر، انظر يا ماكيه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- ماذا يصنع؟

- هو يتربّص بسُماني مع حجلتين بين شدقيه.

- وكيف تشمّم طائر سُماني؟

- هو لا يتشمّمه وإنّما يراه. أمسكْ ببندقيتي.

- وبِمَ سترميه؟

- لن أرميه وإنّما سأقتنصه بقبّعتي.

توجّهتُ نحو بريتشارد، وباتّباع اتّجاه عينيه لمحت طائر السماني.

بعد ذلك بثانية، أضحى تحت قبّعتي.

- إنّ هذا، قال ألكساندر، لأدعى للتّسلية من الصّيد، لكنّه ليس صيداً.

في تلك اللّحظة رأينا ميدور مُقبلاً، متتبّعاً أثر بريتشارد، ثمّ رأينا ألفريد يأتي في أثر ميدور.

- ما بك؟ سألت ألفريد.

- ما بي، ما بي... ما أروعك! أرمي حجلتين وأقتلهما معاً، ولا أستطيع العثور على أيّ منهما! هي بداية مفرحة.

- أمّا أنا، قلت له، فأوفر حظّاً منك؛ لم أطلق بعد رصاصة واحدة، ومع ذلك حصلت على حجلتين وطائر سماني.

فأريته في إحدى كفيّ الحجلتين النّافقتين وفي الأخرى السماني حيّاً.

اتّضح لألفريد كلُّ ما قام به بريتشارد فأمطره باللّعنات.

لكنّ بريتشارد لم يكن عاد قُدّامنا ليسمع اللّعنات المُنزَلة به.

أين بريتشارد؟

كان بريتشارد، من جانبه، ذهب ليصطاد. وبما أنّ الصّيد برفقته أضحى مُتعِباً، قرّرنا أن نصطاد من دونه وأن نستخدمه بين الفينة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

والأخرى. اصطففنا وجعلنا نصطاد دون كلب.

لمح ألكساندر، ذو النّظر الحادّ، بريتشارد على بعد ربع فرسخ، من الجهة الأخرى للوادي.

لم يعد ذاك ميدان صيدنا، وهو الأمر الذي لم يكن يهمّ بريتشارد في شيء، بينما كان شديد الأهمّية بالنّسبة إلينا.

انطلقت حجلة أمامي فرميتها. كانت تلك طلقتي الأولى.

جُرحت الحجلة في فخذها وانطلقت قدُماً أمامنا، فبدا لي أنّها ستسقط في اتّجاه رجل كان يلمّ بقايا حصاد.

لم يكن بريتشارد بجانبي حتّى أصيح به: «هاتِ!»، فقرّرت أن أمشي إلى حيث سينتهي تحليق حجلتي فآتي بها لنفسي.

أثناء مسيري، انطلقت أرنب فرميتها.

حوّل ذلك اهتمامي قليلاً عن حجلتي.

نتج عن ذلك أنّني عندما التقطت أرنبي ووضعتها في جرابي، شعرت أنّني تهتُ.

لكن لحسن حظّي، أسعفني لمّام بقايا الحصاد بأن أضحى هو هدفي.

كان قد جلس وشرع يأكل.

فذهبت إليه.

- قلْ لي يا فتى، أما رأيت حجلة؟

- حجلة؟

- نعم.

- أوه! رأيت من الحجل الكثير، سيّدي.

- نعم، لكنّني أتحدّث عن حجلة واحدة.

- رأيت حجلات متوحّدة أيضاً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- مُصابة؟

- مُصابة؟

- أجل.

- آه! لا علم لي بذلك.

- هيّا، لا تكن أبله. أنا أسألك إن كنت رأيت حجلة تسقط، عندما أطلقتُ أنا النّار قبل لحظة؟

- أنت إذن من أطلق النّار؟

- نعم، أنا من أطلق النّار.

- أوه! لم أر شيئاً يسقط.

نظرت للّرجل شزراً، وطفقت أبحث عن حجلتي.

ساعدني ألكساندر في بحثي.

وفجأةً:

- انظرْ، قال لي، هو ذا بريتشارد يعود.

- أين هو؟

- قريباً من صاحبك اللّهام. يبدو أنّه يريد أن ينتشل منه طعامه.

- خبز حافّ! أنت لا تعرف بريتشارد.

- ألا انْظُر إليه.

- نظرت إليه فالتمعت في ذهني فكرة.

- آه! قلت، هذا أحسن ما في الأمر.

- هل هو مُتربّص باللّهّام؟ سألَ ألكساندر.

- لا، هو متربّص بحجلتي التي ما تزال حيّة، وهي في جيب الرّجل.

- سبحان الله! هتفَ ألكساندر. إن كان ذلك صحيحاً فسأطالب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بانتخاب بريتشارد فتى الورد[1].

- خذ عشرة قروش، وتقدّم نحو ذلك الرّجل الشّاب الذي يبدو لي مُبلبَلاً من الوضع الذي ألفى نفسه فيه، وتلفّظْ بهذه الكلمات: «تسلّمني حجلة والدي وتأخذ عشرة قروش، أو حجلة والدي مع ركلة في...»

نهض لمّام بقايا الحصاد وحاول أن يكسب بعض المسافة.

لكنّ بريتشارد الذي رأى الطريدة تجري على قائمتيها، عدا في أثر الرّجل، وخطمه على مقربة من جيبه.

- نادِ كلبك، يا سيّدي الصّياد، صاح الشّابّ الظريف. كلبك سيعضّني.

وراح يعدو.

- هاتِ يا بريتشارد، هاتِ، صحت.

فقفز بريتشارد وأمسك بالفتى من جيب سترته.

- الآن، قلت لألكساندر، الأمر سهل بالنّسبة إليك.

اقترب ألكساندر وأدخل يده في جيب ذلك الشّقيّ وأخرج الحجلة.

وبما أنّ الحجلة هي ما كان يجتذب بريتشارد إلى هذه الصُّحبة الجديدة، فما إن لم تعد الحجلة في جيب الرّجل، حتّى أطلق بريتشارد سترته.

لا فائدة من مواصلة الحديث عن مآثر بريتشارد.

فبعد نهارٍ أطلق فيه العنان لغرابة أطواره الأشدّ خبلاً، والأبعد ما تكون عن أيّ توقّع، عدت إلى المزرعة بحوالى خمسين طريدة.

أمّا ألفريد، بمعونة ميدور ذي التربية الكلاسيكيّة، فلم تكن حصيلته

(1) يوظّف المتكلّم لقب «فتاة الورد»، وهي فتاة كانت تُنتخَب ملكة للفضيلة في بعض القُرى وتُمنَح إكليلاً من الورد (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أحسن.

غير أنّ النّتيجة التي توصّلت إليها من مُعاينتي لبريتشارد هي أنّ الصّياد الذي يُسعفه الحظّ في امتلاكه، يكون عليه أن يصطاد بمفرده.

إنّه كلبُ راهبٍ متبتّلٍ صَموت.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رحلة لصيد ظباء الجبل

لقد وفى لهمان بوعده: ولجَ، في تمام السّاعة الثّالثة، غرفتي مرتدياً لباس الصّيد. نزلت من سريري، وفي رمشة عينٍ كنت جاهزاً بدوري. تردّدت للحظاتٍ بين القربينة التي تقذف أدقّ وأبعد، والبندقيّة التي تُوفّر لي فرصة إطلاق رصاصة ثانية. قرّرت في الأخير أن آخذ بندقيّتي. قُدِّم لي ما فضلَ من طعام عشاء الأمس، لكنّ الوقت كان أبكر من أن تكون لي رغبة في الأكل. اكتفيت بملء مطرَتي بشراب الكرز المخمّر وبوضع قطعة خبز في حقيبة صيدي. رآني لهمان أقوم بذلك فشرع يضحك:

- لا تُثقلْ نفسك، قال لي، سنتناول غداءنا في الجبل.

وبالفعل، كان قد وضع في جراب صيده علبة معدّة بشكل جيّد بدت لي حاويةً تشكيلة معتبرة من الزّاد.

انطلقنا على الفور، لكنّنا انتهجنا، كما قال لي لهمان، طريقاً آخر غير طريق اليوم السابق. فعوضَ أن نسير في الطّريق إلى غاية ميتلودي، كما كنّا فعلنا يومذاك، قطعناه ودلفنا قدُماً أمامنا عبر السّهل فوصلنا، بعد نصف ساعة، إلى قرية صغيرة قال لي مرافقي إنّها تُدعى سيراتي. عندما غادرناها ألفينا نفسَينا على شاطئ بُحيرة صغيرة رائعة وهادئة وصامتة ماؤها فضّيّ. وحده جدول ينزل من غلارنيش ويأتي ليصُبّ، واثباً على الصّخور، في مرآة الجنّيّات البديعة تلك، كان يُعكّر بفورانه صمت اللّيل اللّذيذ. صعدناه إلى أن أدركنا منبعه. وبوصولنا إلى هناك انطلق لهمان في الجبل وهو يشير إليّ بأن أمشي في أثره؛ ذلك أنّنا بالرّغم من أنّنا كنّا ما نزال بعيدين عن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المكان الذي نعتزم العثور فيه على الطّريدة، كنّا كففنا، منذ مدّة، عن تبادل الكلام، مخافةَ أن يذهب أحد تلك الأصداء الغريبة، ممّا يوجد في الجبال، والتي تحمل الصّوت إلى مسافاتٍ نعتقد أنّها لا تُدركها حتّى طلقة بندقيّة، ليوقظ خفْيةً، وقبل الأوان، الطرائد التي أتينا لنحيّيها مع بداية استيقاظها.

غير أنّ لهان، بوصفه صيّاداً حذراً ومجرّباً، سايرَ اتّجاه الرياح بطريقة تجعل الطّريدة، مع بعض الحذر من جانبنا، غير قادرة على شمّ رائحتنا ولا كذلك على سماعنا. مشينا على تلك الشاكلة ما يقرب من نصف ساعة، عبر طرُق هي على قدر من الصعوبة، لكنّها ما تزال سالكة. من لحظة لأخرى كنّا نمرّ بجانب كُتَلِ ثلج كبيرة جدّاً نتجنّبها خشية الصّوت الذي قد تُحدثه وهي تنسحق تحت أقدامنا. شرع الهواء يبرد بشكل محسوس. كنّا نقترب من منطقة الجليد. لمحنا أخيراً، أسفلَ صخرة، كوخاً مدفوناً إلى النّصف. دفع لهان بابه فدخل في المقدّمة وتبعته أنا.

- ها نحن وصلنا، قال لي، وسيكون بإمكاننا هنا أن نتحدّث، إذْ لا وجود لصدىً يُمكنه أن يفضحنا. في غضون ربع ساعة سيشرع النّهار في البزوغ، وعندئذٍ سنذهب لنشغل مكانَينا.

- لكن، أجبته، أليس من الأفضل أن نذهب لنحتلّ موقعَينا هناك تحت جنح اللّيل؟ ستكون لنا فرصة إضافية في ألّا تَرانا الطّرائد.

- أجل، لكن قد يحصل أن يتعرّف ظبيُ جبلٍ[1] نكون بتلك الطّريقة قد سبقناه إلى مكانه، أقول يتعرّف على أثرنا، وعندئذٍ لن يكتفي بأن يرتدّ على عقبيه، وإنّما سيعمل أيضاً على إنذار رفاقه، ما يؤدّي إلى أن نعود من رحلة صيدنا صفر الأيدي، في حين أنّنا عندما نأتي بعد

(1) الحيوان الذي تسرد هذه القصّة صيده هو حيوان الشاموا (أو الشمواة) الواسع الانتشار في مرتفعات الألب الفرنسيّة والأناضول وأذربيجان وسواها، ولبواعث تعبيريّة آثرنا هنا دعوته باسمه الآخر: «ظبي الجبل» (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ظباء الجبل لا نُخاطر بأن نُكشَف. يبقى وارداً أن ترانا، لكن ليس عليك إلّا أن تتبعني وأن تقوم بما أقوم به من حركات، وأعدك بأنّنا، مهما يكن مكرها، سنكون نحن أكثر منها مكراً. في انتظار ذلك، سنقوم، إن لم يكن لديك اعتراض، بإغلاق الباب والاهتمام ببعض التّفاصيل، ستُقدِّر أهمّيتها أكثرَ بعد ساعتين من الآن.

قال لهمان ذلك وقدح ولّاعته فأشعل شمعة ثمّ فتح نوعاً من خزانة فيها طنجرة وموقد وبعض الصّحون، فأخرج العلبة من جراب صيده ووضع إلى جانب تلك الأواني نبيذاً وخبزاً وجبناً وزبدة.

جعلتُ أردّد، مُعرباً عن استحساني لتلك الاستعدادات:

- آه! آه!

- أتدري؟ قال لي. سنُعدّ هنا، على هذه الربوة، قبالة أحد أروع مناظر جبال الألب، شيئاً يُعادل في لذّته وجبة ملكيّة؛ أقصد غداء صيّادين. فأنا فكّرت أنّك ستحبّ ذلك أكثر ممّا ستحبّ العودة إلى غلاريس.

- وقد أحسنتَ التّفكير، قلت له. لكن ما الذي سنقليه في الزّبدة، وما الذي سنأكله مع هذا الخبز.

- آه، اسمعْ! غداؤنا في ماسورة بندقيّتنا.

- اللعنة! قلت. لكن بندقيّتي غير معبّأة.

- عبّئها إذن. بندقيّتي أنا معبّأة سلفاً.

أَزلَقتُ من جهةٍ شحنةً تحوي عشر رصاصات ومن الأخرى رصاصتين.

ها قد تمّ الأمر، قلت. أنا جاهز.

نظر لهمان إلى البُندقية وهي تُشحَن بيُسرٍ وهدوء، ثمّ أمسك بها من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يدي وقلّبها على وجوهها وهو يهزّ رأسه.

- أتريد استعمالها، وتسلّمني قربينتك؟ قلت له.

تردّد للحظة، ثمّ قال وهو يُعيدها إليّ:

- لا. قربينتي سلاح قديم، لكنّه سلاح أعرفه. منذ عشر سنوات لم نفترق إلّا لكي ينام كلّ منّا في مكانه. أنا آمنها كما تأمنني هي، وهذه الاختراعات الجديدة كلّها لن تُشوّش على علاقتنا. احتفظْ ببندقيتك، سأحتفظ أنا بقربينتي، ولنسارعْ لاحتلال مكانَينا؛ فمن المفترض أن تكون ظباء الجبل احتلّت أماكنها الآن.

خرجنا على الفور. كانت طلاوة صباحية خفيفة قد بدأت تسِم السّماء بلون مُبيضّ. أسفلنا تمتدّ البركة الصّغيرة التي كانت ما تزال غافية وسط الظّلال، على أحد طرفيها قرية سيراتي، وعلى الآخر قرية ريشيسو. وخلفنا تنتصب قمّة الجبل معلّقةً إليها مثل خصلات شعر بيضاء الأطرافُ السّفلية للجليد. وجدنا الطّريق، بعد عشرين خطوة، مقطوعة بوهدٍ عريض طوله حوالى ربع فرسخ، وقد رُمي فيه بجذع شجرة يمتدّ من ضفّة إلى أخرى. نظرت حولنا، وعندما رأيت أنْ لا ممرّ آخر، وضعت كفّي على ذراع لهمان ففهمَ قصدي تماماً. قال لي بصوت خافت:

- اطمئنّ. هذا طريقي أنا، أمّا طريقك أنت، فهو أسهل. تتبّعْ حافّة هذا الوهد، ففي طرفه ستعثر على صخرة كبيرة، تُطلّ على ربوة مستطيلة من حوالى عشرين خطوة. هذه الربوة شبيهة بجزيرة ومحاطة من كلّ جهاتها بهاويات. ما إن أُطلق الرّصاص حتّى تتّجه الظباء إلى تلك الجهة. ومهما يكن عددها تقفز كلّها من الصّخرة إلى الربوة، ومنها إلى الجهة الأخرى للوهد على مرج أخضر تُشرف عليه تلك الربوة كما تشرف عليها هي نفسها الصّخرة. والآن،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التحق بمكمنك. تجنّبِ الضّجيج وأَقِمْ منتظراً.

- هل يمكنني أن أظلّ هنا للحظة كي أرى كيف ستعبر إلى الضّفة الأخرى دون أن تفقد توازنك؟

- بالتأكيد، لا أسهل من ذلك. انظر.

خلع لهان حذاءيه وعلّق قربينته إلى كتفه، ثمّ تشبّث برجليه الحافيتين بالأماكن الخشنة من شجرة التّنوب، وتقدّم على تلك الطّريق الشديدة الضّيق والمُهتزّة، بتلك الثّقة كلّها التي بإمكاني أن أشعر بها أنا أيضاً عندما أكون سائراً على «جسر الفنون» [بباريس].

كان الأمر، فضلاً عن ذلك، مرعباً للغاية، إلى درجة أنّني شعرت بالدّوار يصعد إلى رأسي، لمجرّد نظري للرّجل. انتصب شعري العرِق على جبهتي والْتوَت عروقي كلّها كما لو كانت تريد أن تنعقد؛ ولعجزي عن البقاء واقفاً أمام مشهد مثل ذاك، اضطُررت للقعود.

في غضون ثوانٍ، أدرك لهان الضّفة الأخرى دون أيّ حادث، وعندما التفتَ نحوي ألفاني جالساً. من اندهاشه علمت أنّه لم يفهم من موقفي شيئاً. وقفتُ فوراً وانتهجتُ الطريق إلى المكان الذي كنت أقصد. بعد عشر ثوانٍ، أدركتُ الصّخرة، وميّزتُ الربوة المطلّة على حفرة الوهد الممتدّ أسفلها. غير أنّني، وأنا أعترف بذلك، لم أفهم شيئاً من القفزة المُزدوجة التي على ظباء الجبل أن تقوم بها؛ الأولى من علوّ ما يقرب من عشرين قدماً، والثّانية من خمس عشرة قدماً إلى ثماني عشرة، عرْضاً.

بعد أن استطلعتُ المكان، استقررتُ في موقعي. وعندما نقّلت بصري نحو المكان الذي كنت غادرت فيه لهان، لمحته وقد جعلَ، بعد أن قام بالتفافة طويلة كي يُساير الريح، يتسلّق خاصرة الجبل، بالأحرى مثل أفعى تزحف أو نمر يتسكّع، وليس كرجلٍ وهبه الله ساقين كي يمشي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بهما وهيكلاً عظميّاً رائعاً لينظر إلى السّماء.

كان يتوقّف فجأةً بين الفينة والأخرى، ويظلّ بلا حراك وكأنّه جذعُ شجرة. عندئذ، وبفعل تثبيت البصر على الشّيء نفسه، اختلطت عليّ كلّ الأشياء؛ فما عدت أميّز الصّياد من الصّخور التي تُحيط به، إلى أن جعلتني حركة جديدة أستطيع تمييز الطّبيعة الحيّة من الطّبيعة الجامدة. بعد ذلك سلك طريقه من جديد بالتّحايل نفسه وبالاحتياطات ذاتها، مستفيداً من كلّ عوارض الأرض التي بإمكانها أن تُعزّز مسيرته بأن تُخفيه عن عينَي الطّريدة المُتحدّية التي يُصرّ هو على اللّحاق بها. أراه أحياناً يختفي خلف أيكة، فأعتقد أنّه توقّف حيث فقده بصري. أُبقي نظري مثبّتاً على المكان الذي أعتقد أنّه فيه، لكنّني أراه فجأةً، على بعد ثلاثين خطوة من هناك أو أربعين، ماشياً ثانيةً على ساقيه أو جاثياً على ركبتيه أو زاحفاً على بطنه، حسبَ ما يسمح له الميدان باتّخاذه من أشكال التّحرّك تلك. رأيته أخيراً يقف خلف صخرة ويرفع رأسه ويُقرّب بندقيّته من كتفه، مُصوّباً للحظة، ثمّ يُعيدها إلى وضعها الأوّل، قاطعاً مسافة جديدة من عشر أقدام، مُدركاً صخرة أخرى، فيضع عليها من جديد ماسورة قربينته، ضامّاً عقبها إلى كتفه للحظة، فيظلّ جامداً مثل الجلمود الذي هو له سند. يجب أن يكون المرء صيّاداً كي يفهم ما اعتراني آنئذٍ؛ كنت ألهث ويهتزّ قلبي بقوّة إلى أن أسمع خفقانه.

أخيراً عبَر الجبلَ برقٌ؛ وبعد ثانيةٍ وصل الصّوت حيث كنت، فمرّ فحلّق فوق رأسي، وذهب مثل رعد يُزمجر في فجاج غلارنيش. أما لهمان فقد ظلّ بعد الطّلقة مُمدّداً مُضطجعاً في المكان نفسه، دون حراك. لم أفهم شيئاً من سكونه حتّى رأيته، فجأةً، يضع طرف قربينته على الصّخرة ويسند عقبها إلى كتفه ثانية، مُصوّباً بالتّركيز نفسه، فانبعث برق جديد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

متبوعاً بِدويّ جديد. وقف هذه المرّة على الفور، مُطلقاً صرخة وهو يأتي بحركة في اتّجاهي ليُنبّهني. وبالفعل، في تلك اللّحظة نفسها عبرَ فوقي ظلٌّ، فسقط ظبيُ جبلٍ على أرض الربوة، وبقفزة سريعة جدّاً لم أكد أراه خلالها، انطلق إلى الجهة الأخرى من الوهد. كنت ما أزال مبهوراً بتلك السّرعة عندما قام ظلّ آخر بتكرار العمليّة نفسها. حملت بندقيّتي بطريقة آليّة إلى كتفي. في اللّحظة ذاتها مرّ ظلّ ثالث. وفي الوقت الذي لمس فيه الربوة، أطلقت عليه الرّصاصة. بدا أنّها جرفتْه بنارها ودخانها. عدوتُ على الفور إلى ضفّة الوهد فلمحت ظبْييَ الجبليّ، المجروحَ بالتّأكيد، عاجزاً عن قطعه، فاستمسَك بحوافره بالشّقوق الصّغيرة للجدار المائل الذي تتشكّل الصّخرة منه. فانتهزتُ تلك اللّحظة، رغم وجازتها، وأرسلت طلقتي الثّانية. ترك على الفور الزّاوية التي كان يتشبّث بها وتدحرج إلى عمق الوهد. رميت بندقيّتي ونزلت صخرةً صخرةً، شجرةً شجرةً، لا أدري كيف، لأنّه لم يكن من مجال، لحظتئذٍ، للدّوار. رأيت الحيوان يتخبّط في تشنّجات احتضاره. خشيت من أن يعود إلى الصّعود ومن أن يجد مخرجاً جوفيّاً وأن يُفلت منّي أخيراً بأيّة وسيلة من الوسائل؛ إلى درجة أنّني، من عدم انشغالي إلّا بالطّريقة التي أنزل بها نحوه، دون التّفكير في وسيلة العودة إلى الصّعود، تركتُني أنزلق من علوّ ثلاثين قدماً على انحدار الصّخرة، فألفيتُني رأساً، دون حادثٍ يُذكر، باستثناء اختفاء أسفل سروالي، قبالة ضحيّتي التي ارتميت عليها بعنف، وأنا أواصل الاعتقاد بأنّ بإمكانها أن تُفلت منّي ما دمت لم أضع عليها يدي بعد. لا مجازفة. كان الحيوان المسكين قد نفقَ.

ربطت قوائمه الأربع مجتمعةً ووضعته حول عنقي وبدأت أستعدّ، فخوراً بغنيمتي، للالتحاق برفيقي. لكن، للأسف، كان الأمر عسيراً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنا في عمق قِمع حقيقيّ، ولم يكن مُنحدر الصّخرة، من أيّ جهة، مُسعفاً كي أستطيع الصّعود عبره دون مساعدة من أحد. طفقت للحظةٍ أذرع حفرتي، تقريباً كما تفعل دببة حديقة النباتات [بباريس]؛ ثمّ، وبعد أن رأيت أنّي لا حظّ لي في إتمام صعودي اعتماداً على نفسي، قرّرت أن أتجاوز خجلي السّيئ وأن أنادي لهمان ليُغيثني. وفي اللّحظة التي فتحت فيها فمي سمعته يُناديني هو نفسه، فأجبته على الفور. بعد لحظة بدا على حافة الربوة بظبْيَي جبلٍ معلّقين إلى صدره مثل قلادة.

ماذا تفعل في الغور بالله؟ قال لي، ولماذا نزلت إلى هناك؟

أجبتُ وأنا أريه ظبْيي:

- كما ترى! لقد نزلت أبحث عن طعامي، غير أنّني لا أستطيع الصّعود، هذا كلّ ما في الأمر.

- آه! آه! هتفَ هو، يبدو أنّنا كلينا أنجزنا مهمّتنا. مرحى! والآن يلزم إخراجك من هناك.

نعم، أجبت، فأنا أعتقد بالفعل أنّ ذلك في هذه اللّحظة هو الأمر الأكثر استعجالاً.

- حسناً، انتظرني.

- أوه! يمكنك أن تطمئنّ فأنا لن أفرّ.

انتهج لهمان الطّريق نفسه الذي كنت سلكته أنا، نازلاً عبر الصّخور بليونة باهرة، إلى درجة أنّه بعد ثوانٍ أضحى على حافّة المنحدر الذي كنت أنا انزلقت منه.

ثمّ قال لي وهو يرمي لي بطرف حبل:

- الآن، هلّا تخلّصت من ظبْيك الذي يُثقل عليك بما يقارب خمسين رطلاً؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- بكلّ سرور.

- اعقلْ إذن قوائمه إلى طرف هذا الحبل، وسيُريك الطّريق.

وبالفعل، عندما انتهت تلك العمليّة استمتعت برؤية صيدي يسحبه لهان ويُدرك الجهة العلويّة، ليس من غير أن يترك مع ذلك بعض وبره، لا بل حتّى بعضاً من لحمه على كلّ الأجزاء الخشنة من الصّخرة، ممّا أغرقني في تفكير جادّ.

- لهان! قلت.

فهتفَ الصّياد وهو يضع يده على ظبْيي:

- ماذا؟

- هل تعتزم أن تقوم معي بالإجراء نفسه الذي قمت به لتوّك مع هذا الحيوان؟

- أوه! لا، أجابني لهان، معك سيتّخَذ إجراء آخر.

- يطول إعداده؟

- خمس دقائق.

- هيّا يا صديقي، هيّا.

ابتعد لهان وشرعتُ أتجوّل في عمق حفرتي مصفِّراً. بعد انقضاء المدّة المحدّدة رفعت رأسي ولم أرَ أحداً، فجلستُ على صخرة يبدو أنّها تدحرجتْ إلى هذا النّوع من الفخاخ، ضاحكاً من ذلك الموقف السّخيف التي كنت فيه. بعد انقضاء عشر دقائق قدّرت أنّني ضحكت بما فيه الكفاية، فعدت للوقوف منادياً لهان. لم يُجبني أحد. ناديت ثانيةً. ران الصّمت نفسه. عندئذ، وأنا أعترف بذلك، ساورني بعض القلق. أنا لا أعرف هذا الرّجل الذي جعلتُه، بذلك القدر كلّه من الثّقة، مرافقي في رحلة الصّيد هذه. أنا تائه في جبل هو وحده يأتي إليه في جولاته الصّباحية،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مدفوناً على عمق خمس وعشرين قدماً، فيما يُشبه وهداً يستحيل عليّ أن أعود إلى قمّته دون مساعدة من أحد. لا أحد يعرف المكان الذي كنت أقبع فيه. قد يكون هذا الرّجل أغوته أسلحتي ونحو خمسين لويسية[1] كنت سلّمتها له ليحفظها. يمكن لهذا الرّجل أن يهبط بهدوء إلى بيته، وأن يشرع من الآن فصاعداً في الذّهاب للصّيد في جهة أخرى. هو لن يقتلني وإنّما سيتركني أموت. هذه الهواجس غبيّة، أنا أعرف ذلك، لكنّ الأفكار تتوارد علينا متناغمةً والوضعيّة التي نكون فيها. ووضعيّتي أنا لا تكفّ عن أن تكون سخيفة، إلّا لكي تغدو رهيبة.

غير أنّني قدّرت أنّ عليّ ألّا أبقى هكذا في حفرتي دون أن أبذل على الأقلّ بعض الجهد كي أخرج منها. بحثت عن موضع تكون أماكنه الخشنة أكثر بروزاً حتّى تسمح لي بإسناد قدميّ وكفّيّ، وطفقت أحاول أن أتسلّق. لكنّني ما لبثت أن اقتنعت بأنّ الأمر مستحيل. استطعت في محاولتين أن أُدرك علوّ ثلاث أقدام أو أربع، لكنّني بوصولي إلى هناك أُعاود النّزول إلى وهدي، مع ما تكوّن تكبّدَته يداي وركبتايَ من أضرار. لم أكن بعد هممت بمحاولة ثالثة عندما سمعت صوتاً يقول لي:

- إن كنت تُريد أن تصعد بهذه الطّريقة، فلتنزعْ على الأقل حذاءيك.

التفتّ. هو لهمان. فكّرت في مقدار السّخف الذي سأكون عليه لو تركته يخمّن المخاوف التي ساورتني، فأجبته بمزاجٍ مُنشرحٍ بأنّني، عندما تأخّر هو، حاولت القيام بذلك في انتظار عودته، لأرى كيف كنت سأتخلّص ممّا أنا فيه لو لم يكن بوسعي أن أعوّل على غوثه.

- ليس الخطأ خطئي، عقّب لهمان. اضطُررت إلى قطع ربع فرسخ للعثور على شجرة تنوب لأرفعك بها. لكنّني حصلت عليها في

(1) اللويسيّة: قطعة ذهبية بقيمة 20 فرنكاً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأخير. سأنزلها إليك وستركب أحد الأغصان فأسحبك إليّ بالحبل، هذا كلّ شيء.

بالفعل، فالوسيلة، كما ترون، بسيطة للغاية؛ عَصَوَان مربوطتان بالعرض لتشكّلا قاعدة تمنع شجرة التّنوب من الدّوران.

ركبت مطيّتي وأمسكت بالغصن بكلتا يديّ كما يفعل فارس عديم المهارة عندما يتشبّث بقربوس السّرج، وعند تلفّظه بكلمة «هيّا!» بدأت أصعد وظهري إلى الخلف بحركة لطيفة ومنتظمة. بعد ثوانٍ توقّفت الحركة فألفيتُني جالساً على العشب. التفتّ فرأيته على بعد خمس عشرة خطوة منّي. كان لهان ما يزال يُمسك بالطّرف الآخر للحبل الذي أعادني بفضله إلى الأعلى.

– حسناً، قال لي، هي ذي طريقة أخرى للسّفر يُحتمل ألّا تكون تعرفها.

– بالطّبع لا، أجبت، وأعترف لك أنّني لا أشعر تُجاهها بميل كبير، على اعتبار أنّني قد لا أعثر دائماً على دليل بمثْل شهامتك وإخلاصك.

تأمّلني لهان للحظة، لكن دون أن يفهم بالطّبع ما رميت إليه. بعد ذلك قال، وهو لا يُريد على الأرجح أن يشغل نفسه بالبحث مطوّلاً عن مغزى تلك الجملة التي بدت له غامضة:

– والآن، قال لي، ألم تكن تشكو دائماً من الدّوار؟

– أعتقد بذلك؛ والحقّ أنّ الدّوار يُحيلني الرّجل الأكثر تعاسة في الدّنيا.

– أتريدني أنّ أشفيك منه؟

– أنت؟

– نعم، أنا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- بالتّأكيد أريد ذلك.

- ناوِلني إذن كوبك الجلديّ.

- هوَ ذا.

انحنى لهمان على أحد الظباء الذي لم يكن نفقَ بعدُ وفتح شريان عنقه فجعله ينزف في الكأس إلى أن امتلأت ثلاثة أرباعها.

- اشرب هذا، قال لي.

- دم! صحت باشمئزاز.

- أجل، دمُ ظبيٍ جبل. أتدري أنّه أنجع علاجٍ يمكنك الحصول عليه؟

- لا، شكراً، قلت. أنا لست مهموماً بذلك. أفضّل الاحتفاظ بدواري. غير أنّني، في هذه اللّحظة، أشعر بالجوع أكثر ممّا بالعطش. وإن طاوعك قلبُك أمكنك الاحتفاظ بالمشروب لك.

فأجابني لهمان ببساطة:

- شكراً! أنا لست بحاجة إليه.

فأفرغ الكأس وأعادها إليّ، ثم قال لي وهو يحمل ظبيه الجبليّ على ظهره:

- ما دمت جائعاً، فلتحمل حيوانك وهيّا بنا نتغدّى. بالمناسبة، ماذا فعلت ببندقيّتك؟

- آه! صحيح، أجبتُ. هي هناك فوقُ، على الربوة.

- لا تحمل همّها، قال لهمان.

فانطلق من صخرة إلى أخرى إلى أن أدركها وعاود الظّهور حاملاً السّلاح الذي عثر عليه في منتصف الطّريق.

فانطلقنا نحو الكوخ. وكما كان وعدني لهمان، رجعت وأنا أحسّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بشهوة بشهيّة عالية، حتّى أنّني، كي أكون ذا جدوى في إنجاز المهمّة، سألتُه إن كان بإمكانه أن يستعين بي في شيء. فأشار عليّ بموقد مُعدّ من حجارة مصفوفة بشكل دائريّ ودعاني إلى إشعال النّار. شعرت في البداية ببعض المهانة من أنّني لم أكلَّف بشيء آخر غير هذا في طهي الوجبة، لكنّني قدّرت أنّ خير شيء هو أن أُنفّذ دون تعقيب؛ فلا أحطّ لكرامة الإنسان من بطن فارغ.

وأثناء انشغالي بالقيام بذلك العمل الدّقيق، فتح لهمان بطن أحد الظباء واستخلص ما يُدعى معلاق الذّبيحة[1]، وهو ما يعني الأجزاء اللّينة التي تكون، في حملات صيدنا لليَحمور في ضواحي باريس، من حقّ حرّاس الغابة الذين يُرافقوننا. بعد خمس دقائق كانت تغلي مُضمّخة بالتّوابل وبالزّبدة والنّبيذ والفلفل والملح، على نار أعددتها أنا وجعلَتْ نجاعتها ترفع من معنويّاتي. أثناء ذلك، أخرج لهمان من الكوخ باقي الزّاد ووضعه على مكان مُعشب نُشرف منه على الوادي.

- والآن، قلت له، اشرح لي قليلاً ما فعلتَ كي تقتل ببندقيّة ذات طلقة واحدة ظبْيين جبليّين اثنين، بينما لم أقتل أنا سوى واحد، مع أنّ بندقيّتي من ذوات الطّلقتين.

- أوه! الأمر بسيط للغاية، أجابني لهمان. عندما تكون ظباء الجبل ترعى في الصّباح، تضع من بينها عسّاساً على بعد خمسين خطوة أو أكثر حتّى يُنبّهها في حال وجود خطر. والحال أنّك تعلم أنّ ما لا يُرعب الظباء إلّا قليلاً هو دوي طلقٍ ناريّ، لأنّها تجمعه بهزيم الرّعد وهدير الانجرافات الثّلجية. أطلقت النّار في البداية على الظبْي العسّاس الذي سقط دون أن يُطلق الإنذار. بعد ذلك، وقد

---

(1) يطلق الاسم على مجموع القلب والطّحال والكبد والرّئتين من أيّ ذبيحة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عبّأت سلاحي من جديد، رميت فيلق الظباء التي كانت رفعت رأسها بعد طلقتي الأولى، دون أن تبدي انزعاجاً؛ وليس إلّا بعد طلقتي الثّانية، وهي ترى أحد رفقائها يسقط بجانبها، انطلقتْ هاربة. عندما رأيتها تتّجه حيث كنت أنت أرسلت لك إشارة لتستعدّ كي تُحسن وفادتها؛ وهو ما قمتَ به. أمّا ما عدا هذا فليس هناك ما يدعو للشّكوى من بداية مثل هذه.

- قل لي إذن، ماذا لو ذهبت لترى إن كان الطّعام جاهزاً، بدلاً من أن تُطري عليّ؟ أنا أعدك بأن أكون أكثر تأثّراً بذلك.

- أنت إذن على هذا القدر من الجوع؟

- إنّني أموت جوعاً.

- كلْ، في انتظار ذلك، قطعة خبز بالجُبنة.

- شكراً، لكنّ نهمي يفوق ذلك.

عندما رأى لهان أنّ في الأمر ما يدعو إلى العجلة، قام وأتى بالطّنجرة، فبدأت إحدى تلك الوجبات التي لا تُنسى، والتي يذكرها المرء كلّما أحسّ بالجوع. وقد كان ذلك الغداء بالنّسبة إليّ مثيلاً لغداء صيّاد النّحل ولِبا-دو-كوير[1] عندما طفقا يأكلان، في تلك الزّاوية من البرّية، سنام الثور الوحشيّ الأمريكيّ الذي تعرفون.

بعد ساعتين من ذلك، عدنا إلى غلاريس، حاملَين ظباءنا الجبليّة الثّلاثة على أكتافنا. وقد جعلني لهان أنتهج ذلك الطّريق بذريعة الاتّفاق مع دليلٍ ليوم الغد، لكنّه فعل ذلك، في الحقيقة، كي يُرضي زهوي بوصفي صيّاداً. وأنا لا أدري في الحقيقة ما إذا كنت أكثر امتناناً له على انتباهه ذاك أم على إخراجه لي من حفرتي.

(1) «صاحب الحذاء الجلديّ»، سبق التّعريف به. انظر «شذى شبابٍ وخريف».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رحلة لصيد الشحرور البروفنساليّ

في مرسيليا تقليد احتفاليّ عتيق، تعود أصوله إلى أزمنة سحيقة، يقوم على الاعتقاد بأنّ حماماً بريّاً يمرّ بها.

والحال أنّ كلّ مرسيليّ لم يحتفظ من الإعفاءات البلديّة، كما هوّ حال سكّان إيغ مورت[1]، إلّا بحقّ حمل بندقيّة، إنّما هو صيّاد.

في شمال فرنسا، موطن النشاط والجِدّ، يعدو القنّاص خلف الطّريدة، آملاً في اللّحاق بها، ولا يعتقد أنّ الجهد الذي يبذله يُفقده شيئاً من التّقدير الذي يُكنّه له مواطنوه.

أما في الجنوب الفرنسيّ، موطن الخمول، فإنّ القنّاص ينتظر الطّريدة. في هذه المنطقة يكون على الطّريدة أن تأتي للعثور عن الإنسان؛ أَفَليس الإنسان هو مَلِك الخليقة؟

من هنا ذلك التّقليد الرّائع لمرور الحمام.

كلّ صيّاد مرسيليّ اشتدّ عوده قليلاً، وأنا ألتمس العذر من قرّائي، لكنّه التّعبير المُكرّس، كلّ صيّاد، أقول، يملك «موقعَ رمْي».

لنعرّف ما معنى «موقع الرّمْي».

هو كوخ ضيّق محفور في الأرض، مموّه بكومة أوراق ذابلة وأغصان مقطوعة. ومن جهتَي ذلك الكوخ تقوم شجرتا صنوبر أو ثلاث،

(1) إيغ مورت Aigues-Mortes بلدة فرنسيّة تقع في محافظة غار Gard في منطقة لانغدوك–روسيون Languedoc-Roussillon.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تَعرِض، في قمّتها، عوارضُ طويلةٌ هيكلَها المجرّد من الأوراق؛ توضع، بعامّة، اثنتان منها بشكل أفقيّ، بينما تُعرض الثّالثة عمودياً. وتُدعى تلك العوارض في مجموعها «شجرة الصّيد».

صباح كلّ أحد يأتي الصّياد المرسيليّ ليستقرّ قبل مطلع النّهار في جُحره، فيرتّب أغصان الشّجرة بطريقة يبقى رأسه فيها وحده فوق الأرض. وعادةً ما يكون الرّأس معتمراً قبّعة لونها أخضرُ ذابلٌ، يتناغم بشكل كامل مع لون الأغصان الذّاوية؛ فيغدو الصّياد المرسيليّ، نتيجة لذلك، خفيّاً عن العيون جميعها، خلا عين الله.

إذا كان الصّياد مُترفاً يكون له في عمق حفرته كرسي يجلس عليه، أمّا إذا كان صيّاداً ريفيّاً بسيطاً، صيّاداً عنيداً، فإنّه يكتفي بالجثوّ على ركبتيه.

هو صبور لأنّه خالد *patiens quia oeternus*[1].

يمكث الصّياد المرسيليّ إذن منتظراً وصابراً.

لكن، ستقولون لي، ماذا ينتظر؟

في الأوقات الاعتياديّة، ينتظر الصّياد المرسيليّ طائر السمنة والشحرور والأُرطلان وعصفور التّين وأبا الحنّاء، أو أيّ نوع آخر من الطّيور؛ فطموحه لم يرتفع أبداً ليشمل طائر السماني. أمّا الحجلة فهي عنده فينيق؛ إذْ يعتقد، لأنّه سمع بذلك، أنّ هناك حجلة واحدة في الدّنيا برمّتها تُبعث من رمادها، وتُرى بين الفينة والأخرى، قبل الكوارث العظمى أو بعدها، لتُعلِن عن غضب الله أو رحمته. ذاك كلّ شيء؛ فنحن لن نتحدّث عن الأرنب البريّة لأنّ الاعتقاد يشيع في مرسيليا بأنّ الأرنب حيوان عجيب من نوع وحيد القرن.

لكن لمّا لم يكن لطيور السمنة والشحرور والأرطلان وعصفور

(1) وضعها باللاتينيّة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التّين وأبي الحنّاء أيّ باعث كي تأتي لتحطّ من تلقاء نفسها على شجرات الصّنوبر حيث يتمّ انتظارها، يعمل الصّياد المرسيليّ، بعامّة، على جعل صبيّ يمشي في أثره حاملاً عدّة أقفاص مسجون في كلّ واحد منها طيرٌ من الأنواع التي ذكرناها. وتكون تلك الطيور التي تُبتاع بسذاجة من الميناء، مُختلفة عن بعضها البعض في جنسها، فالذّكور منذورة للمناداة على الإناث والإناث لمناداة الذّكور.

تُعلّق الأقفاص إلى الأغصان الدّانية من أشجار الصّنوبر، فتنادي الطيور الأسيرة الطيور الحرّة. عندئذ تأتي الطّيور الشّقية، مخدوعة بنداء شبيهاتها، لتحطّ على العارضتين الأفقيّتين. وعلينا أن نقول، مع ذلك، إنّ هذا نادراً ما يحدث.

ثمّةَ ينتظرها الصّياد؛ فإن كان ماهراً أسقطها وإن كان عديم المهارة أخطأها.

الصّياد المرسيليّ، بعامّة، عديم المهارة؛ ذلك أنّ المهارة إنْ هي إلّا قضيّة عادة.

كان ميري قد حسب المسألة بهذه الطّريقة:

يأتي الصّياد المرسيليّ إلى موقع صيده كلّ ثمانية أيّام.

وكلّ يوم من ثمانية أيّام يأتي طائر ليجثُم على شجرة الصّيد.

ومن ثمانية طيور يُقتل واحد.

فيستَنتِج من ذلك أنّ الطائر الواحد، إن نحن أضفنا ثمن ميدان الصّيد وثمن البندقيّة وثمن الطّائر وكلفة صيانة الموقع، يكلّف خمسة فرنكات أو ستّة.

لكن ينبغي أن نلاحظ أنّه عندما يقنص صيّاد مرسيليّ، يوماً، طائراً،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يغدو عظيماً في نظر أسرته، كما حَسِبَ نُمرود نفسه عظيماً أمام الله[1].

وفي الزّمن الاستثنائيّ، أيْ أثناء مرور الحمام البريّ، يأتي الصّياد المرسيليّ، ببساطة، إلى موقع صيده، بحمامة عائدة إليه، فيربطها بحبل إلى العارضة العمودية، ممّا يجعلها تبقى في حال طيران مستمرّ، ما دامت قمّة العارضة تنتهي بحربة، وما دام الحبل الذي رُبطت إليه أقصر من أن يمكّن تلك الأسيرة الشّقيّة من أن تحطّ على العارضتين الأفقيّتين. يُستعمل هذا الطّيران المستمرّ، مثل المغناطيس، ليجلب إليه طيران الحمام البريّ، كثيرِ العدد أو قليله، والذي من المفروض أن يمرّ متوجّهاً من أفريقيا إلى كامتشاتكا[2].

فإن مرّ حمام، كان من المحتمل أن يسقط في حبائل تلك الخدعة؛ لكنّ ما تحمله ذاكرة الإنسان الفوسيّ[3] هو أن الصّياد المرسيليّ يعترف بسذاجة أنّه لم يرَ حمامة واحدة تمرّ.

غير أنّ اعترافه ذاك لا يمنعه من تأكيد أنّ حماماً يمرّ.

وعند نهاية أربعةِ آحادٍ، تموت حمامة الصيّاد من الإجهاد.

والحال أنّه ما دام مرور الحمام البريّ يستمرّ ثلاثة أشهر، أي من فاتح تشرين الأوّل إلى غاية شهر كانون الأوّل، فإنّ هاوي هذا النّوع من الصّيد

---

(1) يُشار هنا إلى ما قام به نُمرود بن كنعان، الملك المذكور في العهد القديم، عندما راودته فكرة تشييد برج بابل ليصل بعلوّه إلى عنان السّماء، حتّى لا تُدركه أمواج الطّوفان كما كانت أدركت غيره في زمن نوح. كان قد اشتهر بولعه بالصيد وبراعته البطولية فيه، فلُقِّب بالملك الصيّاد. وحتّى قبل فكرة تشييد البُرج، عُرف بصلفه واعتداده بمواهبه في الصيد وبقوّته وتمرّده (نُمرود من الجذر «مرد» في الساميّة القديمة) (المُراجع).

(2) كامتشاتكا، شبه جزيرة بركانية تقع أقصى شرق روسيا، يتقدّم جزء منها داخل المحيط الهادئ.

(3) أي ساكن مرسيليا، التي تُدعى «المدينة الفوسيّة» لأنّ تأسيسها تمّ على أيدي بحّارة إغريق من مدينة فوسيه (فوكايا) اليونانيّة (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يتكبّد ثمن ثلاث حمامات أخريات.

وصحيح أيضاً أن نقول إنّ الصّياد، أثناء تلك المدّة، لا يصطاد ولو طائراً واحداً آخر، لأن الحمامة التي جاء بها تصيب الطّيور بفزع شديد.

يبقى الصّياد المرسيليّ على ذلك الوضع، في كوخه، لستّ ساعات أو ثمانٍ؛ أي من الرّابعة صباحاً إلى منتصف النّهار. وثمّة بينهم من يحملون معهم غداءهم وعشاءهم، فلا يعودون إلى منازلهم إلّا مساءً، تحديداً كي يلعبوا اليانصيب. وبذلك يُنهِي اليانصيب بشكل رائع يوماً ابتدأ بالصّيد في الموقع.

طلبتُ من ميري ما إذا كان بإمكانه أن يُعرّفني بأحد أولئك الصّيادين، إذ بدا لي مثيراً للفضول، بشكل خاصّ، أن أُعاين أحدهم، فهم يشكّلون فئة من البشر مميّزة. فوعدني ميري بأن يعمل على اغتنام أوّل فرصة تسنح له.

هذه الشّروح كلّها قُدّمت لي أثناء صعودي جبلَ نوتْر-دام دو لا غارد. فمن قمّته نكتشف مرسيليا وضواحيها، على مساحة فرسخ مربّع. من هناك عددتُ ما يُقارب مائة وخمسين موقعَ رمْي.

خلال السّاعة التي استغرقتها في صعود نوتر-دام دو لا غارد، وثلاثة أرباع السّاعة في نزولها وخمسة الأرباع التي مكثتها فيها، ممّا يجعل المجموع ثلاث ساعات، لم أسمع إلّا طلقتَي بندقيّة، ممّا يؤكّد فعلاً حساب ميري.

فلم يُلهِني شيء عن استكشافاتي الدّينية والأثرية.

إنّ البناء الذي في نوتر-دام دو لا غارد هو، في الأوان نفسه، حصن وكنيسة.

يسود أوساطَ المهندسين احتقارٌ كبير تُجاه الحصن.

وتتمتّع الكنيسة بتبجيل كبير من قبل البحّارة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عن ذلك الحصن قال شابيل وباشامون[1]:

«حكومة مناسبة ولطيفة
يكفيها حارسٌ سويسريٌّ
بسلاحه القديم
مرسوماً على باب القصر»

ممّا يُدلّل على أنّ حصن نوتر-دام دو لا غارد، في الأزمنة جميعها، حافظ تقريباً على نفسه بنفسه، إلّا أن تكون هذه الرّباعية اللّاذعة قد نُظِمت ضدّ الحاكم أكثر ممّا ضدّ القصر، مع أخذنا بعين الاعتبار أنّ الحاكم حينئذ كان هو السيّد دو سكوديري، شقيق ربّة الفنّ العاشرة[2]؛ ذلك أنّ فرنسا، كما لاحظ بذكاءٍ هذا الدّليل المرسيليّ الذي أُبلِّغ عنه هنا زملاءه بوصفه أكثر ألمعيّة بمفرده ممّا هم عليه جميعهم، أقول ذلك أنّ فرنسا كان لها دائماً ربّة فنّ عاشرة.

ينتج عن سوء السّمعة هذا الذي سقط فيه الحصن، وعن ذلك التّبجيل الذي ظلّت الكنيسة تنعم به، أنّه ما عاد ثمّة اليوم من أعمال فنّية متقدّمة سوى تماثيل العذراء، ومن مرتادين للمكان سوى التائبين. وصحيح أيضاً، إن نحن أخذنا بعين الاعتبار كمّية النذور المعلّقة إلى المعبد، أنّه ما عاد من وجود إلّا لعدد قليل من العذارى اللّائي لهنّ إعجاز نوت-دام

(1) لويس بُتي دو باشومون Louis Petit de Bachaumont (1690–1771) وجان دو لا شابيل Jean de La Chapelle (1651–1723) أديبان فرنسيّان.

(2) يُلمّح دوما هنا، على سبيل السّخرية، إلى مادلين دو سكوديري Madeleine de Scudéry (1607–1701) الأديبة الشّهيرة، أخت حاكم نوتر-دام دو لا غارد جورج دو سكوديري Georges de Scudéry، الذي كان بدوره كاتباً مسرحياً شهيراً (1598–1667).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دو لا غارد. هذا فضلاً عن أنّ جميع البحّارة الجنوبيّين إليها يلتجئون أثناء العاصفة؛ وعندما يعود الجوّ إلى اعتداله، وبقدر ما كانت العاصفة أشدّ عنفاً أو أقلّ، وبحسب شدّة الخوف الذي شعر به البحّار أو ضعفه، يأتيها هذا الأخير حاجّاً، حافي القدمين أو ماشياً على ركبتيه، حاملاً النذر الذي كان نذَره لها؛ فما من نَذرٍ نُذِر إلاّ وجيء به بانتظام. وقد لا يوجد مثال واحد لبحّار لم يلتزم بنذره، مهما يكن فقيراً. ربّما كان الشّيء الوحيد الذي يُجيزه لنفسه، عندما لا يكون حَدّد بدقّةٍ طبيعة المادّة، هو أن يُقدّم القصدير عوض الفضّة والنّحاس بدلاً من الذّهب.

ويُعلن راصِدٌ، بأعلى الحصن، عن السّفن كلّها التي تصل إلى مرسيليا.

من أعلى جبل نوتر–دام دو لا غارد، نكتشف، كما أسلفت، مرسيليا وضواحيها. ومن ثمّ نرى تلك الآلاف من المنازل الرّيفية التي تشكّل مدينة متناثرة حول المدينة المتكاثفة.

ذلك أنّ كلّ مرسيليّ يملك منزلاً ريفيّاً. وكثيرون هم أولئك الذين لا يملكون منزلاً في المدينة، لكنّ لهم منزلاً في الحقول. والحال أنّه ما دام كلٌّ منهم يمارس رياضة الجرْي فإنّه يختار لمنزله الريفيّ أن يكون قريباً من باب المدينة الذي يخرج منه؛ فنتج عن ذلك بروز ضرورةِ تكاثفِ تلك المنازل الريفيّة قليلاً، حتّى تكون في متناول مالكيها؛ وذلك ما حصل بالفعل. لا شيء أقلّ تكلفة من منزل ريفيّ؛ فهو لا يتطلّب لا فناءً ولا حديقة. وهناك منازل قرويّة تحظى أربعة منها بشجرة واحدة؛ ولا تُعدّ مع ذلك الأكثر بؤساً.

نزلنا من نوتر–دام دو لا غارد إلى ميناء الكتلانيّين[1]، الذي يُعدّ أحد

(1) يطلق اسم الكتلانيّين على حيّ على شاطئ البحر في مرسيليا. وتعود هذه الصّفة إلى القرن السّابع عشر، عندما أقبلت مجموعة من الصّيادين الكتلانيّين (من إسبانيا) فاستقرّت هناك. ومع مرور الوقت أصبحت الصّفة اسماً للحيّ كلّه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأشياء المثير للانتباه في مرسيليا.

أقبلَتْ ذات يوم مجموعة غريبة من الصّيادين لتستقرّ على قطعة أرض غير مأهولة حول خليج صغير؛ فطلبت من بلديّة مرسيليا أن تسمح لها بأن تجعل من ذلك الخليج ميناءً لها، ومن تلك القطعة الأرضيّة التي تلج مقدّمتُها البحرَ مدينتها؛ فوافقت البلديّة على طلب بوهيميّي البحر أولئك.

هم موجودون هناك منذ ذلك الزّمن، قاطنين منازل غريبة في بنائها ومتحدّثين بلغة غير معروفة ومتزوّجين فيما بينهم وساحبين كلّ مساء مراكبهم الصّغيرة على الرّمل مثل بحّارة من زمن فيرجيل.

غير أنّ تلك المجموعة الصّغيرة، ومنذ قرن أو قرنين، بدأ عددها يقلّ كلّ سنة. وبعد نصف قرن، قد لا يعود لهم من وجود، كما لا يعود وجود لكلّ شيء غريب أو مثير للعجب؛ فحضارتنا السّعيدة تكره كلّ ما ليس في مستواها، سواء أكان أعلى منها أو أدنى.

الحضارة هي التي قتلت الكتلانيّين البؤساء.

افترقنا، متواعدَين على التّلاقي مساءً بالمسرح. وبعد المسرح كان يتعيّن أن نذهب لتناول العشاء عند سيبيّو. غادرني ميري ليوصي بالعشاء وليبحث لي عن صيّادٍ موقع.

وصلتُ إلى المسرح في الوقت المحدّد، فوجدت جادان وميري ينتظرانني مصحوبين بثلاثة مدعوّين أو أربعة آخرين. كانت أوّل كلمة وجّهتها لميري، هي ما إذا كان عثر لي على الصّياد الموعود.

- أجل، أجل، أجابني، وهو أحد المشاهير.

- أمتأكّد أنت من أنّه لن يفرّ منّا؟

- أوه، لن يقوى على ذلك. وقد أخبرته أنّك سبق أن اصطدت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اللّيوث في الجزائر والنّمرة في البامباس[1].

- أين هو؟

- انظر، هناك، أترى الجوقة؟

- عازف الكونترباس[2] الثّالث؟

- لا، الرّابع، هناك، انظر، هناك.

- أرى جيّداً.

- هو ذاك إذن.

- هذا مدهش!

- لا تبدو عليه هيئة صيّاد، أليس كذلك؟

- نعم.

- إذن، ستأتيني لاحقاً بأخباره.

عدت لمتابعة العرض، وقد طمأنني وعدُه.

ليس مسرح مرسيليا أحسن ولا أسوأ من باقي المسارح. تُمثّل فيه الملهاة أحسن بقليل ممّا تُمثّل في مدينة تور، والأوبرا أسوأ بقليل ممّا في مدينة ليون، والميلودراما كما تُعرَض في مسرح الـ «فولي-دراماتيك» تقريباً، والمسرحية الهزليّة كما تُمثّل في المسارح كلّها.

حصل في تلك الأمسية أن كانت القاعة غاصّة بالجمهور؛ ذلك أنّ فرقة إيطالية صغيرة كانت توجد في مدينة نيس، فمرّت ذات صباح بالـ «فار» وأتت لتُنشد مؤلّفات روسيني الأوبراليّة في مرسيليا حيث حقّقت نجاحاً باهراً. ولأنّ المرسيليّين يتكلّمون اللّغة البروفنساليّة، خُيِّلَ لهم أنّهم يُحبّون الموسيقى الإيطالية.

---

(1) هي منطقة شاسعة في سلسلة جبال كوردوبا (قرطبة) في الأرجنتين.

(2) هو الكمان الأجهر، أضخم الآلات الوتريّة وأعلاها نغماً (المراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وبما أنّني لست من المُحبّين المتيّمين بالموسيقى، ولمّا لم تكن خشيتي من أن أفقد بعض النّوتات الموسيقيّة بذلك القدر من القوّة حتّى تَصرفني عن استكشافاتي الأزليّة، رفعت عينيّ فوق الثّريا باحثاً عن ذلك السّقف الشّهير الذي زخرفه رياتو[1]، والذي عنه سمعت كلاماً كثيراً. رغم عتق الموضوع -إذْ يُمثّل أبولو[2] وربّات الفنّ يُلقون بالورود على إله الزّمن- فهو يستحقّ بالفعل السّمعة التي اكتسبها، وهو أحد الأماكن التي يجب مشاهدتها في مرسيليا.

غير أنّني لن أنصح أصدقائي بالذّهاب لرؤيته أيّام تقديم الأوبرا.

عندما انتهى تقديم «سميراميد»[3] -وكم كان أداؤهم لها متقَناً!- ألقى ميري بإشارة متفاهَم عليها إلى صاحب آلة الكونتروباس الرّابعة الذي أجابه بإشارة مثلها؛ أرادت إشارة ميري أن تقول: «سننتظرك عند سيبيّو» ؛ وعنَت إشارة العازف الرّابع: سأحمل آلتي إلى البيت وألتحق بكم في غضون خمس دقائق. ما كان بإمكان أخرس وأبكم أن يقولا كلاماً أكثر في وقت أقلّ.

وبالفعل، فما إن وصلنا عند سيبيّو حتّى وصل صيّادنا. قدّمَنا ميري لبعضنا بعضاً وجلسنا إلى المائدة.

خلال زمن العشاء كلّه جعلنا نجسّ بعضنا البعض كي نتعارف. طرقَ كلّ منّا قضايا كثيرة؛ وحده السيّد لُوَيه لم يحكِ شيئاً. يزعمون أنْ لا شيء يجلب الشّهية مثل جعل يد تمتدّ في وضع أفقيّ والأخرى في وضع

---

(1) جاك رياتو Jacques Réattu رسّام فرنسي (1760–1833)، حاصل على جائزة روما الكبرى.

(2) Apollon أبولو، إله الإغريق للغناء والموسيقى والشّعر.

(3) «سميراميد» *Semiramide* أوبرا لروسيني Rossine، قُدّمت لأوّل مرّة في البندقيّة في إيطاليا سنة 1823، وهي مستوحاة من مسرحية فولتير «سميراميس» *Sémiramis*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عموديّ؛ لكنّه كان يُنصت لكلّ شيء ولا يفوته احتكاك أسنان واحد أو كلمة واحدة؛ مُقتصراً على الموافقة بحركة من رأسه على الأمور الجيّدة التي قمنا بها، مُرفقاً ذلك بنوع من همهمةٍ أنفيّة عندما تبدو له الحكاية مثيرة. شكونا بأعيننا لميري هذا الصّمت، لكنّ ميري أشار علينا بأن نترك للشّهيّة فرصتها حتّى تُشبَع، وأنّ لكلّ شيء وقته، وأنّنا لن نخسر شيئاً إن نحن انتظرنا. وبالفعل، في لحظة تقديم الفاكهة، أصدر السيّد لويه نوعاً من التّعجّب أراد أن يقول به على وجه التّقريب: أوه، لقد تعشّيت جيّداً! عندئذٍ رأى ميري أنّ الوقت حانَ فطلب كأساً من شراب البونش وسيجاراً. على مدى مائتَي فرسخ من باريس، كان شراب البونش ما يزال يصاحب لزوماً فاكهةَ عشاءِ العزّاب.

تمطّى السيّد لويه على كرسيّه وشرع يتفرّسنا تباعاً كما لو كان يرانا لأوّل مرّة، مرفقاً عملية المراقبة تلك ببسمة سائغة؛ ثمّ قال مع تنهيدة الشبع اللّطيفة التي يُصدرها عادةً مُتذوّقٌ للطّعام:

- آه! تعشّيت جيّداً!

- سيجار، يا سيّد لويه! قال ميري. هو رائع للهضم.

- شكراً أيّها الشّاعر الألمعيّ، أجاب السيّد لويه. أنا لا أدخّن أبداً. أتناول فقط كأساً من شراب البونش، بعد استئذان هؤلاء السّادة.

- كيف تقول ذلك يا سيّد لوي! لكنّه لم يُطلَب إلّا من أجلك.

- أنتم أشرافٌ، أيّها السّادة.

- ما دمت لا تدخّن، يا سّيد لوَيه...

- لا. أنا لا أدخّن أبداً. ففي زمني لم يكونوا شرعوا بالتدخين بعد، يا سادة. القوقازيون هم الذين أتوكم بهذا مع الجزمات. أمّا أنا فلم أترك أبداً حذائي، وبقيت دائماً مُخلصاً لعلبة نشوقي. هيه! هيه! أنا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وطنيّ، أنا!

قال السيّد لويه ذلك واستخلص من جيبه علبة نشوق صغيرة، مدّها نحونا. رفضنا جميعاً عدا ميري الذي أراد مُداهنة السيّد لويه، آخذاً إيّاه من نقطة ضعفه.

- نُشوقك ممتاز، يا سيّد لويه. من غير الممكن أن يكون نشوقاً مصنَّعاً.

- أوه، يا إلهي! بلى، سيّدي. غير أنّني أُعدّه بطريقتي؛ وهو سرّ أطلعني عليه أحد الكاردينالات أثناء وجودي في روما.

- آه! سبق لك أن كنت بروما؟ سألتُ السيّد لويه.

- أجل، سيّدي، بقيت هناك ما يُقارب تسع عشرة سنة أو عشرين.

فقال ميري آخذاً الكلام من جديد:

- يا سّيد لويه، ما دُمتَ لا تُدخّن، فقد تحكي لهؤلاء السّادة رحلتك لصيد الشّحرور البروفنساليّ[1].

- ما هو الشّحرور البروفنساليّ؟ سألتُ.

- شحرور! قال ميري، أنت لا تعرف الشّحرور البروفنساليّ! عجباً، يا سّيد لويه، هو لا يعرف ما هو الشّحرور البروفنساليّ، ويتباهى بأنّه قنّاص. الشّحرور البروفنساليّ، يا صديقي، واحد من طيور الفأل. إنّه «الطائر النادر» الذي أكثر من ذِكره المسرحيّ الساخر اللّاتينيّ[2].

---

(1) الشحرور الذي تقوم هذه القصّة على البحث المستديم والشائق عنه هو شحرور نادر يسمّى le chastre، ويتّصف بكونه مطوّقاً، وغالباً ما يُدعى لتمييزه عن الشحارير الأخرى بالشحرور البروفنساليّ. وسيُدعى في ما يلي «الشحرور» وكفى (المُراجع).

(2) إشارة إلى تعبير «طائر نادر على الأرض» (rara avis in terris)، وهو من التعابير الأثيرة لدى المؤلّف المسرحيّ اللاتينيّ الساخر جوفينال Juvénal (اسمه باللاتينية ديسيموس لونيوس يوفيناليس Decimus Iunius Iuvenalis)، الذي لمع نجمه في أواخر القرن الميلاديّ الأوّل وبدايات القرن الثاني (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- هو ضرب من الطّيور، واصل السيّد لويه، لكنّه ممتاز مشويّاً.
- إحكِ له إذن، يا سّيد لويه، رحلتك لصيد هذا الشّحرور.
- أنا لا أطلب أكثر من إمتاع الجماعة، قال السيّد لويه بلطف.
- استمعوا يا سادة، استمعوا، قال ميري. ستُنصتون إلى إحدى حكايات رحلات الصّيد الأكثر خرقاً للعادة، منذ عهد نمرود وإلى يومنا هذا. سبق لي أن استمعت إليها حوالى عشرين مرّة، أنا، وأُعاود الإنصات إليها دائماً بمتعة جديدة. كأساً أخرى من شراب البونش، يا سّيد لوي! ممتاز! هيّا يا سّيد لويه، كلّنا آذانٌ صاغية.
- هل تعرفون أيّها السّادة، قال السيّد لويه، أن كلّ مرسيليّ يولد صيّاداً؟
- أوه، يا إلهي! نعم، قال ميري مقاطعاً وهو ينفث دخان سيجاره. هي ظاهرة فيزيولوجيّة لم أستطع يوماً أن أجد لها تفسيراً. لكنّ ذلك لا يقلّل في شيء من أنّ الأمر كذلك. فتصاميم الرّب لا تُكتَنه.
- لحسن الحظّ أو لسوئه، واصل السّيد لويه، ليس لنا على أرض مرسيليا ليوث ولا نُمور، لأنّ من المفروغ منه أنّ وجودها يدخل ضمن الكوارث الإنسانيّة. غير أنّ لنا مرُورَ الحمام.
- ماذا! عقّب ميري. ألم أقل لكم ذلك يا عزيزي... إنّ الحمام ليَمرّ بمرسيليا.

واصل السيّد لويه، الذي بدا كالملسوع:

- بالتّأكيد، بالتّأكيد! مهما قلتم عن ذلك، فمرور الحمام أمرٌ قائم. وفضلاً عن ذلك، أفَلم تُعرني، ذات يوم، كتاباً للسّيد كوبر، عنوانه «الرّواد»، حيث نجد تأكيداً لهذا المرور؟
- أه! أجل. حديث عن مرورها بأمريكا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- إذن، إذا كانت تمرّ بأمريكا، فلماذا لا تمرّ بمرسيليا؟ فالسّفن التي تتوجّه من الإسكندرية والقسطنطسنية إلى أمريكا، تمرّ بمرسيليا، أليس كذلك؟

فأجاب ميري وقد بَدا مُفحَماً:

- هذا صحيح. لم يعد لي من شيء أقوله. كيف لم أفكّر في ذلك؟ هات كفّك يا سيّد لويه، لن أعود أبداً إلى معارضتك في هذا الموضوع.

- الحديث حرّ، سيّدي.

- صحيح، لكنّني سألتزم الصّمت. واصِل، سيّد لويه.

- كنت أقول إذن، يا سيّد، إنّنا إن لم يكن لنا ليوث ونمور، فلنا مرورُ الحمام...

وتوقّف السيّد لويه ليرى إن كان ميري سيُعارضه.

أبدى ميري موافقته بإيماءة من رأسه وقال:

- صحيح، لهم مرورُ الحمام.

أبدى السيّد لويه ارتياحه لهذا الاعتراف وواصل:

- أنتم تعرفون أنّ الصّياد لا يترك فترة مثل تلك تمرّ دون أن يذهب كلّ صباح إلى موقعه. أقول كلّ صباح، لأنّني ما دمت لا أكون مشغولاً بالمسرح إلّا مساءً، فإن أصباحي تبقى حرّة لحسن الحظّ. والحال أنّ ذلك حصل سنة 1810 أو 1811، عندما كنت في الخامسة والثّلاثين، أيّها السّادة، ما يعني أنّني كنت أكثر رشاقة قليلاً ممّا أنا عليه اليوم، رغم أنّني، والحمد لله، كما ترون أيّها السّادة، بصحّة جيّدة.

فمنا نحن بإيماءة موافقة.

- كنتُ إذن ذات صباح في موقعي، استأنف هو القول، قبل أن يطلع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

النّهار، مثل العادة. ربطت إلى شجرة الصّيد حمامتي الخاصّة التي شرعت تتخبّط مثل جنّي، فبدا لي أنّني أرى في ضوء النّجوم شيئاً يحطّ على شجرة الصّنوبر. لكن، للأسف، لم يكن النّهار قد بزغ بما يكفي حتّى أستطيع تمييز ما إذا كان ذلك خُفّاشاً أو طائراً. فلبثتُ ساكناً، وقام الحيوان بالمثل، فانتظرت، مُستعدّاً لأيّ حركة، شروق الشّمس.

ومع أولى خيوط أشعّتها عرفت أنّه طائر.

فأخرجت بهدوء ماسورة بندقيّتي من الكوخ وضغطت عقبها إلى كتفي. وعندما ضبطته هنا... ضغطت إصبعي على الزّناد.

لم أكن انتبهت أيّها السّادة، فأنا لم أفرغ قبلذاك بندقيّتي التي كنتُ عبّأتها بالأمس، فتأخّرت عن الإطلاق.

لا يهمّ؛ فقد قدّرت من الطّريقة التي ابتعد بها الطائر أنّه يتحمّل الإصابة. تبعته ببصري إلى أن نزل في مهبط للطّيور. بعد ذلك نظرت في اتّجاه موقعي. شيء مُدهش أيّها السّادة؛ كنت قطعت حبل حمامتي، فانصرفتْ. عندئذ فهمت أنّني خلال ذلك اليوم، وما دُمت ما عدتُ أملك طائراً يُنادي على أمثاله، إنّما سأضيع وقتي في الموقع. قرّرت إذن أن أطارد شحروري، لأنّني نسيت أن أقول لكم، أيّها السّادة، إنّ ذلك الطّائر كان شحروراً.

لكنّني للأسف، لم يكن بصحبتي كلبُ صيد؛ فأثناء الصّيد في الموقع، لا يغدو الكلب عديم الجدوى فحسب، ولكنّه يُصبح أيضاً كائناً لا يُطاق. ولذا لم يكن بإمكاني أن أعوّل على أن يقوم كلبٌ بالعثور على الطّريدة والإتيان بها. كان عليّ أن أقتحم الأدغال بنفسي. عدا الشّحرور على قدميه. عدا خلفي في الوقت الذي كنت أعتقد فيه أنّه كان يعدو

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أمامي. التفتّ بفعل صوت جناحيه، ورميته بطلقتي أثناء تحليقه. وهي طلقة ضائعة كما يمكنكم أن تفهموا. غير أنّني رأيت ريشاً يُحلّق.

- رأيتَ ريشاً يُحلّق؟ سأل ميري.

- أجل، سيّدي، وقد عثرت حتّى على واحدة وضعتها في عروة سترتي.

- إذن، إن كنت رأيت ريشاً يُحلّق، واصل ميري، فمعنى ذلك أنّ الشّحرور أُصيب.

- كان ذلك رأيي أنا أيضاً. لم أتركه يغيب عن بصري، وانطلقت في مُطاردته. لكنّكم تفهمون، فالحيوان كان يمشي على قدميه فذهب خارج مدايَ. مع ذلك رميته بطلقتي. خردقة! ومن يدري؟ نحن لا نعلم إلى أين تذهب خردقة!

- إنّ خردقة لا تكفي لقتل شُحرور، قال ميري مُحرّكاً رأسه، لا أصعب من سلب شُحرورٍ حياتَه.

- تلك حقيقة، سيّدي، عقّب لويه، لأنّ شحزوري كان مُصاباً سلفاً بطلقتيّ الأوليَين، أنا متأكّد من ذلك، غير أنّه طار للمرّة الثّالثة، لمسافة تُقارب كيلومتراً. لكن سيّان؛ فمنذ اللّحظة التي حطّ فيها، كنت أقسمت على اللّحاق به. انطلقت في مُطاردته.

- يا له من نذل!

- هو كان على علم بمن يواجه، هيّا! شرع ينطلق أبعدَ بخمسين خطوة، بستّين خطوة؛ لا يهمّ، سيّدي، كنت أطلق النّار دائماً. كنت مثل نمر. ولو كنت قبضت عليه لافترسته حيّاً. بسبب من ذلك، شعرت بجوع شديد. لحسن الحظّ كنت حملت معي غدائي وعشائي في جراب صيدي، لأنّني كنت أعتزم البقاء في الموقع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

النّهار كلّه... فجعلت آكل وأنا أعدو.

فقال ميري مُقاطعاً السيّد لويه:

- عفواً! ملاحظة محلّية بسيطة: هو ذا، يا عزيزي دُومَا، الفرق بين صيّاد الشّمال وصيّاد الجنوب كما يُفهم من كلام السيّد لويه نفسه، وكما أمكنكم أن تتبيّنوا أنتم أنفسكم؛ إنّ صيّاد الشّمال يحمل جرابه فارغاً ويعود به ممتلئاً، أمّا صيّاد الجنوب فيحمل جرابه مملوءاً، ويعود به فارغاً. والآن واصل حكايتك، يا عزيزي سيّد لويه، هذا ما أردتُ قوله!

جعل ميري يضغط بشفتيه بحنانٍ على طرف سيجاره.

فسألَنا السيّد لويه، الذي قطعت مُداخلة ميري عليه تسلسل أفكاره:

- ماذا كنت أقول؟

- كنت تقطع السّهول والجبال لملاحقة شحرورك.

- تلك هي الحقيقة، سيّدي. ما كان يجري في عروقي ليس دماً وإنّما حامض كبريتيّ. فنحن، أصحابَ الرّؤوسِ النّاريّة، يُحيلنا الغضب شرسين، وكنت أنا في أقصى درجات الغضب. لكن الشّحرور اللّعين، سيّدي، كان مسحوراً؛ كما لو أنّه عصفور قمر الزّمان[1]. تركت على يميني بلدتَي كاسيس وسيوتات، وولجت السّهل الواسع الذي يمتدّ من «ليني» إلى «سان سير». قضيت خمس عشرة ساعة في المشي دون توقّف، تارةً إلى اليمين وطوراً إلى اليسار؛ ذلك أنّني لو كنت أمشي في خطّ مستقيم، لتجاوزت تولون. شرعت ساقاي تدخلان في بطني. أما الشّحرور اللّعين، فلم يعد للظّهور.

(1) قمر الزّمان شخصيّة من شخصيّات «ألف ليلة وليلة»، معروف بحكايته مع الحسناء بدر البدور. أمّا العصفور المُشار إليه هنا، فهو الجنّية التي ولجت مُحلّقةً بجناحين حجرة نومه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أخيراً بدأ اللّيل يقترب، فما بقي لي سوى نصف ساعة من النّهار كي ألحق بطائري الجهنّمي! نذرت لنوتر-دام دو لا غارد أن أُعلّق إلى هيكلها شحروراً من فضّة، إن أنا استطعت اللّحاق بشحروري. لكن سُدىً. فبِتعلّة أنّني لست بحّاراً تظاهرتْ هي بعدم سماعي... كان اللّيل يقترب أكثر فأكثر. أرسلت في اتّجاه شحروري طلقة أخيرة يائسة! قد يكون سمع صفير الرّصاص، سيّدي؛ ذلك أنّه، هذه المرّة، قام بتحليق طويل كدت لا أستطيع معه أن أُتابعه ببصري، فرأيته يذوب ويضيع في الغسق. كان يُحلّق في اتّجاه قرية سان سير، فلم يعد من مجال للعودة لمارسيليا. قرّرت الذّهاب لقضاء اللّيلة في سان سير. ولحسن الحظّ لم يكن لي في تلك اللّيلة من عمل في المسرح.

وصلت إلى فندق النّسر الأسود، شاعراً بجوع شديد. طلبت من المُضيف، وهو صاحبٌ قديم، أن يهيّئ لي العشاء وأن يُعدّ السّرير، ثمّ حكيت له مغامرتي. طلب منّي أن أُحدّد له بدقّةٍ المكان الذي كنت أضعت فيه الشّحرور ببصري. حدّدت له المكان بأدقّ صورة استطعتها. فكّر للحظة ثم قال:

- لا يمكن لشحرورك أن يكون إلّا في نبات الخلنج، على يمين الطّريق.

- تماماً! صحتُ. هناك فقدته... إن طلع القمر، قدتك إلى هناك.

- أجل، أجل. ذاك هو مهبط طيور الشّحرور. هو معروف.

- صحيح؟

- غداً، مع انبلاج النّهار، إن شئتَ، أصطحب كلبي، ونذهب لنثيره من مكانه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- بحقّ الرّب، أريد ذلك بالتّأكيد... حتّى لا يُقال إنّ طيراً بائساً استهزأ بي. وأنت تعتقد أنّنا سنعثر عليه؟

- بالتّأكيد.

- ها ما سيجعلني، إذن، أقضي ليلة طيّبة. لكن لا تذهبنّ من دوني، على الأقلّ.

- آه! أوَيُعقل ذلك؟

وبما أنّني لم أكن أريد أن يحصل لي ما حصل في الصّباح، أفرغت بندقيّتي من شحنتها وغسلتها. كانت قذرة، سادتي، بقدر لا تستطيعون تصوّره؛ فقد كنت أطلقت خمسين طلقة خلال النّهار، ولو كان الرّصاص ينبت لكانت نبتَت منه كمّية معتبرة من مرسيليا إلى سان سير. بعد أن أخذت ذلك التحوّط، وضعت الماسورة في المدفأة لتجفّ أثناء اللّيل، فتناولت عشائي وولجت فراشي ونمت، قبضتاي مُغلقتان حتّى الخامسة صباحاً.

في الخامسة صباحاً أيقظني مُضيفي.

وبما أنّني كنت أعتزم العودة إلى مرسيليا من الطّريق نفسه الذي قدمت منه، كنت، منذ الأمس، قد احتطت بأن ملأت جراب صيدي بما تبقّى من عشائي. ذلك حقّي، سيّدي، فقد أدّيت ثمنه. وضعت إذن جرابي على ظهري ونزلت، فركّبت بُندقيّتي وأخرجت وِعاء البارود كي أُعبّئ بندقيّتي، فألفيته فارغاً.

كان في حوزة مُضيفي، لحسن الحظّ، ذخيرة. وأنتم تعرفون، سيّدي، أنّ الصّيادين، فيما بينهم، يُهدون بعضَهم بعضاً باروداً ورصاصاً، وتُقبل الهديّة. أهداني مُضيفي من خردقه، وقبلته. أعددت بندقيّتي وعبّأتها. كان عليّ أن أرى أنّ ثمّة شيئاً ما في ذلك الخردق الملعون، لكنّني لم أنتبه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

انطلقنا، أنا ومُضيفي وسليمان. كلبه كان يُدعى سليمان.

– وكلبك، يا سيّد جادان، ما اسمه؟

– يُدعى ميلور، أجاب جادان.

– هو اسم جميل، قال السيّد لويه مواصلاً، وهو يحني رأسه، لكنّ كلب مُضيفي لم يكن اسمه ميلور، وإنّما سليمان. لكنّه كان مع ذلك كلباً صلباً؛ فنحن ما إن أدركنا حقل الخلنج، حتّى وقف ثابتاً مثل وتد.

– هو ذا شُحروركَ، قل لي مُضيفي.

– بالفعل. اقتربت ونظرت أمام أنف الكلب، فرأيت شحروري، يا سيّدي، على بعد ثلاث خطوات منّي، فجعلت أصوّب.

– لكن ما ستفعل؟ صاح بي مُضيفي، ستهشّمه. تلك جريمة قتل. هذا عدا أنّك قد تُصيب كلبي بالخردق.

– ما تقوله صحيح، أجبت.

وتقهقرت بعشر خطوات، وهو مدىً مُعتبر. كان سليمان مُسمّراً على الأرض، سيّدي، حتى لَكان بالإمكان القول إنّه كلب كيفالوس[1]. كان كلب كيفالوس قد تحوّل إلى حجر، كما يعرف سيّدي.

– لا، لم أكن أعرف، أجبت باسماً.

– آه!... لقد ابتُلِي كلب كيفالوس بذلك المُصاب.

– يا للحيوان المسكين! قال ميري.

– لو كان سليمان بقي ثابتاً لكان الأمر رائعاً، ولَكانَ بقيَ في وضعه ذاك حتّى الآن لو أنّ صاحبه لم يصحْ به: «هيّا! هيّا!» عندما سمع تلك الكلمة انطلق فطار الشّحرور. صوّبتُ عليه، سيّدي، كما لم

(1) انظر تفسير ذلك في «كلب صيد اسكتلنديّ».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يسبق أن صوّب أحدٌ على طائر شحرور. حشرتُه هنا... على طرف بندقيّتي، هل تسمعون!... انطلقت الطّلقة. بارود فاسد، سيّدي، بارود فاسد. لا شيء... - حسناً، أيّها الجار! قال لي مُضيفي، إن أنت لم تُصبه بسوء فقد يقودك إلى روما. - إلى روما! قلت له. إذا كان من الضّروري أن أسير في أثره إلى غاية روما، فسأفعل. كانت لي دائماً رغبة في الذّهاب إلى روما؛ فأنا رغبت دائماً في رؤية البابا... ومن ذا الذي يستطيع منعي من رؤيته؟ أنت؟... كنت غاضباً، أتفهمون؟ ولو كان ردّ علي بأدنى شيء، لكنت، أعتقد، رميته بالطّلقة الثّانية في بطنه. لكنْ عوض ذلك قال لي: - آه، أنت حرّ في أن تذهب أنّى شئت.

- رحلة سعيدة، أضاف الرجل... أتريد أن أُعيرك كلبي؟ سترده لي عندما تمرّ عائداً... - لم يكن عرضه مما يُرفض، أتفهمون؟ فكلب يوقف الطريدة مثله، بصرامة! أجل، أريد ذلك، قلت له. نادِه إذن... - سليمان، سليمان. هيّا اتبع السيّد، هتف المُضيف... يعرف الجميع أنّ كلب الصّيد يتبع أوّل صيّاد يُقبل. هكذا تبعني سليمان. انطلقنا. كان ذلك الحيوان هو الغريزة بعينها. تصوّروا أنّه رأى الشّحرور يحطّ من جديدٍ فانطلق رأساً إليه، لكن رغم أنّني نظرت جيّداً أمام أنف سليمان، لم أُشاهد شيئاً. هذه المرّة لو كان بمستطاعي سحقه لما رحمته. البتّة. وأثناء بحثي عنه، مُقوّساً هكذا، طار شحروري الجنّي. أرسلت خلفه طلقتَيّ، سيّدي. بانْ! بانْ! بارود فاسد، سيّدي، بارود فاسد... نظر إليّ سليمان ولسان حاله يقول: «ما هذا؟»... أشعرتني نظرة الكلب بالمهانة. أجبته كما لو كان يفهمني: «ليس هذا بشيء، ليس هذا بشيء، وسترى...» كأنّه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فهمني، يا سيّدي. انطلق باحثاً من جديد، ذاك الحيوان. وبعد عشر دقائق، وقف متربّصاً... مثل كُتلة، يا سيّدي، مثل كتلة حقيقية. هو شحروري دائماً... ذهبت أمام أنف الكلب، وأنا أدوس الأرض كما لو كنت على قرميد أحمر. بين السّاقين، يا سيّدي، مرّ تماماً بين ساقيّ. لم أكن متمالكاً نفسي بشكل كامل. رميته بطلقتي الأولى عن قرب مفرط، وبالثّانية إلى بعدٍ متطرّف. أخطأته الطّلقة الأولى ومرّت بجانبه، أمّا الثّانية فقد حادت كثيراً، فمرّ الشّحرور بينهما. عندئذ حصل أحد تلك الأمور... أحد تلك الأمور التي ما كان عليّ أن أحكيها لو لم أكن صادقاً... ذلك الكلب شديد الذّكاء، ذلك الكلب نظر إليّ للحظة بهيئة ساخرة جدّاً، ثمّ، بعد أن أتى قريباً منّي، وبينما كنت أُعيد تعبئة بندقيّتي، رفعَ قائمته، سيّدي، وأدلق ماءً على طِماقي[1]، ثمّ انتهج الطّريق التي كان قدِمَ منها! أنتم تعلمون يا سادتي، أنّه لو كان من سبّبني بتلك الطّريقة إنساناً، فإمّا أن يكون سلبني حياتي أو أن أكون قتلته. لكن ماذا عساكم تُريدونني أن أقول لحيوان حرمه الله العقل؟...

- أرجوك، سيّدي، قال جادان، أن تُصدّق بأنّ كلبي ميلور ما كان بإمكانه أبداً أن يقترف فظاظة مثل تلك.

- أنا أصدّق ذلك، سيّدي، أصدّقه، أجاب السيّد لويه؛ لكنّ سليمان ارتكب في حقّي تلك الفظاظة؛ ما دُمتَ ذكرت تلك الكلمة، فأنا لم أكن عثرت عليها. لم يفعل صنيعُ الكلب، وأنتم تفهمون جيّداً، إلّا أن ضاعف من حنقي. وقد أقسمت أنّني عندما سأقتل شحروري، سأمرّره أمام أنفه. في تلك اللّحظة، أنتم تفهمون أن طريق مرسيليا

(1) كساء للسّاق، من جلد أو قماش (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان نُسي. ومن مهبط طيور إلى مهبط طيور، وصلتُ يا سيّدي. خمّنوا الوجهة التي أدركتها، سيّدي. وصلت إلى هيريس. لم يكن سبق لي أن رأيت هيريس. عرفتها من أشجار برتقالها. أنا أعشق البرتقال، لذلك قرّرت أن آكل منه ما طاب لي. غير أنّني كنت في حاجة إلى شرب شيء يُنعشني. فأنتم تفهمون أنّ جولة مثل تلك تجعل الجسد ساخناً. كنت على بعد أربعة عشر فرسخاً من بلد مرسيليا. وكانت العودة إليها تتطلّب يومين كاملين. لكن، من زمانٍ كانت تحدوني رغبةُ زيارة هيريس وأكْل البرتقال مباشرةً من الشّجرة. أسلمت الشّحرور إذن إلى العفاريت كلّها، سيّدي، لأنّني كنت بدأت أؤمن بأنّ ذلك الطّائر البائس مسحور. رأيته يمرّ فوق أسوار المدينة ليحطّ في حديقة. اذهبوا إذن لتبحثوا لي عن شحروري في الحديقة، وفضلاً عن ذلك، دون كلب. كان الأمر شبيهاً كما يُقال بالبحث عن إبرة في تلّة من القشّ. دخلت إذن متحسّراً إلى فندق. طلبت عشاءً وإذناً بأن أذهب لآكل، في الانتظار، برتقالاً في الحديقة. سيضيفون المقابل إلى حسابي، فأنا لم أكن أعتزم تناوله بالمجّان. فحظيتُ بالإذن.

كنت أقلّ تعباً ممّا في اليوم السابق، سيّدي، ما يعني أنّنا نعتاد على المشي. ثمّ نزلت إلى الحديقة. كنّا في شهر تشرين الأوّل، وهي فترة البرتقال الحقيقية. تصوّروا مائتي شجرة برتقال مُنتشرة على الأرض؛ كأنّها حدائق هسبريس[1]، بلا تنّين. ما كان يلزمني إلّا أن أمدّ يدي. برتقال أضخم من

---

(1) الهسبريس في الميثولوجيا الإغريقية هنّ حوريّات المغيب. هنّ ثلاث، يقطنّ حدائق رائعة هي حدائق هسبريس الواقعة في الحدود الغربية للعالم (على شواطئ المحيط الأطلسيّ، في إسبانيا أو المغرب، على الأرجح). وكان دور أولئك الحوريات هو حراسة التّفاحات الذّهبية في حديقة هسبريس، وقد حظينَ للقيام بذلك بمساعدة تنّين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رأس. رحت أعضّها، أعضّ باطنها كما يعضّ نورمانديّ تفّاحة، وبغتةً سمعتُ: بي، بي، بي، بيييبي، بي!

فعقّب ميري وهو يأخذ سيجاراً آخر من الصّحن:

- هو تغريد الشّحرور، كما لو كنتم تسمعونه!

- جلستُ القرفصاء، سيّدي، وثبّتُّ عينيّ في شعاع الضّوء القادم من كوكبة الدبّ الأكبر. وبيني وبين الدّب الأكبر، على قمّة شجرة غار، لمحت شحروري، وقد حطّ، سيّدي، وقد حطّ على بعد خمس عشرة خطوة... مددت يدي بحثاً عن البندقيّة؛ كانت البندقيّة الشّقية في مدفأة المطبخ، أراها من المكان حيث كنتُ، هناك، في زاويتها، كنت أراها تلك الكسلى. صوّبتُ في اتّجاه الشّحرور بإصبعين من يدي وقلت: آه أيها النّذل، آه... محظوظٌ أنت... نعم... غرّدْ... غرّدْ... لو كانت بندقيّتي معي لجعلتك تُغرّد، أنا.

- لكن لماذا لم تذهب للبحث عنها؟ سألتُ.

- أجل، كي يفرّ أثناء ذلك، كي يشرع في التّحليق في اتّجاه مناطق غير معروفة! لا، لا. أنا وضعت خطّة أخرى غير تلك. قلت لنفسي -تابعوا جيّداً تفكيري-: أنا طلبت العشاء، وسيكون جاهزاً عاجلاً أم آجلاً. عندئذ سيأتي صاحب النّزل ليبحث عنّي، فهو يعرف أنّني في الحديقة. وسأقول له: تكرّم يا صديقي بالذّهاب للبحث عن بندقيّتي. أتفهمون؟

- همم! عقّبَ ميري، كم كنتَ فكّرتَ في الأمر بعمق!

- مكثت إذن مُقرفصاً وعيناي على شحروري. كان يغرّد نافشاً ريشه. كان يتنظّف. فجأةً سمعت وقع خطوات خلفي. أشرت بيدي مُطالباً بالصّمت. - آه معذرة، أنا أُقلقك؟ سأل صاحب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

النّزل. - لا، لا، أجبته. فقط تعال هنا. اقترب. انظر هناك، هناك، انظر في ذلك الاتّجاه.

- حسناً، ذاك شحرور، قال لي.

- اصمت، اذهب وآتِني بندقيّتي.

- ولماذا؟

- اذهب وآتني بندقيّتي.

- تريد أن تقتله، ذاك الطائر؟

- إنّه عدوّي الشّخصيّ.

- آه! هذا غير ممكن.

- كيف هو غير ممكن؟

- لا، لا، فات الأوان.

- لماذا فات الأوان؟

- أوه! هناك غرامة بثلاثة فرنكات واثني عشر فلساً ويومَي سجن عندما نُطلق النّار داخل المدينة، قبل صلاة التّبشير.

- سأذهب إلى السّجن وأؤدّي غرامة الثّلاثة فرنكات والاثني عشر فلساً، اذهب لتأتيني ببندقيّتي.

- أجل، كي يعتبرونني متواطئاً! لا، لا. غداً يبزغ النّهار.

فصرختُ بصوت أعلى ممّا يسمح به الحذر:

- لكنْ غداً، أيّها الشّقيّ، غداً لن أعثر عليه.

- ستعثر على شحارير أخرى.

- أنا أريد هذا بالذّات. أنا لا أريد شحارير أخرى. أنت إذن لا تعرف أنّني أُطارده بدءاً من مدينة مرسيليا، هذا الصّعلوك. وأنّني أريده حيّاً أو ميّتاً حتى أنزع ريشه وآكله، لا بلْ... هيّا اذهب وآتِني

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بندقيّتي.

- لا، قلتها لك. شكراً، فأنا لا رغبة لي في الذّهاب إلى السّجن بسببك.

- إذن سأذهب للبحث عنها بنفسي.

- اذهب، لكنّني أؤكّد لك أنّك لن تعثر عليه بعدُ، ذاك الشّحرور.

- وهل ستكون أنت قادراً على جعله يطير؟ سألت صاحب النّزل وأنا أُمسك به من خناقه.

- سحقاً! قال صاحب النّزل.

وضعت كفّي على فمه.

- لا تريد إذن، لا تريد؟ قلت له. لا تريد! اذهب لتأتيني ببندقيّتي، ولك منّي كلمة شرف أن لا أرميه قبل صلاة التّبشير. كلمة شرف. قسَم رجل شريف. فهل أنت مسرور؟ اذهب لتأتيني ببندقيتي وسأقضي اللّيل هنا، ثمّ غداً، عندما تنقضي صلاة التّبشير، بَانْ! أقتلُه.

- أوه! كلمة صيّاد! لنقمْ بما هو خير من ذلك.

- نقوم بماذا؟ أوه! ألا انظروا إليه؛ إنّه يسبّنا. يسبّنا! هيّا قل بسرعة بماذا سنقوم؟

- ابق هنا، ما دامت تلك رغبتك؛ سنأتيك بعشائك حيث أنت، ولن يُعوزك شيء. ثمّ، وبعد العشاء، إن أردت أن تنام فلَك العشب.

- أنام! نعم، أنت تعرفني جيّداً. لن يغمض لي جفن اللّيل كلّه. أنام كي ينصرف الشحرور!

- وغداً...

- وغداً...

- غداً عندما تُقرع أجراس صلاة التّبشير، سآتيك ببندقيّتك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- أنت يا صاحب النّزل تستغلّ وضعي.
- وماذا تريد؟ إنّ ما أقوله لك غير قابل للجدل.
- أنت لا تُريد أن تذهب لتأتيني ببندقيّتي، أليس كذلك؟ واحد، اثنان، ثلاثة.
- كلّا.
- اذهب إذن لتأتيني بعشائي واحرص على تجنّب الضّجيج عندما تكون آتياً به.
- أوه! لا مجازفة؛ ما دام لم ينصرف من الجلبة التي أحدثناها، فلن ينصرف الآن. أوه! انظر، ها هو ينام.
- وبالفعل، سيّدي، وضع ذلك الحيوان رأسه تحت جناحه، لأنّ سيّدي لا يجهل أنّ تلك هي طريقة نوم أغلب الطّيور.
- أوه! أنا أعرف ذلك.
- كان قد وضع رأسه تحت جناحه، ما يعني أنّه ما كان بإمكانه أن يراني، حتّى أنّه لو لم يكن على علوّ خمس عشرة قدماً لكان في مُتناول يدي، ولكان بإمكاني أن أدنو منه، سيّدي، وأن أُمسك به كما أمسك بكأس شراب البونش هذه. لكنّه كان للأسف شديد العلوّ، وبالنّتيجة، قعدت منتظراً مُضيفي. التزم بكلمته، لذلك وجب أن أقول إنّه رجل شريف. كان نبيذه طيّباً، لكن ليس أطيب من النّبيذ الذي قدمتموه لنا هذا المساء، أيّها السّادة، كما أنّ العشاء كان باذخاً، غير أنّه لا مجال لمقارنته بعشائنا هذا؛ فعشاؤنا عشاء مطعم بالتازار، أمّا عشاؤه فكان ببساطة عشاء نُزل.
حنينا رؤوسنا، نحن، شكراً.
- لكنّ الإنسان كائن ضعيف، سيّدي. فما إن تعشّيت حتّى شعرت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بالنّعاس. جعلت عيناي تنسدّان بالرّغم منّي. أعدت فتحهما وفركتهما وقرصت فخذي وعضضت إصبعي الصّغرى، لكن سدىً، سيّدي، فقد كنت كالثّمل. لزم أن أنام، فنمت.

رأيت في المنام أنّ الشّجرة التي حطّ عليها شحروري تغوص في الأرض مثل الأشجار في مسرح مرسيليا. هل سبق لك أن كنت في مسرح مرسيليا، سيّدي؟ هو مزوّد بآليّاتٍ رائعة. ذات يوم، تصوّر أنّهم كانوا يُمثّلون مسرحية «الوحش». السيّد أنييل دو لا بورت سان-مارتان هو من أدّى دور «الوحش». أنت قد تكون عرفت السيّد أنييل.

أشرت إلى أنّني سبق لي أن حظيت بذلك الامتياز، فاستأنف لويه كلامه:

- كنت أريد محادثته. وبمجرّد نزول الستارة انطلقت على المسرح. لم أنتبه، يا سيّدي، للباب الأرضي الصّغير الذي دخل منه. وإذا بي أغوص في الباب نفسه. ظننتُني مُنسحقاً. لكن لحسن الحظّ كان الفراش ما يزال هناك، وقد أتى مُشغّل الآلات تحديداً ليزيحه، فرآني في تلك اللّحظة وأطرافي الأربعة في الهواء. - ألست تبحث عن السيّد أنييل؟ قال لي، لقد ذهب لتوّه في هذا الاتّجاه، ومن المفروض أن يكون الآن في مقصورته. أجبته: - شكراً صديقي، وصعدت إلى مقصورته. كان هناك بالفعل.

هذا لأقول لكم فقط كم هو مسرح مرسيليا مشغّل بطريقة آلية.

كنت أحلم إذن بأنّ الشّجرة التي حطّ عليها شحروري غائصة في الأرض، حتّى إنّني أمسكت بذلك الطّائر الشّقي بيدي. تأثّرت بذلك كثيراً فأفقت.

كان الطائر ما يزال في مكانه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هذه المرّة لم أعد للنّوم. سمعت السّاعة الثّانية تدقّ ثمّ الثّالثة فالرّابعة. بزغ الفجر، فأفاق الشّحرور. كنت كأنّني على فراش من الشّوك. أخيراً سمعت أُولى دقّات جرس صلاة التّبشير، فكففت عن التّنفّس، سيّدي.

التزم مُضيفي بكلمته. في مُنتصف دقّات جرس صلاة التّبشير أقبل حاملاً بندقيّتي. مددت ذراعي، دون أن أُغادر ببصري طائري وأنا أشير بكفّي لصاحب النّزل بأن يُسرع، لكنّه لم يُسلّمني البندقيّة إلّا مع دقّة الجرس الأخيرة.

ولحظة تسليمي البندقّية، سيّدي، أطلق الشّحرور صرخة صغيرة وطار.

تشبّثتُ بالجدار، وتسلّقته. كان بإمكاني أن أتسلّق حتّى برج كنيسة آكول[1]. حطّ الشّحرور في حقل للقنّب. لم يكن قد أفطر بعد، أيّها السّادة، وكانت الطّبيعة تُناديه.

قفزت إلى الجهة الأخرى من الجدار، رامياً لصاحب النّزل بريال صغير مقابل عشائه، وشرعتُ أعدو نحو حقل القنّب. من انشغالي بشحروري لم أرَ حارس الحقل الذي كان يمشي في أثري. وفي اللّحظة التي صرت فيها وسط الحقل، حيث كنت سأقتنص شحروري، سيّدي، شعرت بأحدهم يُمسك بي من ياقتي. التفتّ. هو حارس الحقل.

- باسم القانون، قال لي، ستُرافقني عند العمدة.

في تلك اللّحظة طار الشّحرور.

حتّى لو كان حولي كتيبة من الجنود قاذفي القنابل لاخترقتها بالقوّة لأطارد شحروري. أسقطت الحارس وكأنّني أُسقط راهباً من ورق،

(1) آكول حيّ مرسيليا القديمة، يقع يمين الميناء القديم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وانطلقت خارج تلك الأرض غير المضيافة.

لحسن الحظّ، قام الطائر بتحليق طويل، بحيث وجدت نفسي بعيداً جدّاً عن مُطارِدي. عندما أدركت المكان الذي حطّ به -لكنّني كنت من انقطاع النّفَس بسبب العدْو، سيّدي، بحيث لم يكن بإمكاني قطّ أن أجده قرب فوّهة بندقيّتي-، قلت له: «المؤجّل ليس ضائعاً البتّة»، وجعلت أُطارده.

مشيت، يا سيّدي، النّهار كلّه. هذه المرّة لم يكن لي شيء في جرابي. أكلت فواكه بريّة وشربت من ماء السّيول، فجرى العرق على جبيني، ومن المفروض أنّني كنت أبدو بشعاً.

ثمّ وصلت إلى ضفّة وادٍ لا ماء فيه.

- هو نهر الـ «فار»، قال ميري.

- تماماً، سيّدي، هو نهر الـ «فار». قطعتُه دون أن أرتاب في أنّني كنت أمشي على أرض غريبة. لكن سيّان. رأيت شحروري يتقافز على بعد مائة متر أمامي، على أرض ليس بها أدنى نبات يمكنه أن يختبئ فيه. اقتربت منه بخطوات مُحاذرة، وصوّبت نحوه وأنا أقترب بعشر خطوات، عشر خطوات؛ لكنّه كان أضحى، سيّدي، قريباً جدّاً من بندقيتي عندما جاء بازٌ، بازٌ لئيمٌ كان يحوم فوق رأسي، وأسقط نفسه مثل صخرة تنحدر، وأمسك بشحروري واختفى به.

ظللت محطّماً في مكاني، أيّها السادة. عندئذ شعرت بآلامي كلّها. جسدي مُثخن بجروح أُصبت بها من عُلّيق الطّريق. أحشائي تعتمل من الطّعام الذي خلت أنّني به أزوّدها بحاجتها. سقطت على قارعة الطّريق. وإذا بمزارع يمرّ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- صديقي، قلت له، هل توجد في الجوار مدينة أو قرية أو كوخ؟
- Gnor si، أجابني هو، cé la citta di Nizza un miglia avanti.
(أجلْ يا سيّدي، أمامك على بعد ميل واحد مدينة نيس)[1].
- كنت في إيطاليا، سيّدي، ولم أكن أعرف كلمة إيطالية واحدة. حصل ذلك كلّه من أجل شحرور لعين.

لم يكن لي من خيار. نهضت بصعوبة واتّكأت على بندقيّتي كأنّني أتّكئ على عصاً. قطعت ذلك الميل في ساعة ونصف، ولم يكن لي من سند آخر غير الرّجاء، سيّدي، والرّجاء خذلني، فأحسست بضعفي يكبر ويكبر.

وأدركت أخيراً المدينة. طلبت من أوّل شخص ألقاه عنوان فندق جيّد، لأنّني كنت، كما تفهمون جيّداً، في حاجة إلى العناية بنفسي. ولحسن حظّي، مَن التجأت إليه كان يتحدّث فرنسيّة سليمة جدّاً، فأشار علي بفندق «يورك»، وهو أحسن فندق.

طلبت غرفةً لفرد واحد وعشاءً لأربعة.

- السيّد ينتظر ثلاثة من أصدقائه؟
- قم بما طلبته منك، أجبت، فخرج النّادل.

عندئذ وضعتُ يدي في جيبي لأرى أيّ مبلغ أتوفّر عليه من أجل عشائي، لأنّني كنت أعتقد أنّني لن أشبع أبداً. أخرجت يدي من جيبي، يا سيّدي، وهي تتفصّد بعرَق بارد. خلتُ أنّني سأفقد وعيي.

كان جيبي مثقوباً، سيّدي؛ فبما أنّنا كنّا في بداية الشّهر، وكنت قد حصلت لتوّي على مُرتّبي، أخذت منه قطعاً نقديّة من فئة مائة فلس.

(1) كانت مدينة نيس، الفرنسيّة الآن، تابعة يومذاك إلى إيطاليا. وستوضع العبارات القليلة المنطوقة بالإيطالية أو بخليط من المفردات الإيطالية والفرنسية في الحوارات التالية في صيغتها الأصليّة متبوعةً بترجمتها العربيّة، إلاّ في حال كونها تلقى ترجمتها في ردّ أحد المتحاورين فوراً (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثقبَ وزنها الثّقيل ثوب جيبي فنثرتُ تلك القطع مع خردقي على الطّريق المؤدّية من هيريس إلى نيس. بحثت في جيوبي كلّها، أيّها السادة. ولا أصغر قطعة. لم يكن في ملكي ما أقطع به ستيكس[1].

تذكّرت عشائي الذي كنت طلبته لأربعة أشخاص، فشعرت بشعري ينتصب على رأسي.

خففت إلى الجرس وتعلّقت به.

ظنّ النّادل أنّ أحداً آخذٌ بخناقي، فأقبل يعدو.

- أيها النّادل، قلت. أيّها النّادل، هل طلبت العشاء؟

- نعم سيّدي.

- ألغِ الطّلب إذن، ألغِه الآن.

- وأصدقاء سيّدي؟

- لقد صاحوا لي من النّافذة، لتوّهم، بأنّهم ليسوا جائعين.

- لكنّ ذلك لا يمنع سيّدي من أن يتناول عشاءه.

- أنت تفهم، قلت له بنفاد صبر، أنّه إن كان أصدقائي غير جائعين، فإنّني أنا أيضاً لست جائعاً.

- أكلَ سيّدي إذن متأخراً!

- متأخرٌ جدّاً.

- وسيّدي ليس في حاجة لشيء؟

- في حاجة لأن أبقى لوحدي.

قلت له تلك الكلمات القليلة بنبر أرعبه، فخرج على الفور. سمعته يُجيب أحد رفاقه كان قد سأله من أكون:

---

(1) نهر من أنهار الجحيم في الميثولوجيا الإغريقية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- لا أعرف عنه شيئاً؛ لكن من المؤكّد أنّه ميلورد[1]. فهو شديد الوقاحة.

- أنا، ميلورد! أيّها السّادة، وأنتم الذين تعرفون الوضع الذي كنت فيه... ذاك الفتى، كما ترون لا علم له بالفراسة.

لم تكن الوضعيّة جيّدة في شيء. غدت ملابسي أسمالاً فما عاد لها أيّة قيمة. لم يكن بقي لي سوى بندقيّتي. لكن ماذا كان عساهم يعطونني مقابلها؟ شيء قليل جدّاً، ربّما. كانت لي أيضاً ألماسة خاتمي الذي في إصبعي. لكنّ لها علاقة بالمشاعر، سيّدي، فقد قدّمها لي شخص عزيز. وكنت لَأفضّل الموت جوعاً على التّخلي عنها. عندئذ تذكّرت المثل القائل: «من نام تعشّى». فارتأيت أنّ ذلك يصْدق على هذه الوجبة كما على تلك. فئتُ إلى فراشي، ثمّ، ياه! أيّها السّادة، إنّه أمر لا يُصدّق. كنت من التّعب بحيث نمت رغم جوعي وبلبالي.

أفقت شاعراً بجوع شبيه بجوع كلب. وكما تعلمون أيّها السّادة، فإنّ هذا لا يُقال عن الحيوان فقط، وإنّما عن الإنسان أيضاً عندما يكون الجوع قد أخذ منه كلّ مأخذ.

جلست في فراشي مفكّراً فيما بقي لي لأقوم به، شارعاً في إدارة إبهام يدي اليمنى حول إبهام يدي اليُسرى، مع قلَق مُتصاعد، فإذا بي ألمح، فجأةً، في إحدى زوايا الغرفة آلة تشيلو[2]، فأطلقت صرخة فرح.

ستقولون لي، أيّها السّادة، وما القاسم المُشترك بين تشيلو ورجل لا عشاء له، سوى بطنَيهما الفارغين؟

---

(1) تُقال للثريّ الإنجليزيّ، وعموماً لشخص متنفّذ. ويلاحظ القارئ أنّ أغلب روّاد الفندق هم من السيّاح الإنجليز.

(2) هو الكمان الجهير أو الكمنجة الجهيرة، أصغر من الكونترباس وأخفض منه نغماً بقليل، يُدعى بالفرنسية «الفيولونسيل» (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ما كان مُشتركاً بيننا، أيّها السّادة، هو أنّني تعرّفت على وجهٍ أليف في بلد غريب. كان مثل صديق، أيّها السّادة، لأنّ بإمكاننا أن نقول، دون غرور، إنّنا عندما نكون قد أمسكنا بآلة موسيقيّة بين أذرعنا منذ عشر سنوات، تصير تربطنا بها صلةٌ وثيقة. ثمّ إنّني لاحظت دائماً أن لا شيء يجعل الأفكار تتوارد عليّ مثل صوت الأوتار الغليظة. هل أنتم موسيقيّون، سيّدي؟

- للأسف، لا، سيّدي.
- لكنّك تُحبّ الموسيقى.
- هي الضّجيج الذي يُزعجني، بعامّة، أكثر من غيره.
- لكن عندما تسمع عندليباً يغنّي؟
- أصيح فيه، بأعلى صوتي: هلّا صمتّ أيّها الحيوان البشع!

هزّ ميري كتفيه مع إيماءة ازدراء عميق وهو يرميني بنظرة قاتلة.

فصاح السيّد لويه الذي خشي أن ينتفي التّناغم السّائد بيننا حتّى تلك اللّحظة:

- إنّه خطأ في تكوينه! خطأ يستحقّ السيّد بسببه الرثاء وليس التّوبيخ. ما ينقص السيّد هو حاسّة خامسة. أنا أرثي لك، سيّدي.
- إذن، يا سيّد لويه، قال ميري، أنا متأكّد من أنّك ما إن وضعت آلتك بين ساقيك حتّى تواردت عليك خمسون فكرة، لا بل ألف فكرة. أتتك أفكار كثيرة، أليس كذلك؟
- لا يا سيّدي، لا. ليست الأفكار هي ما توارد عليّ تحديداً، بل إنّ خُدّام الفندق هم من هُرِعوا إليّ. كان وضعي قد اخترق روح الآلة الوترية. استخلصتُ من الآلة أصواتاً ممزِّقة. ساد تلك الأصواتَ كلُّ ما كنت أعرب عنه من حسرة تجاه بلدي الأم، وكلّ تمزّقات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بطني الفارغ. هي بالدّرجة الأولى موسيقى تعبيرية. والحال أنّ أناس البلد حيث كنت، ليسوا مثل سيّدي؛ هم يعشقون الموسيقى. سمعت الرّواق يمتلئ، ومن وقت لآخر تُقبل نحوي وشوشة إعجاب. سمعت تصفيقَ أكفّ، سيّدي. أخيراً انفتح باب غرفتي، فرأيت صاحب الفندق يدخل. قمت بضربة أخيرة من قوس التشيلو، ضربة عبقريّ، كما تعلمون، والتفتّ نحوه. فمن اللّحظة التي تكون آلةٌ بين يديّ، أعي تفوّقي على مثل ذلك الرّجل.

- ألتمس العذر من سيّدي أنْ دخلت بهذه الطّريقة إلى غرفته؛ لكن لا لوم إلّا عليه.

- كيف تقول ذلك! أجبت، أنت ربّ الفندق، أفلست إذن في بيتك؟ وينبغي أن أقول إنّني لم أكن أرتدي سوى سترة قصيرة.

- يبدو لي سيّدي عازفَ آلات متميّزاً.

- رفضت موقع أوّل عازف كونتروباس في أوبرا باريس.

«لم يكن ما قلته صحيحاً، أيّها السّادة، علي أن أعترف بذلك، لكنّني كنت في بلد أجنبيّ، فلم أرد أن أنتقص من قيمة فرنسا».

- ومع ذلك، سيّدي، فهو موقع جيّد، واصل صاحب الفندق.

- عشرة آلاف فرنك مرتّباً مع التّغذية، قلت له. الغداء يومياً بشرائح اللّحم ونبيذ بوردو.

أتى هذان الأمران، أيّها السّادة، إلى فمي بالرّغم منّي.

- وكلّ ذلك، سيّدي، واصلتُ القول، أقوم به حبّاً للفنّ وكي أسافر إلى إيطاليا؛ بلد بايسيَيلو العظيم وسيماروسا البارع[1]. كنت

---

(1) جوفاني بايسيَيلو Giovanni Paisiello (1740–1816) ودومينيكو تشيماروسا Domenico Cimarosa (1749–1801)، مؤلّفان موسيقيّان إيطاليان.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أدغدغ مشاعره، ذاك الرّجل.

- ألن يتوقّف سيّدي في مدينتنا؟

- ولماذا أتوقّف بها؟

- كي تُحيي حفلاً!

شكّل كلامه، يا سيّدي، شعاع ضوء، فقلتُ بشيء من التكبُّر:

- حفل! وهل تعتقد أنّ مدينة مثل نيس بإمكانها أن تُغطّي نفقاتي؟

- كيف يا سيّدي؟ فندقنا في هذه اللّحظة يطفح بالإنجليز المسلولين الذين يأتون لقضاء فصل الشّتاء في نيس. ففي فندق يورك وحده يقيم منهم خمسة عشر.

فقلت، مواصلاً إطرائي على الرّجل:

- صحيح، سيّدي، إنّه أحسن فندق في نيس. ويُقال أيضاً إنّ وجباته ممتازة.

- آمل أن يحكم سيّدي بنفسه على ذلك قبل أن ينصرف.

- لكنّني لا أدري بعدُ.

- لا نصائح لي أُقدّمها لسيّدي، لكنّني متأكّد من أنّ حفلاً يخصّنا به لن يكون دون جدوى.

- وما عسى أن يدرّ به عليّ ذاك الحفل، سألت بلا مبالاة؟

- إن قبل سيّدي أن يتركني أُعدّ الإعلانات وأوزّع التذاكر، فأنا أضمن له مائة ريال.

- مائة ريال! صحت.

- المبلغ ليس كبيراً، سيّدي، أنا أعرف، لكن نيس ليست لا باريس ولا روما.

فواصلتُ الإطراء، وأفلحتُ:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- إنّها مدينة فاتنة سيّدي، وتقديراً لها... أجل، سأحيي الحفل، إن كنتُ متأكّداً من أنّني لن أنشغل بشيء عدا أن آخذ آلتي وأُمتّع المستمعين، وأتلقّى مائة ريال دخلاً...

- أنا أضمن لك ذلك كلّه، أقولها للمرّة الثّانية، سيّدي.

- مع التّغذية، مع التّغذية، كما في أوبرا باريس؟

- مع التّغذية.

- إذن، سيّدي، أعلنْ عنّي، وعلّق مُلصقاتي.

- اسمك، من فضلك.

- السيّد لويه، القادم من مرسيليا إلى نيس، مطارِداً شحروراً.

- وهل من جدوى لذكر ذلك في الإعلان؟

- هو ضروريّ، سيّدي، علماً أنّني أرتدي بدلة الصّيد، وأنّ جمهور نيس المُحترم قد يعتقد أنّني أنتقص من قيمته، والحال أنّني عاجز عن ذلك، سيّدي، وتلك كلمة شرف.

- سأفعل ما تريد، سيّدي... وماذا ستعزف؟

- لا تُعلن عن شيء، سيّدي، أحضِر نوطات المسرح كلّها، فأنا أعرفها جميعها، وسأعزف ثمانية ألحان ذات أهمّية قُصوى، حسب ما يختاره المستمعون. سيُدغدغ ذلك كبرياء الإنجليز؛ فسكّان الجزيرة أولئك، كما تعلمون أيّها السّادة، مُفرطون في حبّهم لذواتهم.

- حسناً، قال ربّ الفندق، أُكرّر أنّني أضمن لك مائة ريال وسأطعمك. وفي هذه اللّحظة نفسها سيأتونك بغدائك.

- اعلمْ سيّدي أنّني من خلال هذا الإعلان سأكوّن فكرة عن طريقتك في الوفاء بالتزاماتك.

- كن مطمئنّاً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سمعته، وهو يخرج، ينادي معاونيه:

- غداء من الدّرجة الأولى للغرفة رقم 4.

نظرت، سيّدي، لرقم غرفتي، فألفيت أنّني أنا رقم 4.

تملّكني الفرح، فأمسكت بالآلة بين ذراعي وطفقت أعزف لحن رقصة قديمة.

وعندما كنت أُعيد راقصتي إلى مكانها، دخل النّادلون بالغداء.

كان بالفعل غداء من الدّرجة الأولى.

عندما تذهب، يا سيّدي، إلى مدينة نيس - أحسب أنّك ترتاد مدينة نيس- فانزل في فندق «يورك». وإذا كان ما يزال على حاله، وهو أمر ممكن، لأنّ صاحبه رجل يكاد يكون في سنّي نفسها، فسيروقك.

أعترف لكم أنّني جلست إلى المائدة بشهيّة كبيرة؛ فأنا لم أكن أكلت منذ ثمان وعشرين ساعة بالضّبط.

وعندما أمسكت بكأس قهوتي دخل صاحب الفندق.

- هل سيّدي مسرور، سألني؟

- مُبتهج.

- أنا من جهتي، أعددت كلّ شيء. لم يعد من مجال للتّقهقر. فملصقات سيّدي، في هذه اللّحظة، قد عُلّقت.

- سأُشرّف الإعلان، سيّدي، سأشرّفه. والآن، هل يمكن أن تدلّني على الطّريق التي أستطيع العودة منها إلى مرسيليا؟ أريد أن أنصرف غداً.

- هناك بالفعل سفينة شراعيّة رائعة ترسو في الميناء، ستُبحر غداً إلى تولون. قبطانها صديق لي، وهو ذئب بحر حقيقيّ.

- أوه، أنا لا أعرف تولون، وسأكون سعيداً بزيارتها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- انتهِز الفرصة إذن.

- غير أنّني... أخشى البحر... صحيح سيّدي، أنا أخشاه. أنا مثْل ميري، في هذا الأمر.

- عجباً! أجابني. البحر الآن مثل الزّيت.

- كم وقتاً يتطلّب العبور؟

- ستّ ساعات على أكبر تقدير.

- مُدّة وجيزة، سيّدي. سأذهب على متن شراعيّتك.

أقيم الحفل الموسيقيّ في التّوقيت الذي تمّ الإعلان عنه، وذلك كلّ ما يسمح لي تواضعي بقوله. تسلّمت المائة ريال كاملة، وصباح الغد، بعد أن قدّمت للنّادلين بقشيشاً هو معزوفة من الآلة، استقللت المركب الشّراعي «عذراء الآم السّبعة»، بقيادة القبطان غارنييه.

وما توقّعته، سيّدي، حصل. فما إن وطأت قدماي سطح المركب، حتّى أدركت أنّني إن لم أنزل إلى قمرتي، فستكون تلك نهايتي.

بعد انقضاء ساعتين، وفي الوقت الذي شعرت فيه ببعض التّحسّن، سمعت جلبة كبيرة على سطح المركب، ثمّ بدأ قرع الطّبل. اعتقدت أنّ تلك إشارةُ حلول وقت الغداء.

قلت لبحّار كان يحتضن حزمةَ سيوف:

- سيّدي، ما الذي يُعلنه قرع الطّبل هذا، من فضلك؟

- هو يُعلن عن الإنجليز، أيّها الشّهم، أجابني ذلك البحّار بتلك الصّراحة المعروفة عن النّاس الذين يُزاولون تلك المهنة.

- الإنجليز! الإنجليز أطفال طيّبون، أجبت؛ فهُم من كانوا أمس وراء ثلاثة أرباع وارداتي.

- حسناً، ففي هذه الحال، يُمكنهم أن يسترجعوها منك كاملةً اليوم،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثمّ واصل طريقه نحو سُلّم روزنة[1] المركب.

وخلف ذلك البحّار أقبل آخر حاملاً في حضنه حزمة رماح.

ثمّ آخر مُحتضناً حزمة سواطير.

جعلتُ أفكّر في أنّ أمراً مُريباً كان يقع.

كان الضّجيج يتصاعد، ممّا ضاعف من قلقي. عندئذ سمعت من كوّة المركب صوتاً يقول:

- أنطوان، آتِني غليوني.

- نعم أيّها القبطان، قال صوت آخر.

بعد لحظة رأيت نوتياً حدَثاً مقبلاً في يده الشّيء المطلوب. أمسكت به من ياقته، فقد كانت سنّ ذلك الطّفل تسمح بمثل تلك الحميمية.

- صديقي الصّغير، قلت له، ماذا يحدث هناك أعلى، هل هم يتغدّون؟

- آه! نعم، وبطريقة غريبة، قال النوتيّ الحدَث؛ سيكون من بينهم من سيُعانون من عسر هضم رصاصِ ذلك الغداء وفولاذِه، لكن، معذرةً، القبطان ينتظر غليونه.

- إذا كان انتظر غليونه، فذلك يعني أنّ الخطر ليس مُحدقاً.

- بالعكس، عندما يطلب غليونه تكون الأمور بدأت تسخن.

- لكن في نهاية المطاف، ما الذي يسخن؟

- الطّنجرة الضّخمة؛ تلك التي تحوي حساءً للجميع. اصعد إلى السّطح وسترى.

فهمت أنّ خير ما عليّ القيام به هو أن أتّبع النّصيحة الحصيفة التي قدّمها لي ذلك الصبيّ؛ لكنّ المسألة لم تكن يسيرة التّنفيذ بسبب تمايل المركب. وأخيراً تشبّثت بقوّة بالجدار الدّاخليّ، فاستطعت أن أُدرك

---

(1) فتحة في سطح السفينة تقود إلى الأسفل (المراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

السّلّم. أضحيت أكثر ارتياحاً، وصعدت المطلع.

أخرجت رأسي من الكوّة بما يقتضيه الوضع من حذر، فلمحت على بعد أربع خطوات منّي القبطان يُدخّن هادئاً وهو يجلس على كيس مقلوب.

قلت له مع ألطف ابتسامة استطعتها:

- نهارك سعيد أيّها القبطان. يبدو أنّ طارئاً طرأ على المركب.

- آه! أنت هو السيّد لويه؟

كان يعرف اسمي، ذلك القبطان الشّهم!

- أنا هو، أجبتُه. كنت مريضاً بعض الشّيء لكنّني الآن في حال أحسن، كما ترى.

- هل سبق لك، يا سيّد لويه، أن شاهدت معركة بحريّة؟ سألني القبطان.

- لا يا سيّدي.

- وهل لديك رغبة في مشاهدة معركة من هذا النوع؟

- سيّدي... أعترف لك بأنّني سأودّ أكثر أن أرى شيئاً آخر.

- أنا غاضب؛ فأنت لو كان لديك رغبة في مشاهدة معركة بحرية، معركة جميلة، لكانت حُقّقت رغبتك على الفور.

فسألته وقد امتقع لوني بالرّغم منّي:

- كيف، سيّدي؟ المعلوم أنّ تلك الظّاهرة مستقلّة عن إرادة الإنسان. كيف؟ قلتُ، ستحصل معركة بحرية. آه! أنت تمزح، أيّها القبطان... يا لك من قبطان مزّاح!

- آه! أنا أمزح! اصعدْ درجتين أُخريين وانظر... هل فعلت؟

- أجل، أيّها القبطان.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- ماذا ترى إذن؟
- أرى ثلاث سفن قويّة وجميلة.
- أحسِن العدّ.
- أرى منها أربعاً.
- ابحث أكثر.
- خمساً! ستّاً.
- هيّا إذن!
- أجل، هناك ستّ...
- هل تعرف شيئاً عن الأعلام؟
- قليلاً جدّاً.
- لا يهمّ. انظر إلى الذي تحمله كُبراها... هناك، في الدّائرة، كما في السفينة التي يوجد فيها علَمنا نحن، الثلاثيّ الألوان... ما الذي يوجد على ذلك العلَم؟
- معرفتي قليلة بالشّعارت، لكنّني أعتقد أنّني أُميّز قيثارة.
- إذن، تلك هي القيثارة الأيرلندية، وفي غضون خمس دقائق سيعزفون لنا قطعة موسيقيّة.
- لكن، أيّها القبطان، قلت له، يبدو أنّهم ما يزالون بعيدين عنّا، وأنّنا إن بسطنا كلّ هذه القلوع المعطّلة هنا، على طول الدّوقل والصّاري، لأمكنك أن تفرّ؛ فأنا لو كنت مكانك لنجوت بجلدي. عذراً، هذا رأيي بوصفي صاحب رابع آلة وترية في مسرح مرسيليا. أنا سعيد بأن أقاسمك فكرتي، ولو كان حصل لي الشّرف وأصبحت بحّاراً لكانت لي ربّما فكرة أخرى.
- لو كان رجلٌ، عوض عازف آلة وتريّة، هو من قال لي ما قلته أنت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لتوّك، سيّدي، واصل القبطان، لكانت الأمور اتّخذت منحىً سيّئاً. اِعلم أنّ القبطان غارنييه لا يفرّ. هو يُقاتل إلى أن يُخرَق مركبه، وينتظر الصّدام. وعندما يجتاح الإنجليز سطح مركبه ينزل إلى مخزن ذخيرة سفينته بغليونه، فيُدنيه من برميلِ بارود ويُرسل الإنجليز إلى الآب الأبديّ.

- لكن، والفرنسيّون؟
- الفرنسيّون أيضاً.
- لكن، والمسافرون؟
- المسافرون بدورهم.
- هيّا، أيّها القبطان، دعْ عنك هذه المزحة السّيئة.
- أنا لا أمزح أبداً، يا سيّد لويه، عندما تكون الاستعدادت قد اتُّخذت.
- أيّها القبطان.... أيّها القبطان، باسم حقوق النّاس، أنزلني أرضاً. أنا أفضّل أن أمشي على قدميّ. أتيت سالماً، وأريد أن أذهب سالماً.
- أتريد يا سيّد لويه أن أقدّم لك نصيحة؟ قال القبطان وهو يضع غليونه بجانبه.
- قدّمها يا سيّدي، فنصيحة من رجل عاقل مرحّب بها دائماً.

كنت مرتاحاً للغاية بأن قدّمت له، بطريقة غير مباشرة، ذلك الدّرس الصّغير.

- نصيحتي إذن، يا سيّد لويه، هي أن تذهب لتنام. أنت أتيت من نومك، أليس كذلك؟ عد إذن لتواصل نومك.
- سؤالٌ أخير، أيّها القبطان.
- قل، سيّدي.
- هل لنا حظّ في النّجاة؟ إنّ مَن يسألك رجلٌ له زوجة وأطفال.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قلت له ذلك كي أثير انتباهه، ففي الواقع أنا عازب.

بدا أنّ القبطان لانَ، فهنّأت نفسي بحيلتي.

- اسمع يا سيّد لويه، قال لي، أنا أعرف ما في وضعنا هذا من سوء بالنّسبة لرجل لا يمتهن مهنتنا. أجل ثمّة حظّ.

- حظّ في ماذا، أيّها القبطان؟ صحتُ. ما هو؟ وإن كنت تراني مفيداً لشيء ما، فأنا رهن إشارتك.

- أترى تلك السّحابة السّوداء، هناك، في الجنوب الغربيّ؟

- أراها كما أراك سيّدي.

- إنّها تعِدنا ببذرة.

- بذرة ماذا، أيّها القبطان؟

- بذرة ريح! ادعُ ربّك أن تتحوّل إلى عاصفة.

- كيف إلى عاصفة، أيّها القبطان؟ لكن العواصف تُغرِق.

- ذاك أحسن شيء يُمكن أن يحدث لنا.

أمسك القبطان بغليونه، لكنّني رأيت مسروراً أنّه منطفئ.

- أنطوان! صاح القبطان، أنطوان! أين أنت يا سردينة السّوء!

- ها أنذا أيّها القبطان، قال النّوتي الحدَث، وهو يُخرج رأسه من الروزنة.

- اذهب لتُشعل غليوني، فأنا إمّا أن أكون مخطئاً أو أنّ الرّقصة ستبدأ.

في تلك اللّحظة ظهرت سحابة بيضاء صغيرة على خاصرة السّفينة الأقرب إلينا؛ ثمّ سمعنا صوتاً بهيماً، مُشابهاً للصّوت الذي يصدر عن الضّرب على الصّندوق الكبير بالمسرح. رأيت أعلى جدار المركب ينفجر، فسقط على كتفي رجل مدفعيّة كان قد صعد إلى المرقب لينظر.

- هيّا إذن، يا صديقي، قلت له. ليس طريفاً أبداً ما تقوم به هنا. وبما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنّه رفض الانصراف، دفعتُه فسقط أرضاً. في تلك اللّحظة نظرت إليه بانتباه أكبر. ما كان عاد لذلك الشّقي من رأس.

أثقل المشهد على أعصابي إلى درجة أنّني وجدت نفسي، يا سيّدي، بعد خمس دقائق، في قعر الحوض.

لا أدري كم بقيت هناك. فقط سمعت ضجيج آلات نحاسيّة لم أسمع قطّ مثله في مسرح مرسيليا. ثمّ أعقبت ذلك الضّجيج مرافقةٌ بآلات وتريّة، حتّى كان بالإمكان الاعتقاد بأنّ ربّنا كان يعزف افتتاحية نهاية العالم. لم أكن على أحسن حال، سيّدي، ينبغي أن أقول ذلك.

أخيراً، وبعد زمن غير محدّد، أحسست بأنّ المركب كان يستعيد هدوءه. بقيتُ ما لا يقلّ عن ساعة ساكناً وسطَ أغطيتي. في نهاية المطاف، وبعد أن لاحظت أنّ كلّ حركة قد كفّت، تسلّقتُ السّلم. ألفيتُني بين السّطحين حيث يسود الهدوء، خلا بعض الجرحى المتأوّهين. تشجّعت وصعدت إلى سطح المركب. كنّا، يا سيّدي، في ميناء.

قال القبطان غارنييه وهو يربّت على كتفي:

- ها نحن قد وصلنا يا سيّد لويه.

- بالفعل، قلت للقبطان، يبدو لي أنّنا نوجد في مكان آمن.

- بفضل العاصفة التي تنبّأتُ بها، كان على الإنجليز أن يهتمّوا بأنفسهم، فلم يبق لهم وقت لينشغلوا بنا نحن، إلى درجة أنّنا مررنا من بين سيقانهم تماماً.

- أوه! أوه! مثلما حصل مع تمثال رودس[1]. أنت تعرف، يا سيّدي، أنّ السّفن، كما يقول المؤرّخون، كانت من الدّناءة بحيث مرّت بين

---

(1) رودس جزيرة يونانية، تقع على بعد حوالى سبعة عشر كيلومتراً من تركيا، وتمثال رودس البرونزيّ يمثّل هيليوس، إله الشّمس، يتجاوز علوّه ثلاثين متراً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ساقي التّمثال، إلى درجة أنّ من المحتمل أن تكون هذه التي أمامنا هي جزيرة سانت-مارغريت[1].

- ما هذا الذي تقوله؟

فأضفتُ، وأنا أشير إلى جزيرة لمحتها في الأفق:

- أقول إنّ من المحتمل أن تكون تلك جزيرة سان-مارغريت حيث حُبس الرّجل ذو القناع الحديديّ[2].

- تلك؟ قال القبطان.

- نعم، تلك.

- تلك جزيرة إيلبا.

- كيف؟ سألتُ. جزيرة إلبا؟ إمّا أن تكون معرفتي بالجغرافيا خانتني، أو أنّني لم أكن أعتقد بأنّ جزيرة إيلبا توجد بهذا القرب من مدينة تولون.

- وأين هي مدينة تولون؟

- تلك المدينة، أليست تولون؟ والميناء الذي نوجد فيه أليس هو ميناء تولون؟ أخيراً، أيّها القبطان، ألم تقل لي عند المغادرة، إنّك متوجّه إلى تولون؟

- عزيزي لويه، أنت تعرف المثل الذي يقول: الإنسان يُريد و....

- والله يفعل ما يُريد، أجل سيّدي، أعرفه. إنّه مثل ذو طابع فلسفيّ خالص.

---

(1) جزيرة سانت-مارغريت هي أكبر جزر ليرينس، قُبالة مدينة كان الفرنسية.

(2) الرّجل ذو القناع الحديديّ هو أحد المساجين الأكثر شهرة في التّاريخ الفرنسي. يلفّ وجودَه لغز كبير، وكثيراً ما جعلت منه الأفلام السّينمائية والرّوايات موضوعاً لها، معتمدة في تقديمه على خيال مُجنّح. وهناك من يذهب إلى القول إنّ تلك الشّخصية إنّما هي من ابتكار فولتير، ابتدعها ليُشوّه بها سمعة الملكية المطْلقة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- وبالخصوص صادق جدّاً. الله فعل ما أراد.
- في من؟
- فينا.
- أين نحن إذن يا سيّدي؟
- نحن في بيومبينو.
- بيومبينو؟ سيّدي، صحت، ماذا تقول؟ لكن إن استمرّ الأمر هكذا، فسأعود إلى مرسيليا عبر جزر ساندويش[1] حيث قُتل القبطان كوك[2].
- ولكنّك لست على طريقها.
- ها أنا إذن بعيدٌ عن وطني.
- وأنا أيضاً، ما دمت أنتمي إلى منطقة بروتاني.
- لكن كيف العودة إلى هناك؟
- إلى بروتاني؟
- لا، إلى مرسيليا.
- هناك، سيّدي العزيز، طريق البحر على متن سفينتي.
- شكراً. أنا أرفض أن أستقلّها.
- وعبر الطريق الأرضيّ على متن العربة.
- أفضّل السّفر برّاً، سيّدي، أفضّله أكثر بكثير.
- إذن يا عزيزي لويه، سأعيد إنزالك في الميناء.
- إنّك تسدي لي معروفاً يا سيّدي.
فأمر القبطان غارنييه بأن يُحضروا قاربَ نزول.

(1) جزر ساندويش هو الاسم القديم لأرخبيل هواي بالولايات المتّحدة، في البحر الهادئ.
(2) جيمس كوك James Cook هو ملّاح ومستكشف وعالم خرائط بريطاني، ولد سنة 1728، وتوفّي في هواي سنة 1779.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم تكن أمتعتي ذات بالٍ، كما تعلمون. كلّ ما كنت أملكه هو بندقيّتي وجراب صيدي. فودّعت القبطان، متمنّياً له عودة سعيدة، وسارعت بنزول السّلم.

- السيّد لويه، نادى عليّ القبطان.

- ماذا يُريد سيّدي؟ قلت وأنا أذهب في اتّجاهه.

فقال لي القبطان بادياً عليه الانزعاج:

- عزيزي لويه، أنت تعلم أنْ لا مجاملات بين أبناء وطنٍ واحد.

- نعم سيّدي أعرف ذلك.

- إذن، أتسمعني؟

- نعم سيّدي، أسمعك، لكنّني لا أفهم قصدك. يعني ذلك... من فضلك؟

- ذلك يعني... واصل القبطان.

- ذلك يعني... كرّرتُ للمرّة الثّالثة.

- ذلك يعني، إذن... اللّعنة! إن كنت لا تملك مالاً، فصرّتي رهن إشارتك. ها أنا قلت الكلمة.

تلك الطّريقة في عرض خدماته علي، سيّدي، جعلت عينيّ تغرورقان بالدّموع، فقلت وأنا أمدّ له كفّي:

- شكراً أيّها القبطان، لكنّ معي مالاً.

- لكنّك لست إلّا فنّاناً...

- لديّ في هذا المنديل مائة ريال، أيّها القبطان.

- أوه! حسناً إذن. إن كان لك مائة ريال فإنّ بإمكانك الذّهاب بفضلها إلى آخر الدّنيا.

- أنا لا أُفضّل الذّهاب بعيداً جدّاً، أيّها القبطان. وإن استطعت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

توقّفت في مرسيليا.

- رحلة طيّبة إذن، ولا تنسنِي في دعواتك إلى الربّ.

- لو عشت مائة سنة، أيّها القبطان، لتذكّرتك لمائة سنة.

- وداعاً، سيّد لويه.

- وداعاً أيّها القبطان غارنييه.

نزلت مع النّازلين، فمرّ القبطان من ميسرة المركب إلى ميمنته ليتابعني ببصره.

- في «الهوصار[1] الفرنسيّ»، صاح القبطان في اتّجاهي، ثمّ كرّر بالإيطاليّة: انزل في «الهوصار الفرنسيّ»، هو أحسن نُزل.

كانت تلك آخر كلمات وجّهها لي، سيّدي. ما زلت أراه، ذاك القبطان المسكين، متّكئاً هكذا على درابزين السّفينة، وهو يُدخّن سيجاراً، لأنّ الغليون عنده مكرّس للمناسبات الكبرى، ذلك القبطان المسكين!

مسح السيّد لويه دمعة.

- حسناً، وماذا حصل له بعد ذلك؟

- حصل له، سيّدي، أنّ قنبلة مدفع من عيار ستّة وثلاثين، بعد ذلك بثلاثة أشهر، شطرته نصفين.

قدّرنا نحن ألم السيّد لويه، فصبّ له ميري، كي يُعيده إلى هدوئه، كأساً ثالثة من شراب البونش.

قال وهو يرفع يده إلى مستوى عينيه:

- أيّها السّادة، أنا أدعوكم إلى نخب ليس فيه، وأجرؤ على قولها، أيّ

---

(1) الهوصار فرقة من سلاح الفرسان، ذات تسليح خفيف، نشأت أوّل ما نشأت في هنغاريا (واسمها آتٍ من الهنغاريّة) في 1458 لمحاربة الأتراك، ثمّ سرعان ما قامت في باقي البلدان الأوروبية فرق مشابهة. كانت مهامّها تتمثّل في القيام بجولات استطلاعية وتسهيل تقدّم القوّات المحاربة، والمساهمة في ملاحقة العصاة والهاربين (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فتنة، إحياء لذكرى القبطان غارنييه.

صدّقنا على كلام السيّد لويه، فواصل حكْيه.

- ذهبت رأساً إلى فندق «الهوصار الفرنسيّ» الذي لم أجد صعوبة كبرى في العثور عليه، سيّدي، علماً أنّ ذلك النّزل قائم في الميناء. طلبت عشاء لأنّني كنت أتضوّر جوعاً. وبالفعل، فأنتم ربّما انتبهتم إلى أنّني ما عدت آكل إلّا كلّ أربع وعشرين ساعة.

بعد العشاء، استقدمتُ عربة. من البديهيّ أنّهم في مسرح مرسيليا لم يكونوا يعرفون أبداً ما حلّ بي، وأنّهم بالتّأكيد قلقون جدّاً عليّ، ممّا يجعلكم تتفهّمون استعجالي العودة. عندما قمت بالجرْد، وجدت أنّ سبعة أيّام انقضت سلفاً على رحيلي. خلال تلك الأيّام السّبعة لم أُضع وقتي أبداً، هذا صحيح، غير أنّني قمت بشيء آخر غير الذي كنت أعتزم القيام به.

ناديت تباعاً على ثلاثة من أولئك الرّجال دون أن أستطيع التّفاهم مع أيّ منهم، لأنّهم لم يكونوا يتحدّثون البتّة لغتي الأمّ. أخيراً أتى رابعهم وهو يدّعي أنّه يتحدّث اللّغات جميعها، مع أنّه لم يكن يتحدّث فعليّاً، أيّاً منها. في النّهاية، وبفضل رطانته التي يخلط فيها الفرنسية بالإنجليزية والإيطالية، تمكّنا من تبادل أفكارنا. وفكرتُه هي أنّ عليّ أن أدفع له من جهتي ثلاثين فرنكاً مقابل رحلتي إلى فلورانسا. وفي فلورنسا، قال لي، لن تُعوزني الوسيلة للعودة إلى مرسيليا. كان لديّ رغبة جامحة، سيّدي، في رؤية فلورنسا، فلم أعترض على الثّلاثين فرنكاً. وقبل أن يُغادرني نبّهني إلى أنّ اثنين من مسافريه، أحدهما مواطن لي، اشترطا أن ينتهج طريق غروسوتو إلى سيينّا، إذ كانا راغبَين في المرور عبر الجبل. أجبته أن لا اعتراض لي على الجبل، وأنّه سيكون لي رأي آخر لو تمّ المرور عبر البحر. عندئذ أخبرني أنّ ظهري سيكون، طيلة مدّة الرّحلة، مُداراً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

للبحر، فكفاني ما قال.

لزِم أن نُغادر في المساء نفسه كي ننام في سكارلينو، فرستِ العربة عند السّاعة الثّانية، أمام باب النّزل، وقد احتلّ المسافرون الأربعة الآخرون أماكنهم، فأتى السّائق للبحث عنّي وعن مُواطني الذي كان يقطن النّزل نفسه. وقفت جاهزاً على الباب لأنّ استعداداتي للرّحيل، كما تعلمون، لم تكن تتطلّب وقتاً طويلاً؛ فأمتعتي هي نفسها: البندقيّة وجراب الصّيد. نوديَ على السيّد إرنست، فأسعدني سماع اسم فرنسيّ.

نزل السيّد إرنست، وهو ضابط وسيم في سلاح الهوصار، بين السّادسة والعشرين والثّامنة والعشرين من عمره، بادٍ عليه أنّه الشخصيّة البارزة في نُزلنا. وضع مسدّسين في جيبَي العربة واحتلّ مكانه إلى جانبي.

لم أتأخّر في الانتباه إلى أنّ السيّد إرنست حزين نوعاً ما. لم أكن أعرفه بما يكفي حتّى أسأله عن السّبب، لكنّني أردت على الأقلّ أن أسلّيه بالحديث.

- السيّد فرنسي؟ سألته.

- نعم سيّدي، أجابني.

- سيّدي رجل عسكريّ، ربّما.

هزّ كتفيه. لم يكن في السّؤال، على أيّ حال، أيّ تطفّل ما دام يرتدي بزّة عسكريّة. رأيت في إشارته تلك أنْ لا رغبة لديه في الحديث، فصمتُّ. أمّا باقي المسافرين، فكانوا يتكلّمون الإيطالية. وقد حصل لي الشّرف أن قلت لكم إنّني لم أكن أفهم تلك اللّغة؛ فلن تندهشوا إذن من أنّني لم أتدخّل في المحادثة.

وصلنا على تلك الحال، دون تبادل أدنى كلمة، إلى سكارلينو، فنزلنا نزلاً غاية في الرّداءة. قضينا فيه ليلة نكراء، أيّها السّادة، تلتهمنا الحشرات،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مع اعتذاري لحضراتكم عن هذه الكلمة. حوالى الثّالثة صباحاً، وعندما بدأت أنام، ولج سائقنا غرفتي وأيقظني. يبدو، سيّدي، أنّ تلك هي العادة عندهم في ذلك البلد الغريب.

حملت بندقيّتي وجرابي وبدأت أستعدّ لاحتلال المكان الذي جلست به بالأمس. لكنّني في الوقت الذي هممت فيه بصعود العربة، أوقفني السّائق.

- Scuza، سعادتك. Ma le fousil ليست carriqué، أليس كذلك؟
- ماذا؟ Le fousil ليست carriqué؟ ما الذي تعنيه بفعل carriquer؟
- هو يسأل إن كانت البندقيّة مُعبّأة، خاطبني إرنست.
- آه! سيّدي. تقبّل تحيّتي المتواضعة، قلت له. كيف كان نومك؟
- جيّد جدّاً.
- نومك إذن سهل. أمّا أنا فقد التُهِمت التهاماً، سيّدي، كنت منذوراً للوحوش.
- Andiamo, Andiamo (هيّا بنا)، قال المُسافرون.

وسأل السّائق مرّة ثانية:

- أليست البندقيّة معبأة؟
- فأجبتُ نافد الصّبر قليلاً من تطفّله:
- بلى، سيّدي، هي مُعبّأة.
- إذن Il bésogne le décarriquer.
- سيّدي، قلت للضّابط الشّاب، هلّا تفضّلت بأن تكون مترجمي وأن تقول لي ما يُريده هذا الرّجل.
- هو يُريدك أن تُفرغ بندقيّتك، سيّدي، خوفاً من أن يطرأ حادث محتمل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- آه! آه! هذا معقول جدّاً، أجبت.

- لا، لا. لا تفعل. دع البندقيّة كما هي. فإن اعترَضَنا لصوص، استطعنا بمسدّسيّ وببندقيّتك، على الأقلّ أن نُدافع عن أنفسنا.

- لصوص، سيّدي؟ سألت. هل سيكون هناك لصوص على هذه الطّريق، ربّما؟

- آه، سيّدي، في إيطاليا، اللّصوص في كلّ مكان.

- أيّها السّائق، صحتُ، أيّها السّائق.

- ها أنا.

- حسناً. ها أنت. لكن قل لي يا صديقي، أنت لم تُنذرني بأنّ هناك لصوصاً على هذه الطّريق.

- Avanti, Avanti (تقدّمْ، تقدّمْ) صاح مُسافرو العربة.

- هيّا، هيّا، اصعد، قال لي السيّد إرنست، أنت ترى أنّ رفاق رحلتنا يستعجلون. فنحن لن نصل إلى سيينّا قبل منتصف اللّيل.

- انتظر سيّدي إلى أن أُفرغ سلاحي.

- Besogna décarriquer (ينبغي إفراغ البندقيّة)، كرّر السّائق.

- كلّا، بالعكس، قال الضّابط، فقط اصعدْ.

- عذراً سيّدي، عذراً، أجبته. لكنّني أشاطر السّائق رأيه. فإن حصل وصادفْنا لصوصاً، فأنا لا أُريد أن يعتقد أولئك الرّجال في أنّ نيّتي هي أن أُصيبهم بأدنى سوء.

- آه، أنت خائف على ما يبدو.

- أنا لا أُخفي ذلك، سيّدي. أنا لست رجلاً عسكريّاً، أنا عازف الآلة الوتريّة الرّابعة في مسرح مرسيليا. السيّد لويه، عازف الكونترباس الرّابع، في خدمتك، واصلتُ منحنيا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- آه، أنت عازف الكونترباس الرّابع في مسرح مرسيليا! من المفروض إذن أنّك تعرف راقصة فاتنة كانت تشتغل بذلك المسرح منذ ثلاث سنوات أو أربع.

- عرفت راقصات فاتنات كثيرات، لأنّ موقعي من الجوقة ممتاز ويسمح لي بمعرفتهنّ. كيف كانت تُدعى يا سيّدي؟ وأرجوك أن لا تعتبر سؤالي تطفّلاً منّي.

- الآنسة زيفيرين.

- نعم سيّدي، كنت أعرفها. لقد غادرت مدينتنا وذهبت إلى إيطاليا. هي شابّة وخفيفة.

- ماذا! قال السيّد إرنست مستغرباً.

- تنطبق الصّفة على جسدها فقط، قلتُ له، وبالنّسبة لراقصة، يعتبر هذا ثناءً، وإلاّ -وهنا اتّخذتُ إهاباً أشدّ لُطفاً-، وإلاّ فأنا لا أعرف المهنة.

- حسَنٌ أن يكون الأمر كذلك!

- Danque che facciamo ; no si parte oggi! (يا ترى ما تفعلون؟ ألن نغادر اليوم؟) كانوا يصيحون في العربة.

- لحظةً أيّها السّادة. سأبتعد لأُفرغ سلاحي حتّى لا أُرعب الخيول بانفجار مزدوج.

- هات البندقيّة، قال السّائق وهو يأخذها من يدي. سأضعها في مقصورة القيادة.

- فكرة أخرى، قلت، لم أُفكّر بها أنا. هي ذي بندقيّتي، أيّها الرّجل الشّهم. أحسنِ العناية بها، فهي سلاح ممتاز.

- هيا! ألن تصعد؟ سألني السيّد إرنست.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- ها أنذا أفعل يا سيّدي، ها أنذا أفعل.

وصعدتُ إلى العربة فأغلق السّائق الباب خلفي، وصعد هو إلى مقصورة قيادته وانطلق، فواصلتُ أنا القول، مسروراً بالعثور على موضوع للحديث يبدو أنّه كان يروق للضّابط الشّاب:

- كنت تقول إذن إنّ الآنسة زيفيرين...

- أنت مُخطئ، أجابني السيّد إرنست، أنا لم أقل شيئاً.

فانتبهتُ إلى أنّه فقد رغبته في الحديث، وصمتّ.

أنا نادراً ما قمت برحلة مملّة مثل تلك، سيّدي، عبر طُرق مرعبة كالتي قطعناها. بدا وكأنّ سائقنا يتعمّد الابتعاد عن المدن والقرى. كان يبدو وكأنّنا نُسافر في بلد متوحّش. وقفنا لنتعشّى في كوخ مزرٍ، حيث قدّموا لنا عجّة دجاج لم يُعرف مثلها، وحيث تحادث سائقنا مع أشخاص بهيئة مُريبة، ممّا جعل شكوكاً تُساورني. كانت لديّ رغبة متأجّجة في أن أُسرّ بها لمرافقيّ في السّفر، لكن سبق لي، على ما أعتقد، أن أخبرتكم أنّني لا أتكلّم اللّغة الإيطالية. أمّا السيّد إرنست، فإنّ الطّريقة التي أجاب بها عن مجاملاتي جعلتني أحجم عن تكرارها.

واصلنا السّير، أيّها السّادة، لكنّ الطّريق، عوضَ أن تُصبح أحسن، أضحت أكثر فأكثر بشاعة. وأنا لن أكون مبالغاً إن أكّدت لكم أنّنا كنّا نقطع صحارى حقيقية. أخيراً ولجنا في ما يُشبه ممرّاً شديد الضيق؛ بجبال من جانبٍ ومجاري مياه من جانب آخر. كان ذلك يدعو إلى عدم الاطمئنان، لا سيّما وأنّ اللّيل شرع يُقبل بخطوات واسعة. صمت الجميع، حتّى الإيطاليون. ومن حين لآخر كان السّائق يُطلق سُباباً في اتّجاه خيوله. سألت ما إذا كنّا بعيدين بعدُ عن سيينّا. كنّا في منتصف الطّريق تقريباً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فكّرت أنّني، إن استطعت النّوم، أضحت الطّريق أقصر بما لا يدع مجالاً للمقارنة. اعتدلت بأحسن ما يُمكن في الزّاوية التي أجلس إليها وأطبقت جفنيّ داعياً النّوم. حاولت حتّى أن أُصدر شخيراً، لكنّني انتبهت إلى أنّ الشّخير يوقظني، فكففت عن استعمال تلك الوسيلة معتبراً إيّاها غير فعّالة.

يقال إنّه يكفي أن نُريد كي نستطيع. وقد كنت، سيّدي، دليلاً حيّاً على تلك البديهية. ففي غضون ساعة من التشبّث بتلك العزيمة الصّلبة، سقطت في ذلك النّوع من النّعاس حيث نكون ما نزال مدركين للأشياء، لكنّنا فاقدون للقدرة على استعمال حواسّنا. ولا أدري كم وقتاً ظللت على تلك الحالة المألوفة، عندما أحسست وكأنّ العربة توقّفت. بعد ذلك حدثت جلبة عظيمة حولي، فحاولت الاستيقاظ. لكنّ استيقاظي كان مستحيلاً، سيّدي. كنت نوّمتُني أنا نفسي مغنطيسيّاً. فجأة سمعت طلقتَي مسدّس. كان الأمر هذه المرّة قويّاً جدّاً، فضلاً عن أنّني أحسست وكأن اللّهب يكاد يحرق وجهي. فتحت عينيّ. ما الذي وجدته على صدري، سيّدي! ماسورة بندقيّتي. عرفتها، سيّدي، فندمت بشدّة على أنّني لم أكن أفرغت شُحنتها. كانت اعترضتْ طريقنا عصابةُ لصوص يصيحون بأعلى صوتهم: Fassia in terra ; fassia in terra. خمّنت أنّ ذلك يعني «انبطحوا على الأرض». سارعت بالنّزول من العربة، لكن ليس بما يكفي من سرعة، على ما يبدو، لأنّ أحدهم ضربني بعصاً على قفاي، سيّدي، كما يُفعل بأرنب. ولحسن الحظ لم يُصبني في مُخَيخي، غير أنّني سقطت، مع ذلك، أنفي إلى الأرض. وثمّة رأيت كلّ رفقائي في الرّحلة مُنبطحين مثلي، باستثناء السيّد إرنست الذي كان يُقاتل مثل عفريت. لكنّه أُرغم، في النّهاية على الاستسلام.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فتّشوني بشكل كامل، سيّدي؛ حتّى صدرية الفلانلّة. عذراً على التّفصيل، لكنّني كنت أرتديها. أخذوا منّي المائة ريال، وأمّلت في إنقاذ ألماسة خاتمي، فحوّلتها إلى داخل الإصبع. لكنّها، للأسف، لم تكن تتمتّع بفضيلة خاتم جيجيس[1]. وأنتم تعرفون أنّ خاتم جيجيس، عندما نحوّل موضع فصّه إلى الدّاخل، نُصبح متأبّين على الرّؤية. رأوا ألماستي المسكينة فأخذوها منّي.

استمرّوا لساعة تقريباً يُفتّشوننا ويُعيدون تفتيشنا بطريقة غير لائقة. ثمّ، وبعد انقضاء ساعة، قال من بدا أنّه قائد المجموعة:

- والآن، هل بين هؤلاء السّادة رجل موسيقيّ؟

بدا لي السّؤال غريباً، فرأيت أنّ الوقت غير مناسب للتّعريف بصفتي.

- وبعد! قال الرّجل نفسه، ألم تسمعوني؟ أنا أسأل إن كان بين هؤلاء السّادة أحد يعزف على آلة ما؟

فأجاب صوت عرفت أنّه للضّابط الشّاب:

- بالتأكيد! هناك السيّد لويه الذي يعزف على الكونترباس.

تمنّيت لو كنت على بعد مائة قدم تحت الأرض؛ فمكثت على حالي كأنّني ميّت.

- من هو السّيّد لويه، قال الصّوت نفسه، هل هذا هو؟

اقتربوا منّي وشعرت بهم يُمسكون بي من ياقة سترة الصّيد. وفي لحظة أوقفوني فوجدتُني قائماً على ساقيّ.

- ما الذي تريدونه منّي، أيّها السّادة، سألتُ. بحقّ السّماء، ما الذي تريدونه منّي؟

---

(1) خاتم جيجيس Gygès، حكاية رواها أفلاطون في بداية الكتاب الثّاني من «الجمهورية»، تقصّ حكاية جيجيس الذي عثر على خاتم يجعله عندما يضعه في إصبعه غير مرئيّ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- أوه! يا إلهي، قال قاطع الطّريق نفسه، لا شيء إلّا الخير. منذ ثمانية أيّام ونحن نبحث في كلّ مكان عن فنّان دون أن نستطيع العثور عليه، وهو ما جعل قائدنا في مزاج عكر؛ أمّا الآن فسَيُسرّ أيّما سرور.

- كيف! من أجل أن تقودوني إلى قائدكم تسألونني إن كنت أعزف على إحدى الآلات الموسيقيّة؟

- تماماً!

- وتُفرّقونني عن رفقائي؟

- ما حيلتنا في ذلك؟ هم ليسوا موسيقيّين.

- النّجدة، أيّها السّادة، صحتُ، ساعدوني، فأنتم لن تتركوني أُخطف بهذه الطّريقة.

- سيتكرّم هؤلاء السّادة بالبقاء وأنوفهم إلى الأرض، كما هم الآن، إلى أن ينقضي ربع ساعة. بعد ربع ساعة يمكنهم أن يواصلوا طريقهم. أمّا الضّابط الشّاب، قال قاطع الطّريق وهو يتوجّه بالحديث إلى الرّجال الأربعة الذين كانوا يُمسكون به، فاربطوه إلى شجرة. بعد ربُع ساعة يُخلّصه السّائق. أتسمع أيّها السّائق؟ إن خلّصته قبل ربع ساعة فسيكون لي معك شأن؛ أنا بيكار.

أصدر السّائق نوعاً من أنينٍ بهيم، يمكن فهمُه على أنّه إذعان للإنذار الذي تلقّاه لتوّه. أمّا أنا فكنت خائرَ القوى تماماً، وكان بإمكان طفل أن يأخذني ليُغرقني، فما بالك بجَسورَين مثل ذينك اللّذين كانا يُمسكان بي من ياقة سترتي؟

- هيّا، لنذهب، قال قاطع الطّريق، مع كامل الاحترام للموسيقيّ. وإن قاوم، فلا تدفعوه إلّا من حيث تعرفون.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تملّكني الفضول لمعرفة المكان الذي من المفروض أن يدفعوني منه عند المقاومة. قاومت إذن، سيّدي، فتلقّيت ركلة قدم جعلتني أرى ستّاً وثلاثين شمعة، فتجمّدت.

اتّخذ قطّاع الطّريق وجهة الجبل الذي كانت تبدو قممه السّوداء مُقسّمة على السّماء. بعد ما يقرب من خمسمائة خطوة، عبرنا مجرىً مائياً، ثمّ ولجنا غابة من شجر الصّنوبر فعبرناها. وعندما أدركنا، أخيراً، الجهة الأخرى، رأينا ضوءاً.

توجّهنا نحو ذلك الضّوء. كان يصدر من نُزل صغير يقع على طريق مختصر. توقّفنا على بُعد خمس خطوات منه. تقدّم قاطع طريق واحد وذهب ليستطلع المكان. أصدر إشارة من يده بالتّصفيق ثلاث مرّات ممّا عَنَى لبيكار، على الأرجح، أنّ بإمكاننا التّقدّم، لأنّ قُطّاع الطّريق جعلوا يتقدّمون وهم يُغنّون، وهو ما كانوا أحجموا عنه بعد أن غادرنا الطّريق الكبير.

خيِّلَ لي، سيّدي، عندما وضعت قدمي على عتبة ذلك النّزل، أنّنا كنّا نعيش اللّيلة الفاصلة بين السّبت والأحد، وأنّ الشّيطان كان يُحيي هناك ليلةَ سبْته.

- Ove sta il capitani? (أين هو القائد؟)، سأل بيكار وهو يدخل.

- Al primo piano (في الطابق الأوّل)، أجاب صاحب النّزل.

أسررت لنفسي: يبدو أنّ هناك بيانو أوّل. لكن أيكون هذا الرّجل مهووساً بالموسيقى؟[1]

---

(1) على سبيل الطرافة أو السخرية، يجعل الكاتبُ ساردَ الحكاية يسيء فهم المفردة piano، وهي بالفرنسية اسم الآلة الموسيقيّة المعروفة، ولكنّها تتمتّع في اللّغة الإيطالية بمعانٍ عديدة: الآلة المعروفة، ومخطّط، ومستوى، والنعت مستوٍ، وعلى نحو هادئ أو ببطء، وطابق أو طبقة في مبنى، والأخير هو الذي كان يقصده المتحدّث (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صعد اللّصوص كلّهم السّلّم، باستثناء اثنين منهم أجلساني بزاوية المدفأة، مسلّطين عليّ عيونهم، في يد أحدهم بندقيّتي وفي يد الآخر جراب صيدي. أمّا الخاتم الماسيّ والمائة ريال، فلم يعد يظهر لها من أثرٍ البتّة.

بعد لحظات أُصدِر من أعلى السّلم لحارسيّ أمرٌ ما لم أفهمه، غير أنّهما عندما عاودا وضع أيديهم على ياقتي ودفعاني في اتّجاه درجات السّلم، فهمت أنّني مطلوب في الطّابق الأوّل.

لم أُخطئ، سيّدي؛ فعند دخولي رأيت القائد جالساً أمام مائدة وضع عليها ما لذّ وطاب من الطعام، مع جمع من القناني مختلفة في أحجامها، وكانت تجلس على ركبتيه، سيّدي، فتاة فائقة الحُسن.

كان القائد رجلاً في الخامسة والثّلاثين أو الأربعين، ويمكن نعته بالفعل بالرّجل الوسيم؛ يتزيّا تماماً مثل لصّ أوبرا ساخرة، بملابس كلّها مخمليّة زرقاء، مع حزام أحمر وقرطين من فضّة، ممّا جعلني، سيّدي، أعتقد أنّني في جلسة تمارين مسرحيّة، إلى درجة أنّ ذلك الرّجل لو كان حاول أن يُرهبني لَما أفلح أبداً.

أما الفتاة الجميلة الجالسة على ركبتيه فكانت تتزيّا بطريقة المزارعات الرّومانيات، سيّدي؛ فمنذئذ بدأت أرى مثيلات لها في لوحات فنّان يُدعى روبير[1]؛ أي بدثار مخصّر مطرّز بلون ذهبيّ وتنّورة قصيرة متعدّدة الألوان مع جوربين أحمرين. أمّا القدمان فلا داعي للحديث عنهما: وكأنّها لم تكن تملكهما. كنت في غاية التّركيز، سيّدي، ما جعلني أنتبه إلى أنّ تلك السّارقة كانت تحمل في إصبعها خاتمي الماسيّ، وهو ما أعطاني، عدا المجموعة التي جعلها سوء حظّها توجد ضمنها، كما تعلمون جيّداً،

---

(1) يُشير هنا إلى هوبير روبير *Hubert Robert* (1733–1808)، أحد الرّسامين الفرنسيين الكبار في القرن الثّامن عشر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فكرةً سيّئة عن أخلاقيّات تلك الفتاة.

أرخى اللّصان قبضتيهما عنّي عند الباب، لكنّهما ظلّا على آخر درجات السّلم. تقدّمت إلى الأمام بضع خطوات، وبعد أن سلّمت في البداية على المرأة ثمّ على القائد فباقي المجموعة، مكثت منتظراً.

- هو ذا الموسيقيّ المطلوب، قال بيكار.

انحنيت مرّة ثانية.

سأل القائد بلكنة إيطالية قويّة:

- من أيّ بلد أنت؟

- أنا فرنسيّ، سعادتك.

- آه! أنا سعيدة بذلك، قالت الفتاة.

لاحظت بابتهاج أنّهم كلّهم تقريباً يتكلّمون اللّغة الفرنسية.

- أنت موسيقيّ؟

- أنا عازف الكونترباس الرّابع في مسرح مرسيليا.

- آه حقّاً؟ هتفتِ الفتاة.

- أحضرْ يا بيكار آلة السيّد الموسيقيّة!

ثمّ أضاف وهو يستدير نحو عشيقته:

- أرجو يا صغيرتي رينا أن لا تختلقي الآن أيّ عذر وأن ترقصي.

- أنا لم يسبق لي أن اختلقت أيّ عذر، أجابت رينا، لكنّك تتفهّم جيّداً عدم قدرتي على الرّقص بدون موسيقى.

- ما تقوله الآنسة صحيح جدّاً، سعادتك، لم يكن بإمكانها أن ترقص دون موسيقى.

قال أحد اللّصوص وهو يعود للظّهور عند الباب:

- non c'é instrumento, non ho fravolo l'instrumento (ما من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

آلة، لم نجد الآلة).

فصاح القائد بصوت كأنّه الرّعد:

- ماذا؟ لا توجد آلة!

- أقسم لك أيّها القائد، قال بيكار، أنّني لم أرَ أثراً لأيّة آلة تشيلو.

- بهيمة! صاح القائد.

عندئذ قلت أنا:

- أيّها القائد، لا يجب تقريع هذا الرّجل الشّهم؛ فقد بحث هؤلاء السّادة في كلّ مكان، حتّى في صدريّتي التي من الفلانلّة، ولو كان معي آلة التشيلو، لكانوا عثروا عليها بالتّأكيد. لكن لم تكن لي آلة.

- وكيف لا تكون لك آلة تشيلو؟

- ألتمس من سعادتك أن تكون مقتنعاً بأنّني لو كان بإمكاني أن أخمّن ولعك بهذه الآلة، لكنت أتيت بالأحرى باثنتين.

- حسناً، قال القائد، فلينطلق خمسة رجال في هذه اللّحظة نفسها إلى سيينا وفولتيرا وغروسيتو وحيثما شاؤوا أيضاً، لكن غداً مساءً، تلزمني آلة تشيلو. وعندما ستحضر آلة التشيلو، سترقصين، أليس كذلك يا صغيرتي رينا؟

- إذا كان لديّ الاستعداد وكنتَ أنت لطيفاً.

فقال القائد وهو يقبّلها:

- شرّيرة! أنت تعلمين أنّني طوع بنانك.

- نعم، أمام الملأ، قالت رينا، ما أجمل ذلك!

تلك الحركة المستوحاة من بقايا حشمة قدّمت لي فكرة رائعة عن الفتاة الشّابّة. لكن، سيّدي، حصل أمر غريب! كلّما أمعنت النّظر فيها، بدا لي محيّاها أكثر فأكثر أُلفة. غير أنّني، برغم استحضاري لذكرياتي، لم أتذكّر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنّني سبق لي أن رأيت مجموعة سيّئة مثل مجموعة قُطّاع الطّرق تلك.

- لكن يا صديقي، أنت لم تسأل حتّى هذا الرّجل الشّهم ما إن كان جائعاً.

تأثّرتُ بذلك الاهتمام.

- بالفعل، قال القائد، هل أنت جائع؟

- بما أنّك تكرّمت أيّها القائد، قلتُ، وطرحت عليّ هذا السّؤال، فأنا أعترف لك بصراحة أنّني لم أتناول سوى عشاء رديء في سكارتينو، ولذا فلن أمانع في التهام وجبة سريعة.

- إلى المائدة إذن.

- أيّها القائد!

- هيّا، اجلس إلى المائدة، قالت رينا بوجهها الصّغير الجذّاب. هل ستتصرّف هكذا مع طونينو الصّديق ومعي أنا مواطنتك؟

- آه! اسم السيّد القائد هو طونينو! اسم جميل، مُوقَّع.

- اسمه أنطونيو، قالت الفتاة ضاحكةً، لكنّني أسمّيه طونينو. اسم صداقة مصغّر. ثمّ حوّلت عينيها في اتّجاهه بنظرة من شأنها أن تؤدّي برئيسها إلى الضّياع، وأضافت: أسمّيه كذلك لأنّني أحبّه.

- ساحرة!... تمتم القائد.

وخلال ذلك، سيّدي، أعدّوا لي مائدة وأحضروا كرسيّاً، مع كلّ ما يلزم من احترام. وقد أدركت، في نهاية المطاف، أنّ وضعي عند السيّد طونينو أكثر احتمالاً ممّا كنت تصوّرت في البداية، وأنّني سأُعامل بما يليق بفنّان من تقدير.

وُضعت عُدّة المائدة الخاصّة بي على المائدة نفسها التي كان القائد تناول عليها عشاءه، وتولّت الآنسة رينا نفسها تقديم الأطباق وصبّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الماء لي، ما جعلني أتأكّد تماماً من أنّ ألماستي هي بالفعل التي كانت تتألّق على إصبعها. وبين الفينة والأخرى، كنت أرفع بصري إلى وجهها، لأنّني كلّما تأمّلتُها، سيّدي، أصبحت أكثر اقتناعاً بأنّ هذا الوجه مألوف لديّ. أمّا قاطع الطّريق فكان يعبث بشعرها، ممّا كان يُعرّضه، بين الفينة والأخر، إلى تلقّي ضربة على كفّه. بعد ذلك قال لها: سترقصين يا رينا، أليس كذلك؟ فأجابت: ربّما.

عندما أنهيت عشائي، لاحظت الآنسة رينا، بذكاء، أنّني ربّما كنت في حاجة إلى راحة. كنت أسقط من النّوم، سيّدي، ورغم أنّه لم يكن من الأدب في شيء أن أتثاءب، وأنا لا ألمّح إليك يا سيّد جادان، شرعت أتثاءب بطريقة هدّدت فكّيّ بالتّلف. فاغتنمت ما قالته وطلبت غرفتي فذهب لأنام.

نِمت خمس عشرة ساعة متواصلة، سيّدي. وكانوا ينتظرون بفارغ الصّبر أن أفيق؛ فهُم تكرّموا ولم يوقظوني، فبدا لي ذلك تصرّفاً شديد اللّباقة من قائد لصوص. لكنّني ما إن عطست، لأنّ من عادتي، سيّدي، أن أعطس لحظة استيقاظي، حتّى دخلوا غرفتي مصحوبين بخمس آلات تشيلو. أتى كلّ مبعوث بواحدة، ممّا دفعني إلى القول: يبدو أن في الضّواحي فيضاً من آلات التشيلو!

جعل كلامي القائد يبتسم.

اخترت الآلة الأجود وأشعلوا النّار في ما تبقّى.

عندما قمت باختياري طلبوا منّي أن آخذ آلتي وألتحق بالقائد الذي كان ينتظرني للعشاء. وأنتم تفهمون أنّني أسرعت إليه، حيث وجدت مائدة كبيرة وُضعت عليها عُدّة الأكل؛ أي مائدة من أجلنا، أنا والقائد والآنسة رينا وبيكار، ثم حوالى ثماني موائد أصغر لبقيّة اللّصوص. وفي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عمق الغرفة كانت توجد ثلاثمائة شمعة مُضاءة، ممّا أنتج ضوءاً باهراً، فخمّنت أنّنا مقبلون على حفلة راقصة.

مرّ العشاء في أجواء بهيجة، سيّدي، فاللّصوص كانوا بالفعل رجالاً ذوي شهامة، وكان القائد بالخصوص يتمتّع بمزاج رائع. وهو ما يرجع بالتّأكيد إلى كلّ ما كانت الآنسة رينا تحفّه به من ألطاف.

وعندما انتهى العشاء، قال القائد:

- أنت تذكرين ما وعدتني به يا صغيرتي رينا.

أجابت الفتاة مع ابتسامة:

- حسناً، وهل رأيتني أرفض؟

كانت تملك بالفعل ابتسامة جذّابة.

- حسناً. اذهبي إذن لتتهيّئي، لكن لا تتأخّري.

- ضع ساعتك على الطّاولة.

- هي ذي.

- أطالب بربع ساعة. هل هو كثير؟

- أوه، لا، أجبتُ، بالتّأكيد لا.

- ليكن ربع ساعة، قال القائد.

خرجت الآنسة رينا خفيفة مثل ظبية، من الباب الموجود في عمق القاعة، والقائم وسط ثلاثمائة شمعة.

- وأنت، سيّدي الموسيقيّ، قال القائد، آمل أنّك ستنبُغ.

- سأقوم بما أستطيع، أيّها القائد.

- ليكن. وإن راقني عزفكَ أعدت لك ريالاتك المائة.

- وخاتمي الماسّي؟ أيّها القائد.

- أوه! بالنّسبة لخاتمك، عليك أن تنساه. وزيادة على ذلك، فقد رأيته؛

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هو عند رينا، وأنت أكثر شهامة من أن تنتزعه منها.

فأبديت علامة موافقة فيها شيء من العبوس بدا أنّها كفتْه.

ثمّ قال القائد موجّهاً كلامه للصوصه:

- آه! أمّا أنتم، فسأمكّنكم من مُتعة عظيمة. وآمل أن تكونوا سعداء.

- عاش القائد! ردّ اللّصوص كلّهم.

في تلك اللّحظة ظهرت الآنسة رينا على الباب، وبقفزة واحدة أضحت وسط الغرفة.

كانت ترتدي، سيّدي، ثوَب رقصٍ مخطّطاً مع مخصر فضّي وشال كبير من الكشمير تضعه مثل حزام، وتنّورة قصيرة شفّافة تنزل أسفل ركبتيها، مع لباس داخليّ من حرير يصعد أعلى خصرها. كانت فاتنة بالفعل في ملبسها ذاك.

أمسكتُ الآلة بملء يديّ. تخيّلت نفسي في مسرح مرسيليا.

- على أيّ لحن تريدين أن ترقصي، يا آنسة؟ سألتها.

- هل تعرف لحن «الشّال» في باليه «كلاري» ؟

- بالتأكيد. هو لحني المفضّل.

- هيّا إذن، أنا في انتظارك.

بدأتُ باللازمة الموسيقيّة، فشكّل اللّصوص دائرة.

ومع أولى الإيقاعات طارت رينا مثل سيلف[1]، ثمّ شرعت تنطّ وتقفز وتستدير. كم كان ذلك رائعاً! طفق اللّصوص يصيحون بالتّشجيع خارجين عن أطوارهم. أمّا أنا فكنت أقول لنفسي: هذا مذهل! هاتان ساقان أعرفهما... صدمتني ساقاها أكثر ممّا فعل وجهها، سيّدي. فأنا عندما أرى هيئة لمرّة واحدة، لا أنساها.

---

(1) كائن خرافيّ يرمز إلى الهواء في الأساطير القديمة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم تتعب، سيّدي. مؤكّدٌ أنّ موجات التّصفيق كانت تمدّها بالقوّة. كانت تصعد وتنزل وتثب وتستدير؛ وذلك كلّه بحركات فاتنة؛ أقول ذلك بشرفي. كان القائد لحظتها كمِثلِ مجنون. أمّا أنا فكنت كمِثلِ ممسوس. بدا أنّ ساقيها كانتا توجّهان لي حُزمة إشارات، فهما عرفتاني أيضاً. أنا متأكّد من أنّهما لو كانتا تعرفان الكلام لقالتا لي: نهارك سعيد، سيّد لويه...

وفي وسط اللّحن، دخل صاحب النّزل مرعوباً، ووشوش ببضع كلمات في أذن القائد.

- Ove sono? (أين هم الآن؟)، سأل القائد بهدوء.

- في سان-دالماتسيو، أجاب صاحب النّزل.

- أكمِل لحنك، لنا ما يكفي من الوقت.

سألت الآنسة رينا وهي تحني خاصرتها وتدير ذراعيها:

- ماذا هناك؟

- لا شيء، لا شيء، أجاب القائد. يبدو أنّ أولئك المسافرين الأوغاد الذين أوقفناهم بلّغوا عنّا في سيينا وفلورانسا، وأنّ هوصار الدّوقة الكبرى إليزا يتعقّبوننا.

- أتى الخبر في الوقت المناسب، قالت رينا ضاحكة، فقد أنهيت رقصتي.

- استدارة أخرى يا صغيرتي رينا، قال القائد.

- أنا لا أرفض لك طلباً، سيّدي. الإيقاعات الثّمانية الأخيرة، من فضلك. حسناً....

- أنا أبحث عن قوسي، يا آنسة. تصوّروا أنّني عندما سمعت ذلك الخبر سقطت القوس من يدي. أما بالنّسبة للآنسة رينا، فقد بدا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وكأنّ الخبر، على العكس من ذلك، مدّ ساقيها بقوّة إضافية. في تلك اللّحظة خِلت أنّني عرفتُ ساقيها. لكن أين رأيتهما؟ أين رأيتهما؟

أعتقد أنّ الآنسة رينا لم يسبق لها أن حقّقت نجاحاً مثل ذاك.

كانت تقفز إلى غاية عتبة الباب الصّغير للغرفة حيث ارتدت ملابس الرّقص، ثمّ تعود وكأنّها تلج الكواليس، فقامت بانحناءة وأرسلت بقبلة للقائد.

– والآن، أسلحتكم! قال القائد. أعدّوا فرساً لرينا وآخر للموسيقيّ. سنذهب نحن راجلين، في طريق رومانيي، أتسمعون؟ ومن يضِلّ الطريق عليه الالتحاق بنا في كيانشيانو، بين كيوسا وبيانتسا.

– كيف، سيّدي، ستأخذونني بصحبتكم؟

– دون شكّ. وكيف تريد لرينا أن ترقص دون موسيقى، وكيف تريدني أن أتخلّى عن رؤيتها وهي ترقص؟

– لكنّكم أيّها القائد ستعرّضونني إلى أخطار محدقة.

– لا أقلّ منّا ولا أكثر.

– لكنّ هذا وضعكم أنتم، أيّها القائد، وليس وضعي أنا.

– كم كنت تُحصّل من ذلك المسرح البائس؟

هكذا كان يا سيّدي يتحدّث عن مسرح مرسيليا!

– كنت أحصل على ثمانمائة فرنك، أيّها القائد.

– حسناً، سأعطيك أنا ألف ريال. أرني إذن مقاولاً مسرحياً يعطيك مثلها.

– ما عاد ثمّة ما يُقال، فقرّرت أن لا أسمح للصّعوبات بثنيي عن الذّهاب.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- كلّ شيء جاهز، قال بيكار وهو يدخل.
- ها أنا ذي، قالت الآنسة رينا وهي تأتي مسرعة بلباسها الرّومانيّ.
- هيّا، لنذهب، قال القائد.
- Usseri, Usseri (الهوصار، الهوصار)، صاح صاحب النّزل.
سارع الجميع إلى السّلم، وقال القائد وهو يلتفت:
- الويل لك، أعتقد أنّك نسيت آلتك؟
فأخذت الآلة، سيّدي، وكنت أودّ لو اختبأت داخلها.
عندما وصلنا إلى الباب وجدنا جيادنا مُسرجةً.
- ماذا، أيّها الموسيقيّ، قالت رينا، ألن تُساعدني على ركوب الفرس؟ يا لشهامتك!
مددت يدي آليّاً كي أسندها، فشعرت بها تضع ورقة صغيرة في كفّي. سال عرق بارد على جبهتي. ماذا عساها تقول لي في تلك الورقة؟ هل هو تصريح حبّ؟ هل أغوى جسدي راقصة الباليه تلك، فأصبحتُ غريم القائد؟ حدتني رغبة في أن أقذف بالورقة بعيداً عنّي، لكنّ الفضول غلبني، فوضعتها في جيبي.
- Usseri, Usseri (الهوصار، الهوصار)، صاح صاحب النُّزل من جديد.
وبالفعل، جعلنا نسمع على الطّريق الكبير جلبة بهيمة شبيهة بجلبة فرقة تتقدّم عدْواً على جيادها.
قال لي بيكار وهو يُمسك بي من سروالي ويُساعدني على الرّكوب:
- اركب فرسك، أيّها الممثّل الفاشل. اربطوا آلته الآن إلى ظهره. هنا!
شعرت بهم يربطونني إلى آلتي. أمسك لصّان بزمام فرس الآنسة رينا، وأمسك اثنان آخران بزمام فرسي. شرع القائد، وقربينته على ظهره،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يعدو أمام عشيقته، وبيكار يعدو بالقرب منّي أنا؛ وكانت تمشي خلفنا الفرقة كلّها، المشكّلة على الأقلّ من خمسة عشر رجلاً أو عشرين.

انطلقت بضع طلقاتٍ بندقيّة على بعد مائة خطوة خلفنا، فسمعنا صفير الرّصاصات.

- يساراً، قال القائد، يساراً.

ما إن أصدر ذلك الأمر حتّى غادرنا الطّريق، وانقذفنا في ما يُشبه وادياً، يسري في عمقه مجرىً مائيٌّ. كانت تلك أوّل مرّة أركب فيها فرساً. كنت أُمسك بكفٍّ بالعنق وبأخرى بالذّيل. من الجيّد جدّاً، سيّدي، أن يكون للفرس كلّ ذلك الشّعر.

عندما وصلنا، أمر القائد بالوقوف، ثمّ جعلنا نُنصت.

سمعنا فرسان الهوصار يمرّون مُسرعين على الطّريق الرّئيس.

- حسناً، قال بيكار، إن واصلوا بهذا الإيقاع، فسيصلون باكراً إلى غروسيتو.

- دعهم يذهبون، قال القائد، ولنتّبع نحن مَسرى المجرى المائيّ؛ فيضيع ضجيجنا في صخب الماء.

سرنا على تلك الحال ما يقرب من ساعة ونصف الساعة، ثمّ ألفينا أنفسنا في تقاطع المجرى الأوّل ومجرىً مائيّاً صغيراً آخر، يأتي لينقذف فيه.

سأل القائد بخفوت:

- أليس هذا نهر أورتشيا؟

- لا، لا، أجاب بيكار، ليس هذا إلّا أورْبيا، أمّا أورتشيا فيقع على الأقلّ على بعد أربعة فراسخ إلى الأسفل.

انتهجنا الطّريق من جديد، فعثرنا، بالفعل، بعد ساعة من المشي،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على مجرىً آخر أتى لينقذف في المجرى السابق؛ ذلك أنّنا كنّا نمشي بتلك الطّريقة في الوادي. أنت ترى جيّداً، سيّد ميري، أنّ الـ «فار» ليس وحده الذي يبكي من أجل الماء.

- هذه المرّة، قال القائد، أنا أعرف أين نحن، يساراً، يساراً.

نُفِّذ الأمر فوراً.

وفي الرّابعة صباحاً، قطعنا طريقاً كبيراً.

قال بيكار الذي سمعني أُصدر بعض الأنّات:

- هيّا، هيّا، بعض الشّجاعة، ها نحن أولاء على طريق سيينا، وفي غضون ساعة ونصف سنكون في كيانتشيانو.

وكما تتصوّرون تماماً، اكتفينا بقطع ذلك الطّريق الكبير؛ فنحن لم نكن نبحث عن الأماكن المُرتادة. على بعد حوالى ألف خطوة سلكنا طريق الجبل. وكما قال بيكار، بعد ساعة ونصف الساعة، أي مع مطلع النّهار، دخلنا كيانتشيانو.

استقبلنا صاحب النّزل وكأنّه كان في انتظارنا. بدا أنّنا من روّاده.

كنّا مشينا، سيّدي، لاثنتي عشرة ساعة، وبقدرتي على تحديد المسافات، عدَدْتُ أنّنا قطعنا عشرين فرسخاً.

أنزلونا من على الفرس، أنا وآلتي. كنت، سيّدي، جامداً مثلها.

طلب اللّصوص الأكل، وطلبت أنا سريراً.

اقتادوني إلى حجرة صغيرة ليس لها إلّا نافذة مُسيّجة ويُفضي بابها إلى الغرفة التي سيتناول فيها اللّصوص طعامهم. لم تكن ثمّ من وسيلة حتّى للتّفكير في الهروب. غير أنّني، سيّدي، حتّى لو فكّرت في ذلك لَكان مستحيلاً، لأنّني كنت مطحوناً مثل فلفلة.

أثناء خلعي لسروالي الدّاخلي، لأنّنا كنّا ما نزال في تلك الفترة نرتدي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سراويل داخلية، وأنا ظللت أرتديه إلى غاية سنة 1830، أثناء خلعه، أقول، فكّرت في الورقة التي سلّمتنيها الآنسة رينا، والتي كنت نسيتها طيلة رحلتنا اللّيلية. غير أنّني حتّى لو كنت تذكّرتها، سيّدي، فأنتم تُقدّرون جيّداً أنّه كان مستحيلاً أن أقرأها، في تلك العتمة.

هي ورقة صغيرة مكتوبة بقلم الرّصاص، وتتألّف من هذه الكلمات:

«عزيزي السيّد لويه...

-رغم تأجّج رغبتي في معرفة ما يلي، توقّفت عن القراءة. نعم، نعم، قلت لنفسي. يبدو أن الآنسة رينا تعرفني. بعد ذلك واصلتُ.

«أنت تدرك أنّ المجموعة التي أوجد ضمنها تثير استيائي كما تثير استياءك. لكنْ كي نُفارقها دون حادث، علينا أن نتحلّى بالحذر أكثر ممّا بقوّة الإرادة. وآمل، عندما تحين الفرصة، ألّا تفتقد لا إلى هذه ولا إلى ذاك. وعلى أيّ حال، سأكون لك بمثابة قدوة. في انتظار ذلك، تظاهرْ بأنّك لا تعرفني بالمرّة.

«كنت أودّ لو أعدت لك خاتمك الماسيّ الذي رأيتك غير مرّة تنظر إليه بقلق، لكن وبما أنّني في حاجة إليه من أجل خلاصنا معاً، فسأحتفظُ به.

«وداعاً، يا عزيزي السيّد لويه، سنلتقي، نحن الاثنين، ذات يوم، كما آمل؛ أنت في الجوقة وأنا على خشبة مسرح مرسيليا.

زيفيرين.

تذييل: ابتلعْ ورقتي».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وضّح لي التّوقيع كلّ شيء، سيّدي. هي زيفيرين الصّغيرة التي كانت حقّقت نجاحاً باهراً، إلى درجة أنّها شُغِّلت لثلاث سنوات متواليات في مسرح مرسيليا. أنت لن تستطيع تذكّرها يا ميري، لأنّك كنت بعدُ حديث السّن. انظر إذن كيف يحصل التّلاقي بيننا من جديد.

قرأت تلك الرّسالة مرّة ثانية. عندها فقط صدمني ذلك التّذييل: «ابتلع ورقتي». كان ذلك من باب الحذر، لكنّه لم يكن مُغرياً في شيء؛ غير أنّني كنت آليت على نفسي القيام بكلّ ما تأمرني به الآنسة زيفيرين؛ فنمت أكثر اطمئناناً بعد أن علمت أنّ لي صديقة في تلك المجموعة.

كنت في عُمق نومي عندما أحسستُ بهم يهزّونني من ذراعي. فتحت عينيّ عاطساً. أعتقد أنّني أخبرتكم أنّ تلك هي طريقتي في الاستيقاظ. كان بيكار، نائب القائد، هو من سمح لنفسه بهذه الألفة وإيّاي.

- إنذار، إنذار، قال لي، الهوصار هم الآن في مونتبولتشيانو. سننصرف بعد ربع ساعة.

قفزت من على سريري إلى ثيابي؛ فتلك الرّصاصات اللّعينة كانت ما تزال تصفّر في أذنيّ.

أوّل من رأيته وأنا أخرج من حجرتي الصّغيرة هو الآنسة زيفيرين. كانت تبدو مبتهجة مثل الصّغنج، الطائر المغرّد... قدّرت قوّة روح تلك الفتاة الشّابة، فقرّرت أن أحذو حذوها. في الانتظار، وكي أُطمئنها، أشرت إليها بإصبعي بأنّني ابتلعت الورقة. وقد فكّرَت، من غير شكّ، أنّني إن لم أكن تناولت إلّا تلك الورقة، فإنّها لن تكفي لتُقيم أودي، لأنّها التفتت ضاحكة نحو القائد طونينو، وقالت له: موسيقيّنا يشير إليك بأنّ بطنه أكثر فراغاً من آلته. ألا يكون له بعض الوقت ليأكل لقمة؟

- تبّاً! قال القائد، سيأكل في سورانو.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- هل تمّ الاستعداد للانصراف؟ سألت زيفيرين.
- انتظري، سأذهب لأرَى، قال القائد. فخرج إلى السّاحة ثمّ صاح: Siamo pronti (إنّنا متأهّبون).

عدَت زيفيرين على الفور إلى النّافذة، وخلعت الخاتم الماسيّ من إصبعها، فكتبت بسرعة شيئاً ما على الزّجاج. ألفاها القائد، عندما عاد، واقفة في المكان نفسه الذي كان تركها فيه.

- هيّا، هيّا، قال، سنستريح في سورانو. من المؤكّد، تمتم من بين أسنانه، أنّ أحداً يخوننا، أو أنّ هؤلاء الهوصار سحرة. ثم أشار عليّ بأن أمشي في الأمام، وعرض ذراعه على زيفيرين فنزل برفقتها.

كانت جيادنا في انتظارنا مثلما في اليوم السابق. اتّخذت الاجراءات نفسها، فجعلنا نمشي بالطّريقة ذاتها. غير أنّنا، وبما أنّنا كنّا انصرفنا نهاراً، وصلنا قبل أن يُخيّم الظّلام.

كما أنّنا لم نكد نجد شيئاً نأكله في ذلك النُّزل الحقير الذي قادنا القائد إليه، ولولا اهتمام الآنسة زيفيرين بي وتقديمها لي نصف عشائها، لكنت نمت فارغ البطن.

لم أكن نمت لأكثر من عشر دقائق عندما تناهت إلى مسمعي جلبة جهنميّة. قفزت من سريري وأمسكت بملابسي في يدي، وفتحت الباب وأنا أسأل: ماذا هناك؟ كانت الغرفة عاجّة باللّصوص مسلّحين.

- نحن مُحاصرون بأولئك الهوصار الملاعين، صاح نائب القائد، ومن المُفترض أن يكون خائن موجوداً بيننا. الويل لك لو أنّك أنت...

قال صاحب النّزل وهو يفتح باباً يُفضي إلى سلّم خفيّ:

- Di qua ;Di qua (من هنا، من هنا)!

انطلق القائد في المّقدّمة جارّاً الآنسة زيفيرين من كفّها. دفع بي بيكار

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

خلفهما، فتبعَنا بقيّة الفرقة.

ولج صاحب النّزل، أسفل السّلم، مستودعاً للحطب وفتح باباً أرضيّاً موجوداً في إحدى زواياه. فهم القائد دون أن يتبادل أيّ كلمة مع صاحب النّزل، فنزل الأوّلَ من الباب الأرضي، مُسنِداً الآنسة زيفيرين. تبعناه جميعنا، فأعاد صاحب النّزل إغلاق الباب الأرضيّ علينا، وسمعته يُغطّيه بحزَم الحطب. قام بيكار من جهته بإزاحة السّلم، فأضحى من الضّروري القفز، واحداً بعد الآخر، من علوّ خمس عشرة قدماً تقريباً، للنّزول إلى السّرداب حيث أصبحنا.

ولست بحاجة لأن أقول لكم، سيّدي، إنّني انتهزت أول لحظة هدوء سنحت لي كي أرتدي ملابسي.

بعد لحظة سمعنا قرعاً قويّاً على الباب فبدا وكأنّهم يوشكون على الإلقاء به إلى الدّاخل.

- I schioppi sono caricati? (هل البنادق معبّأة؟)، سأل القائد.

وبما أنّه السّؤال نفسه الذي كان طرَحه عليّ السّائق[1]، فقد فهمت القصد جيّداً. غير أنّني سمعت، في الأوان ذاته، أصواتَ عيدان الشّحن وهي تعمل في مواسير بنادق من كانوا غير متأهّبين.

- أيّها السّادة، صحتُ، أيّها السّادة، آمل أن...

- اصمتْ إن كنت تريد البقاء على قيد الحياة، قال نائب القائد، بيكار.

- كيف تقول إن كنت أريد ذلك! بالتّأكيد...

- اصمت أو أضع على فمك كمّامة.

صمتُّ. غير أنّني طفقت أبحث عن زاوية أكون فيها في مأمن من الرّصاص. لم تكن في ذلك السّرداب اللّعين أيّ زاوية محجوبة، سيّدي.

(1) يقصد سائق العربة التي كانت تُقلّهم عندما هاجمهم اللّصوص.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كنّا في زنزانة سجنٍ حقيقيّ.

سمعناهم يفتحون الباب. في الوقت ذاته، ومن أصوات كعوب الأحذية وأعقاب البنادق، فهمنا أنّ فرقة عسكريّة دخلت لتوّها النّزل. كنّا، كما هو واضح، قد تُعقِّبنا عن قرب.

كان عددنا عشرين في ذلك السّرداب، سيّدي، ومع ذلك ساد صمت أضحى ممكناً معه سماع ذبابة تطير.

لكنّ الأمر لم يكن كذلك فوقنا. كان ممكناً القول إنّهم يسلبون النّزل. صراخ وسباب كان بإمكانه أن يجعل السيّدة العذراء تفقد وعيها. مرّة أو مرّتين سمعنا الجنود يصلون إلى عمق مستودع الحطب حيث يوجد مخفيّاً مدخلُ السّرداب، فينكسر الصّمت عندئذ بضجيج القرابينات التي يُعدّونها لإطلاق النّار. ورغم أنّ ذلك الضّجيج الضّئيل، سيّدي، لم يكن بذي بالٍ، فقد كان له أثر على قلبي.

أخيراً، وبعد ثلاث ساعات أو أربع، كفّ ذلك الضّجيج بالتّدريج، وأعقبه صمت كامل، ثمّ سمعنا حزَم الحطب تُزاح ففُتح الباب. كان مُضيفنا أتى ليقول لنا إنّ الفرنسيّين انصرفوا بعد أن تعبوا من البحث عنّا دون جدوى، وإنّ بإمكاننا الخروج.

عندما اقترب اللّصوص من مدخل السّرداب لمحادثة صاحب النّزل، دنت الآنسة زيفيرين، التي كانت ظلّت وحيدة مع خادمكم في عمق السّرداب، دنت بحيويّة منّي وأمسكت بيدي:

– نجونا، قالت لي.

– كيف ذلك، من فضلك؟ سألت.

– إرنست يمشي في أثرنا.

– ومن هو إرنست هذا؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- ضابط شابّ في سلاح الهوصار، هو عشيقي.
- لكنّني أعرفه، السيّد إرنست.
- أوه! إنّه فتىً وسيم، في الخامسة والعشرين أو السّادسة والعشرين، في مثل قدّك تقريباً، لكنّه أحسن هيأة.
- هوَ ذاك. سافرت برفقته من بيومبينو إلى... لكن انتظري، أجل، أجل، أجل، حدّثني عنك.
- حدّثك عنّي ذلك العزيز إرنست؟
- لكنّه ساحر إذن ما دام يتّبع هكذا أثرنا.
- لا يا عزيزي، ليس ساحراً؛ لكنّني، في النُّزُل كلّها التي مررنا بها، كنت أكتب على زجاج اسمي واسم القرية التي نتّجه إليها.
- آه! فهمت. لذلك السّبب كنت بحاجة لألماسة خاتمي. اعذريني يا آنسة على الشّكوك المبالغ فيها التي ساورتني. غير أنّ ألماستي من المفروض أن يكون أثرها ممتازاً، فهي جوهرة حقيقية.
- صمتاً! إنّهم يتحدّثون في أمور هامّة.
- أنصتَتْ للحظة، لكن بما أنّ اللّصوص كانوا يتحدّثون الإيطالية، لم أفهم شيئاً.
- حسناً، حسناً، قالت الآنسة زيفيرين. كابرارولا، كابرارولا، ثبّتْ في ذهنك هذا الاسم، إن نسيته أنا؛ فإلى كابرارولا سنتوجّه.
- كيف؟ صحت مرعوباً، سنمشي ثانيةً؟
- ماذا هناك؟ علّق بيكار وهو يلتفت.
- لا شيء، سيّدي نائب القائد، فقط كنت قلقاً على آلتي، هذا كلّ ما في الأمر.

ابتعدت زيفيرين عنّي بحيويّة، وانحشرَت بين اللّصوص، حتّى إذا ما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بحث عنها القائد بعينيه وجدها بجانبه.

- حسناً يا صغيرتي رينا، لقد انصرف أولئك الفرنسيّون العفاريت.

- آه! ها أنا أستعيد أنفاسي، قالت رينا. هل تعرفون من أيّ جهة ذهبوا؟

- يعتقد مُضيفنا أنّه فهمَ أنّ المجموعة، المكوّنة من هوصار الدّوقة العظمى، ليس لها الحقّ في أن تذهب أبعد من هذا المكان، لكنّ بينهم ضابطاً شابّاً مكلّفاً بملاحقتنا وبالمطالبة بفِرَق عسكريّة حيثما وُجد.

- وماذا سنفعل الآن؟

- سننطلق من جديد.

- في وضح النّهار؟

- أوه! اطمئنّي، فلنا طُرقنا الخاصّة بنا.

- أنا متعبة بالفعل.

- بعض الشّجاعة، يا صغيرتي رينا. المسافة ليست بعيدة، خمسة وثلاثون فرسخاً على الأكثر.

- وهل سنصل قريباً؟

- غداً، ليلاً، سنكون آمنين.

- لننطلق إذن.

- هيّا، لننطلق، قال القائد.

- وآلتي؟ سألت بيكار.

- اطمئن، تمّت العناية بها، أجابني.

تمّت العناية بها، وأنتم تفهمون أنّ آلتي هي خلاصي.

فانطلقنا. وقد قبل صاحب النّزل نفسه أن يكون دليلنا، فلم يُغادرنا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلّا عندما أدركنا ما كان القائد يسمّيه طريقه الخاصّ. وقد كان طريق الشّيطان، سيّدي.

حوالى منتصف النّهار ولجنا غابة كبيرة. كانت مثالاً لغابة للّصوص؛ وأنا متأكّد من أنّنا لو لم نكن في رفقة جيّدة مثل تلك، لكنّا التقينا بها لا نحبّ. بعد بضع ساعات أدركنا كابرارولا.

هناك، سيّدي، أنعمنا على الأقلّ بيوم وليلة هادئين. ذلك أنّنا، بسبب السيّد إرنست، لم نعد ننام أو نأكل. لكن بدا آنذاك إمّا أنّه فقد أثرنا أو أنّه ما عاد لديه ما يكفي من قوّة ليطاردنا. كان النّزل سيّئَ الزّاد، لكنّهم خفّوا إلى مدينة قريبة، سمعتهم يُسمّونها رونتشيغليوني، على ما أعتقد، فأتوا بما يُمكن أن يُعَدّ به عشاء فاخر.

أيقظونا في الرّابعة صباحاً، لكن، وبما أنّني نمت حوالى السّاعة السّادسة مساء، كنت حصلت على ساعات نومي الثّماني أو التّسع. ذاك قسطي، سيّدي، فأنا عندما لا أنام ثماني ساعات، أغدو مريضاً.

كان النّهار، هذه المرّة، قصيراً. حوالى الحادية عشرة صباحاً قطعنا معْبراً على وادٍ، فتوقّفنا لنتغدّى في نزل سمعتهم يُسمّونه «نزل باربريني».

- نحن هنا، قال القائد، في بيتنا.

- كيف نكون في بيتنا ونحن في هذا النّزل المقزّز؟ سألت زيفيرين، وأين هو ذلك القصر الشّهير الذي حدّثتني عنه؟

- أريد أن أقول إنّنا على أراضينا، في كارينينا، وأنّكِ، انطلاقاً من هذا المكان، بإمكانك أن تُصدري الأوامر مثل ملكة حقيقية.

- أنا آمر، إذن، أن أُترك لوحدي في غرفة، لأنّني لا أُريد أن أبدوَ لرعاياي في.... كيف يُسمّى قصرنا؟

- أنتيكولي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- أقول لا أريد أن أبدو لرعاياي في أنتيكولي، بهذه الملابس؛ سأُفزِعهم.
- Civetta (يا لكِ من مغناج !)، قال القائد مبتسماً.
- هيّا، هيّا، سأكون جاهزة في غضون ربع ساعة.
أخرجتنا زيفيرين وأغلقت عليها الباب.
- وعليه فأنت لك قصر؟ أيّها القائد، سألتُه.
- إلى حدّ ما، أجابني.
- هو قصرك؟
- أوه، لا، ليس قصري، فأنت تفهم أنّ الحكومة كانت ستقلق من ذلك، لكنّ سيّداً من روما أعارني إيّاه، وأنا أسدّد له إيجاراً متواضعاً. ذلك الرّجل الشّهم مضطرّ للبقاء في مدينته لكثرة أشغاله، ولا بدّ له من استئجار بيته القرويّ.
- سنكون ثمّة إذن مثل ديك في عجين.
- أنا لا أفهم، أجاب القائد.
- صحيح، فتعبير «ديك في عجين» صعب الفهم بالنّسبة لإيطالي. أقصد أنّنا سنكون في ذلك القصر في غاية الحبور.
- في غاية الحبور، تلك هي الكلمة. لا بدّ من استعمال طلقات البنادق، من حين لآخر، لكنّ ذلك جزء من المهنة.
فذكّرت القائد أنّني لم أُصبح في خدمته إلّا لأعزف على آلتي الوترية.
- إذن ما حكاية تلك البندقيّة وذلك الجراب اللّذين تؤكّد أنّهما لك؟
- هما لي، بالفعل. وبالمناسبة، أليس لك مكان للصّيد هنا في مزرعتك؟
- مكان صيد رائع.
- بأي نوع من الطّرائد؟
- الأنواع كلّها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- وهل لديكم شحارير؟

- شحارير؟ بالأسراب.

- صيدها ولا أسهل، أيّها القائد، وسأهتمّ أنا بالمشويّ منها.

- نعم، نعم، سأبعث معك بثلاثة أو أربعة من رجالي ليقوموا بإثارة الطّرائد، فتقنص منها بقدر ما تشاء.

- القائد وعدني أيضاً بـ...

- بماذا؟

- المائة ريال التي تعُود لي.

- صحيح. بيكار، تُعيد لهذا الرّجل الشّهم المائة ريال.

- الحقيقة، أيّها القائد، أنّني لا أعرف بأيّ ذنب يأخذونك؛ فأنت أشرف قاطع طريق عرفته في حياتي.

- Ecco mi (ها أنا ذي)، قالت زيفيرين وهي تعود.

- بهذه السرعة! قال القائد.

- أوه! إنّني أسارع للقيام بعملي، فقد أسعفني الوقت للقيام بكلّ ما كنت أودّ القيام به.

- مرحى! في هذه الحال ننصرف.

- أنا جاهزة، قالت زيفيرين.

فتح القائد النّافذة.

- لننصرف، صاح.

عندئذ، تسنّى لزيفيرين أن تتبادل معي نظرة وتريني الخاتم الماسيّ؛ ففهمت ما كانت تعتزم القيام به في تلك الغرفة.

انطلقنا حوالى الثّانية، وعند الرّابعة أدركنا شاطئَ وادٍ صغير. نادى القائد صاحب مركب باسمه فأقبل مُسرعاً ممّا يعني أنّه عرف الصّوت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الذي ناداه.

أثناء العبور، انخرط القائد وصاحب المركب في حديث بصوت خافت.

وسألتِ الآنسة زيفيرين بقلقٍ أتقنتِ التظاهر به:

- ماذا؟ ألم يعد قصرنا في مكانه؟

- بالعكس، قال القائد، فنحن، في غضون ربع ساعة على ما آمل، سنكون مستقرّين فيه.

- الحمد لله، أجابت رينا، فقد قضينا وقتاً طويلاً في ذرع الحقول.

ولجنا ممرّاً تحفّه أشجار الحَوْر يقع في نهايته سياج فيلّا رائعة. قرع القائد الجرس فأتى الخادم ليفتح الباب.

ما إن عرف القائدَ حتّى قرع الجرس بطريقة مخصوصة، أتى على إثرها خمسةٌ أو ستّةٌ من الخدم يعدون.

بدا أنّ القائد محبوب هنا، لأنّ جوّاً من الفرح الغامر ساد أولئك الخدم عندما علموا بمقدمه. تلقّى القائد ذلك التّرحيب كلّه على أنّه تكريم له يستحقّه واعتاد عليه.

- حسناً، حسناً، قال القائد، سِيروا أمامنا وأنيروا الطّريق.

أطاع الخدم. أراد أحدهم أن يُمسك بآلتي، بحسن نيّة على ما يبدو، لكن، لأنّها آلة من النّوع الممتاز، فقد رفضت أن أعهد بها إليه. نتج عن ذلك جدال موجز انتهى بلكمة وجّهها له بيكار. بقيت إذن محتفظاً بآلتي الوترية التي كنت قرّرت بصفة قطعيّة أخذها معي إلى فرنسا، إن قُيِّض لي يوماً أن أعود إليها.

قادونا، كلّاً منّا إلى غرفته.

كان قصراً، يا سيّدي، قصراً حقيقياً، تماماً كما قال القائد. كان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من نصيبي أنا غرفة بجداريات رائعة، وإن كان بابها يُفضي إلى القاعة الكبرى، ومن غير الممكن أن أخرج منها أو أن ألجها دون أن أمرّ أمام خمسة أو ستّة من الخدم الذين بدوا لي، سيّدي، من أوّل وهلة، قُطّاع طُرق حقيقيّين مُقنّعين في هيئة خدم.

عليكم أن تفهموا، سيّدي، في أيّ حال كنت. في الوقت الذي هممتُ فيه بقرع الجرس لأسأل ما إذا كان بالإمكان إعارتي بعض الثّياب، دخل خادم بملابس: جوارب وأحذية ومجموعة سراويل داخلية، وعدد من الثّياب ومن سترات الرّودنغوت الطويلة، فدعاني لأن أختار منها كلّ ما قد يكون على مقاسي أو يلائمني. أصابني الارتجاف سيّدي عندما فكّرت في أنّ تلك الملابس المستعملة ربّما كانت تعود إلى شخص ما. اكتفيت بسترة رودنغوت ومعطف وزوجين من السراويل الداخلية وخمسة قُمصان. ما كان بالإمكان أن أكون أكثر حذراً. وقبل أن يخرج الخادم، فتح خزانة فيها لباس حمّام، وقال لي إنّنا سنتعشّى alle vinti due (في الثانية والعشرين). وبعد إيضاحات عديدة، علمت أنّ ذلك يعني أنّنا سنتناول عشاءنا بين السّادسة والسّابعة. ولم أستطع إطلاقاً أن أفهم ما كان دَخْلُ الرقم 22 في تلك القضيّة.

لم أكد، كما ترون، أحصل على الوقت الكافي لأغتسل. لحسن الحظّ وجدت على طاولة، للقيام بذلك، كلّ ما كنت بحاجة إليه؛ وبين ما وجدت آلات حلاقة إنجليزية ممتازة ندمت عليها منذئذ، سيّدي، لأنّني لم أعثر بعد ذلك قطّ على ما يُعادلها في جودتها.

ما إن ارتديت ملابسي حتّى نُودي للعشاء. مرّرت المشط لآخر مرّة في شعري وخرجت من غرفتي وأنا أضع المفتاح في جيبي خوفاً من أن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يمسّوا آلتي. عند الباب وجدت خادماً في انتظاري ليقودني إلى قاعة الاستقبال.

كان في قاعة الاستقبال رجل شابّ وامرأة شابّة وضابط فرنسيّ. خلت أنّني أخطأت الطّريق، فأردت الانسحاب، لكنّني في اللحظة التي دستُ فيها على قدم الخادم، وأنا أعود القهقرى، خاطبتني المرأة الشّابة قائلة:

- ماذا يا سيّد لويه، ماذا تفعل، ألن تتناول عشاءك معنا؟

- عفواً، قلت... أنا لم أعرفك يا آنسة.

- إذا كنت تفضّل ذلك، عزيزي لويه، قال الرّجل الشّاب، فيمكن أن يقدّموا لك عشاءك في غرفتك.

- عجباً! صحت، هذا أنت أيّها القائد!

أنا لم أُصدّق ذلك، سيّدي.

- آه! لن يطيب للسيّد لويه أن يوجّه لنا سُبّةً بأن يحرمنا من رفقته، قال الضّابط وهو ينحني، على سبيل التّحية.

التفتّ نحوه كي أردّ على تهذيبه بالمثْل. كان هو نائب القائد، سيّدي، وقد تغيّرت هيأته فلم تعد العيون تعرفه، كما كان حصل في حكاية ساندريلا[1].

قال خادم وهو يفتح مصراعي باب غرفة الطّعام:

- Al suo commodo!

- لا تعتبرني متطفّلاً، سيّدي، لكن ما الذي يعنيه هذا؟ سألت نائب

(1) Cendrillon، ساندريلّا أو فتاة الرّماد كما تُدعى بالعربية؛ وهي حكاية شعبية عرفها القرّاء الغربيّون عبر صيغة للفرنسيّ شارل بيرّو Charles Perrault والألمانيّيْن الأخوَين غريمّ Grimm. والإشارة هنا إلى الطّريقة التي كانت ساحرة ألبست بها ساندريلّا حتى اكتسبت هيئة مختلفة، فاختارها أمير زوجة له.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القائد.

- معنى ذلك، عزيزي السيّد لويه، أجاب، هو أن العشاء قد قُدّم.

أمسك القائد بكفّ الآنسة زيفيرين وسرنا أنا ونائب القائد خلفهما. ولجنا غرفة طعام مضاءة بشكل ممتاز، حيث وُضع العشاء على نحو باهر.

قال لي القائد وهو يحتلّ مكانه ويشير عليّ بمكاني:

- أنا لا أدري ما إذا كان طبّاخي سيروق لك، يا عزيزي لويه. هو طبّاخ فرنسي يصفونه بالماهر. وقد طلبت منه طبقين بروفنساليّين أو ثلاثة، من أجلك.

- أطباق مُعدّة بالثّوم! أوه، يا للروعة! قال الضّابط الفرنسي وهو يعبّ نشوقاً مُعطّرة من علبة مذهّبة.

كنت أعتقد، سيّدي، أنّني في حلم.

قدّموا لي حسائي.

- أوه! صحت. هذا حساء بالسّمك.

كان الأمر كذلك بالفعل، سيّدي، وكان فضلاً عن ذلك حساءً مُعدّاً بطريقة رائعة.

- هل ألقيت نظرة على المنتزه يا سيّد لويه، سألني القائد.

- أجل، سعادتك، أجبت، من نافذة غرفتي.

- يُقال إنّه يعجّ بالطّرائد. عليك أن ترى ذلك غداً، يا سيّد لويه، فقد وعدتَ أن تتكلّف بالمشويّ من الطّرائد.

- وأنا أكرّر وعدي، أيّها القائد. غير أنّني ألتمس منك أن تُعيد لي بندقيّتي، فأنا ألفتُها، ولا أحسن التّسديد إلّا بها.

- اتّفقنا، قال القائد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- آه! أنت تعرف أنّنا سنتناول عشاءنا غداً باكراً، يا طونينو، قالت الآنسة زيفيرين، أنت وعدتني باصطحابي إلى مسرح «ديلّا فاليه»؛ فأنا شديدة التّطلّع لرؤية تلك الرّاقصة الصّغيرة الرّديئة التي حلّت محلّي.

- لكن يا صديقتي العزيزة، قال القائد، يوم المسرح ليس غداً وإنّما بعد غد. وعلى أيّ حال، أنا لا أدري ما إذا كانت العربة في حالة جيّدة. سأهتمّ أنا بذلك كلّه، كوني مطمئنّة. وغداً، في الانتظار، إن شئت فاذهبي على صهوة الفرس إلى تيفولي أو سوبياكو.

- هل سترافقنا يا سيّد لوي؟ سألتني الآنسة زيفيرين.

- لا، شكراً. أنا لست مُعتاداً البتّة على ركوب الخيل، ولا أجد في ركوبها أيّ متعة، صدّقيني. وأنا، فضلاً عن ذلك، سأقوم برحلة صيد، ما دام القائد مكّنني من ذلك، فأنا صيّاد قبل أيّ شيء آخر.

- كما تشاء، يا عزيزي لوي؛ فأنت لك مطلق الحريّة، قال القائد.

- وأنا سأُرافق السيّد لويه وسأصطاد بمعيّته، قال نائب القائد.

- هذا شرف عظيم لي، سيّدي، قلت وأنا أنحني احتراماً.

فتمّ الاتّفاق على أن يتوجّه القائد والآنسة زيفيرين إلى سوبياكو، بفرسين، وأن نبقى أنا ونائب القائد في القصر لنقوم برحلة صيد.

بعد العشاء تركَنا القائد، أنا ونائبه، متمتّعَين بحرّيتنا كاملة، فانتهزنا تلك الفرصة، سيّدي، لأنّني، أنا بالخصوص، وأنتم تتفهّمون ذلك، كنت أعيش منذ خمسة عشر أو ثمانية عشر يوماً، حياة متقلّبة ومُتعبة.

فالتحقت بغرفتي. وعليكم، سيّدي، ألّا تسألوني ما إذا كنت دُهشت إذ وجدتُ بندقيّتي في زاوية وجراب صيدي في أخرى، وعلى المدفأة المائة ريال؛ فقد أقنعني ذلك بأنّه ما من حاجة، في قصر القائد طونينو، إلى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مفاتيح لفتح الأبواب.

أثناء خلعي لملابسي، أتى الطّباخ الذي كنت امتدحته أمام الملأ على حساء السّمك الذي أعدّه، ليسألني ما إذا كنت أشتهي أن أُفطر على الطّريقة البروفنساليّة، الفرنسيّة أو الإيطالية، فقد أمر الكونت «فيّافورتيه»، بسبب تأجيل رحلة الصّيد، أن يُقدّم لي طعامي بغرفتي.

يبدو أنّ القائد طونينو، إذ غيّر ملابسه، رأى أن يُغيّر أيضاً اسمه. جدّدت إطرائي على ذلك الرّجل، وطالبته بأن يُعدّ لي دجاجة مقليّة في الزّيت؛ بمعنىً آخر دجاجة مُعدّة على الطّريقة البروفنساليّة؛ فذاك هو طبقي المفضّل، سيّدي.

كانت اللّيلة طيّبة؛ طيّبة إلى درجة أنّني لم أستيقظ إلّا عندما كان فطوري يدقّ بابي.

أفطرتُ يا سيّدي مثل ملك.

كنت أكاد أُنهي فنجان قهوتي عندما ربّت أحدهم على كتفي. التفتّ فرأيتُ نائب القائد في بدلة صيد في غاية الأناقة.

- ماذا! قال، هل بهذا نكون مستعدّين؟

التمست منه العذر، لكنّني جعلته يُلاحظ أنّني ليس بإمكاني أن أذهب في رحلة صيد بسروال داخليّ قصير. فأشار بإصبعه إلى بدلة صيد شبيهة ببدلته هو، كانت تنتظرني على أريكة.

كنت عندئذ، سيّدي، مثل علاء الدّين، لا أحتاج إلّا إلى أن أتمنّى كي أرى أمنياتي تتحقّق.

برمشة عين أصبحت جاهزاً. عندئذ نزلنا فوجدنا عند الباب خدماً يُمسكون بأربعة جياد مسرجة، واحد للقائد والثّاني للآنسة زيفيرين والآخران للخادمين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نزل القائد في الأوان نفسه. وضع مسدّسين من ذوات الطّلقتين في جرابيها، فقام الخادمان اللّذان كان من المفروض أن يرافقاهما بالمثْل. كان السيّد والخادمان يرتدون، فضلاً عن ذلك، نوعاً من بذلات غير مألوفة تسمح لهم بحمل سكّين صيد. رأى القائد أنّني ألاحظ كلّ تلك التحوّطات.

وماذا تريد، يا عزيزي لويه، قال لي، فالشّرطة سيّئة التكوين في هذا البلد، ممّا قد يؤدّي بنا إلى ملاقاة ما لا نريد، ومن الجيّد أن نكون مسلّحين، أتفهم؟

لم أفهم البتّة، لا بل بالعكس؛ فإمّا أن أكون رأيت حلماً أو أكون أرى حلماً. فأيّهما كان الوهمَ؛ القائد أم فيلّافورتيه؟ وأيّهما الحقيقة؟ ذاك ما لم أستطيع تبيّنه، فقرّرت أن أترك الأمور تتبع مجراها.

أمّا الآنسة زيفيرين فكانت تبدو رائعة في لباس الفارسة الذي كانت ترتديه.

قال لي القائد وهو يمتطي فرسه:

- ما تزال أمامنا لذائذ يا عزيزي لويه. سنعود في السّاعة الرّابعة، وآمل أن تكون رحلة صيدكم آنئذ قد انتهت.

- آمل ذلك أنا أيضاً، سيّدي الكونت، أجبت، وإن كنت لا أستطيع، في مجال الصّيد هذا، أن أؤكّد أيّ شيء؛ فنحن لا نعرف إلى أين يمكن أن تقودنا رحلةُ صيد.

فقال القائد وهو يهمز فرسه ويجعله يقوم بانحناءتين أو ثلاث:

- في جميع الأحوال، أنا أعهد لك يا بومانوار بالسيّد لويه.

- كن مطمئنّاً أيّها الكونت، أجاب نائب القائد.

وبعد أن سلّم علينا للمرّة الأخيرة، بيده، مثلما فعلت الآنسة زيفيرين،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

انطلقا معاً، خبباً، متبوعين بالخادمَين.

قلت وأنا أقترب من نائب القائد:

- معذرة سيّدي، أعتقد أنّك أنت من ناداه الكونت باسم بومانوار؟

- نعم، أنا نفسي.

- كنت أعتقد أنّ عائلة بومانوار زالت من الوجود.

- ها أنذا أعيدها للحياة، هذا كلّ ما في الأمر.

- أنت أهل لذلك، سيّدي، قلت له، وأنا أعتذر عن تطفّلي.

- أوه! لا داعي للاعتذار، يا عزيزي لويه. أتريد كلباً أم أنّك لست في حاجة إليه؟

- أفضّل يا سيّدي أن أصطاد دون كلب؛ فآخر كلب كان لي، أهانني بطريقة قاسية، وأخشى أن يتكرّر الأمر نفسه.

- كما تشاء. يا غايتان، أطلقْ روميو.

انطلقنا في رحلة صيدنا. قتلتُ، سيّدي، بطلقاتي السّت الأولى أربعة شحارير، ما يُدلّل، بما يقطع دابر كلّ شكّ، على أنّ شحرور مرسيليا ذاك كان مسحوراً. وقد أضحك ذلك بومانوار كثيراً.

- كيف تتسلّى، قال لي، بإطلاق النّار على طرائد مثل تلك؟

- الشّحرور في مرسيليا، يا سيّدي، قلت له، حيوان نادر. وأنا لم أرَ منه طول حياتي سوى واحد هو الذي أدين له بامتياز وجودي هنا ضمن مجموعتكم.

- عجباً! احتفظ بقوّتك للدّيوك البرّية والأرانب وحيوانات اليحمور.

- كيف سيّدي، صحت، هل سنرى حيوانات مثل هذه؟

- أوه! انظر، هو ذا أجدها ينطلق بين ساقيك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وبالفعل، سيّدي، كان يحمور قد انطلق لأبعد منّي بعشر خطوات.

من مكان إلى آخر، كنت ألتقي ببساتنة يبدو لي أنّني سبق أن رأيتهم في مكان ما، وحرّاس حظائرِ صيدٍ، ليست وجوههم غريبة عليّ. كانوا جميعاً يُحيّونني سيّدي. بدا لي أنّهم جميعهم قُطّاع طُرقٍ من المجموعة التي كنت محشوراً فيها، وقد غيّروا ملابسهم. لكنّني كنت رأيت كثيراً من الأمور المبهرة، فقرّرت أن لا أعود للانشغال بشيء.

أطلقنا رصاصاً كثيراً، سيّدي؛ فقد كان المنتزه شاسعاً ومسوّراً، مع سياج منصوب هنا وهناك لترك منافذ للنّظر رائعة. وعندما كنت أمام أحد تلك المنافذ المُسيّجة، أطلق بومانوار النّار على تُدرُج.

وإذا بمُزارع يهتف لي من الجهة الأخرى من السّياج:

- سيّدي، questo castello, é il castillo d'Anticoli? (هل هذا القصر هو قصر أنتيكولي؟)

فأجبته وأنا أقترب منه:

- عُذراً، أيّها القرويّ، أنا لا أفهم شيئاً من اللّغة الإيطالية. حدّثني بالفرنسية أكنْ سعيداً بإجابتك.

- آه! هذا أنت، السيّد لويه، قال لي المزارع.

- أجل، هذا أنا، لكن كيف عرفت أنّني أنا؟

- أنت لم تعرفني؟

- لا، لم يحصل لي ذلك الشّرف.

- إرنست، ضابط الهوصار، رفيقك في الرّحلة.

- آه، السيّد إرنست، كيف يكون الأمر كذلك! هذا أنت؟ ستكون الآنسة زيفيرين في غاية السّعادة.

- زيفيرين إذن موجودة هنا بالفعل؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- أجلْ، سيّد إرنست. هي مثلي أسيرة.
- والقائد طونينو؟...
- هو ليس إلّا الكونت فيلّافورتيه.
- والقصر؟
- هو مغارة قُطّاع طرق، سيّدي.
- هذا كلّ ما كنت أريد معرفته. وداعاً أيّها العزيز لويه، فهُم إن رأونا نتحدّث معاً فربّما ساورتهم بعض الشّكوك. قل لزيفيرين إنّها ستتلقّى أخباري غداً، وانطلقَ في الغابة.
- هاتِ، روميو، هاتِ، صاح السيّد بومانوار.
- عدوت أنا في اتّجاهه.
- حسناً، يبدو أنّ التُّدرُج موجود هنا. آه! ديك جيّد، سيّدي، ديك جيّد.
- أجل، أجل، هو كذلك. من كنت تحادث يا سيّد لوي؟
- إنّه مزارع سألني باللّغة الإيطالية، فأجبته بأنّني مبتلى بالعجز عن التكلّم بهذه اللّغة.
فهتفَ السيّد بومانوار بنبر شكّاك وهو ينظر إليّ جانبياً:
- آآ!
ثمّ أضاف وقد عبّأ بندقيّته:
- عزيزي السيّد لويه، أعتقد أنّ علي أنا، إذْ أتحدّث الإيطالية، أن أمشي على امتداد السّور؛ فمن المرجّح أن يكون ثمّة مزارعون آخرون يريدون أن يطرحوا عليك أسئلة، فأتكفّل أنا، في هذه الحال، بإجابتهم.
- كما تشاء، سيّد بومانوار، أجبته، فأنت السيّد هنا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نفّذتُ على الفور ما أراد، غير أنّه رغم إمعانه النّظر لم يرَ أحداً.

كان صيدنا وفيراً؛ وعليّ أن أقول إنّ السيّد بومانوار رام ممتاز. عدنا في السّاعة الرّابعة. لم يكن الكونت فيلّافورتيه والآنسة زيفيرِين قد عادا بعد.

صعدت إلى غرفتي لأستعدّ للعشاء. لكن بما أنّه لم يكن يلزمني وقتٌ طويل لأغتسل، أمسكت بآلتي وطفقت أُداعب أوتارها. كانت آلة رائعة بالفعل، فقرّرت، أكثر من أيّ وقت مضى، ألّا أنفصل عنها أبداً.

عند الخامسة والنصف نزلت إلى قاعة الاستقبال. وبعد لحظة أقبل الكونت فيلّافورتيه والآنسة زيفيرين. سألتني هذه الأخيرة:

- حسناً، عزيزي لويه، هل تسلّيت؟

- أجل، يا آنسة، كثيراً، وأنت؟

- أوه! من كلّ قلبي؛ فضواحي أنتيكولي فاتنة.

- صاحَ نائب القائد وهو يفتح الباب:

- أيّها القائد!

- من يناديني بالقائد؟ أنا هنا لست قائداً، عزيزي بومانوار، أنا هنا الكونت فيلّافورتيه.

فقال نائب القائد من جديد:

- أيّها القائد، الأمر جادّ، تعال للحظة، أرجوك.

- عفواً صديقتي، عفواً سيّد لويه، لكنْ، وكما تعلمان، الأسبقيّة للعمل.

- تفضّلوا، سيّدي الكونت، تفضّلوا.

خرج القائد وتبعته ببصري إلى أن انغلقت الباب، ثمّ، عندما أصبحت متأكّداً من أنّه لن يسمعني، قلت للآنسة زيفيرين:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- رأيتُ السيّد إرنست.
- متى حصل ذلك؟
- اليوم.
- آه، العزيز إرنست، من المفروض أن يكون تعقّبنا من نُزل إلى آخر.
- ذاك محتمل، أو أنّه ساحر.
- ألم يطلب منك أن تنقل لي كلاماً؟
- قال لي إنّ أخباره سترِدك غداً.
- أوه! يا لها من سعادة، سيّد لويه، سيُحرّرنا.
- لكنْ، يا آنسة، كيف تكونين إذن ضمن هذه المجموعة، إن كنت تكرهينها إلى هذه الدّرجة؟
- وجودي فيها هو كمثْل وجودك تماماً.
- لكنّي اقتُدت إليها قسراً.
- وأنا، هل تعتقد أنّني أتيت بإرادتي؟
- هذا القائد، قاطع الطّريق، إذن...
- رآني أرقص في مسرح بولونيا فأحبّني واختطفني.
- هذا الرّجل إذن بلا دين إذْ لا يحترم راقصات ولا آلات كنتروباس!
- ما يحزّ في نفسي أكثر هو أنّ المسكين إرنست قد يكون اعتقد أنّني ذهبت برفقة كاردينال، لأنّ أحد الكاردينالات كان، عندئذ، يُراودني عن نفسي.
- أوه!...
- صمتاً، هو ذا طونينو يعود.
- قالت زيفيرين وهي تعدو إليه:
- ماذا هناك؟ ماذا حلّ بنا؟ أوه! يا لَحالك؛ تلك الأخبار، هل هي إذن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بهذا القدر من السّوء؟

- هي على الأقلّ ليست أخباراً جيّدة.

فسألت زيفيرين مع قلق لم يكن هذه المرّة مصطنعاً:

- وهل استقيتها من مصادر عليمة؟

- ليس هناك مصادر أحسن منها؛ هي تواردت علينا من صديق في الشّرطة.

- وما مفادها، باسم الرّب؟

- لا شيء واضحاً. فقط أنّ هناك أمراً يُحبَك ضدّنا؛ فقد تعقّبونا من كيانتشيانو إلى أوستيريا باربريني. وهم لم يفقدوا أثرنا إلّا خلف جبل جنارو. أعتقد، يا طفلتي الصّغيرة، أنّ علينا أن نتخلّى عن فكرة الذّهاب غداً إلى مسرح ديلا فيلّا.

- لكن هذا لن يمنعنا من العشاء، أيّها القائد، أليس كذلك؟

- انظر، هو ذا الجواب، أجاب القائد.

- العشاء جاهز، سعادتك، قال خادم وهو يفتح الباب.

عندما ولجنا قاعة الطّعام، انتبهت إلى أنّه كان لكلّ من القائد ونائبه مسدّسين لكلّ منهما موضوعين بالقرب من صحنيهما. وإلى ذلك، كلّما فُتح باب القاعة لمحنا في الغرفة الصّغيرة اثنين من مجموعة اللّصوص يحمل كلّ منهما قربينته على الذّراع.

أكلنا صامتين، كما تتفهّمون، غير أنّ العشاء انتهى دون وقوع أيّ حادث. وعليّ أن أقول إنّني تعشّيت مَشغول البال. كنت أشعر غريزيّاً أنّ الكارثة تقترب، ولم أكن أنتظرها دون قلق.

نشر القائد، بعد العشاء، عسساً في كلّ مكان.

- معذرة، صغيرتي رينا، قال. لا يمكنني أن أكون بصحبتك، لأنّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عليّ أن أسهر على أمننا. وستُحسنين صُنعاً إن أنتِ استلقيتِ على فراشك بملابسك، لأنّ من الممكن أن نوقَظ ليلاً، وأريد أن ألفيكِ عندئذ جاهزة كي أقودك إلى مكان آمن.

- سأفعل ما تُريد، أجابت الآنسة زيفيرين.

- وأنت يا سيّد لويه، أنا مُضطرّ لإخضاعك للاحتياطات نفسها.

- سيّدي الكونت، أنا رهن أوامرك.

- والآن يا زيفيرين الصّغيرة، إن طاب لك، تتركين لنا الطّابق السّفليّ، لأنّنا مُلزمون بأن نتّخذ فيه بعض الإجراءات، وهو ما لا يستقيم في وجود امرأة.

- سأصعد إلى غرفتي، قالت الآنسة زيفيرين.

- وأنا أيضاً، قلت.

- اقترب القائد من جرس، فخاطبتني الآنسة زيفيرين وهي تفرك كفّيها:

- الأمور تمشي بطريقة جيّدة، سيّد لويه.

فأجبت وأنا أحرّك رأسي:

- لا بل إنّ الأمور تمشي بطريقة سيّئة يا أنسة زيفيرين!

- قودوا السيّد والآنسة، كلّاً إلى غرفته، قال القائد باللّغة الإيطالية. ثمّ أضاف بصوت خافت بضع كلمات لم نستطع سماعها.

- أنا ما زلت آمل ألّا يكون هذا سوى إنذار خاطئ، قالت الآنسة زيفيرين.

- أوه، أنا لا أدري لماذا يتولّاني إحساس متشائم، هتف القائد. إن بقي لي وقت، يا زيفيرين، أتيت لرؤيتك. طابت ليلتك سيّد لويه.

- طابت ليلتك، سيّدي القائد، قلت وأنا أخرج.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بقيت الآنسة زيفيرين متأخّرة قليلاً، غير أنّني، وقد صعدت الدّرجات العشر، رأيتها قادمة، فتوقّفت لأنتظرها. لكنّ اللّص الذي كان يقودني دفعني من كتفي.

دخلت غرفتي فترك لي اللّص المصباح وغادر. وبذهابه أقفل الباب وأدار المفتاح مرّتين.

– يبدو أنّني أسير! قلتُ مهمهماً.

لم يكن أحسن لي من أن أرتمي على سريري، وهو ما قمت به.

قضيت، سيّدي، ساعات في تفكير حزين. غير أنّ أفكاري شرعت، شيئاً فشيئاً، تتشابك، وكنت فقط من لحظة لأخرى أرتعش فأفتح عينيّ على مصراعيهما. أخيراً، سيّدي، ومن فرط ما فتحتهما وأغمضتهما، نمت.

لم أدر كم من الوقت نمت عندما سمعتهم يدخلون حجرتي فشعرت بهم يخضّونني من كتفي.

– Subito, Sobito (هيّا، على الفور!)، ناداني صوت.

فقلت وأنا أجلس في سريري:

– ماذا هناك، سيّدي؟

– Non ce niente ma bisogna, seguir me.

فهمت على وجه التّقريب أن ذلك الرّجل يأمرني بأن أتبعه.

– وإلى أين يجب أن أتبعك؟ سألت.

– No capisco, avanti ; avanti (لا أفهم، تقدّمْ! تقدّمْ!).

– ها أنذا، ها أنذا، اللّعنة! هل ثمّة خطر حريقٍ لتستعجلني هكذا؟

– . avanti ; avanti (تقدّمْ! تقدّمْ!).

– عفواً عفواً، لكنّني لن أترك آلتي هنا. أنا لا أحتمل أن يحصل لها سوء، وآمل أن لا يكون محظوراً عليّ أخذ آلتي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أشار علي اللّص بأنْ لا، لكن عليّ أن أُسرع.

وضعت آلتي على ظهري فقلت له إنّني جاهز.

عندئذ مشى أمامي، فقطع بي عدّة أروقة ثمّ نزل سلّماً وفتح باباً، فألفينا نفسينا في الحديقة. كان النّهار بدأ يبزغ.

لا يُمكنني سيّدي، أن أُحدّثكم عن كثرة ذهابنا وإيابنا إلى أن دخلنا أخيراً أيكة. وفي المكان الأكثر تعتيماً لمحنا مدخل مغارة. كان ثمّة لصّ يحرسها سلفاً، فدفعوني عبر مدخلها.

اعتبرتها مسكني المؤقّت وجعلت، جاسّاً، أتعرّف على مكوّناتها، فأحسست فجأةً بأحدهم يمسك بكفّي. كدت أصرخ، لكنّ الكفّ التي لامستني كانت ناعمة، فعرفت على الفور أنّها ليست كفّ لصّ.

- سكوتاً، قال لي صوت سائغ.

- لن أتفوّه بكلمة، يا آنسة.

- ضع آلتك هنا.

فعلتُ.

- حسناً، ماذا يحدث؟

- ما يحدث أنّ فيلقاً كاملاً يحاصرهم، وأنّ إرنست هو من يقود ذلك الفيلق.

- أوه، يا له من شهم، إرنست ذاك!

- أتعرف كم يُحبّني؟ لقد تبعنا من سيينّا إلى هنا. يا لسعادتي بسجنك يا سيّد لويه.

- نعم، هي سعادة كبيرة، قلت.

- وأنا، مع ذلك، من كنت صاحبة الفكرة.

- كيف تكونين صاحبة الفكرة؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- بالتّأكيد؛ فقد قلت لهم إنّني لا يمكنني أن أرقص دون موسيقيّ، فجدّوا في البحث إلى أن عثروا عليك.

- كيف! إليك إذن أنا مدين بـ...

- لي أنا، سيّدي العزيز، ولي وحدي. هذا عدا أنّني، بفضل ألماسة خاتمك، استطعت أن أترك في كلّ مكان علامة عن مسار رحلتنا.

- لكن كيف حصل أن اجتمعنا معاً في هذه المغارة؟

- لأنّ هذا هو المكان الأكثر عمقاً في الحديقة، وهو بالنّتيجة آخر مكان يأتون للبحث فيه عنّا. وثمّة، علاوةً على ذلك، بابٌ يُفضي على وجه التّرجيح إلى ممرّ تحت أرضيّ، وقد يكون مخرجه في البرّيّة.

- حسناً، يبدو لي يا آنسة أنّه سيكون أكثر حذراً أن نفرّ من ذلك الباب.

- أجل، ذلك صحيح، لكن ليس ثمّة سوى مانع مشؤوم واحد، وهو أنّ الباب مُقفل.

سمعنا طلقة بندقيّة.

- اسمعي، يا آنسة، صرختُ.

- حسناً، لقد اندلعتْ، قالت زيفيرين.

- أوه، يا إلهي، أين سنختبئ؟

لكن بدا لي أنّه ما كان من الممكن أن نكون مختبئَين بطريقة أحسن من تلك.

- الآنسة زيفيرين، قلت، أرجو ألّا تتخلّي عنّي.

- أنا أتخلّى عن صديق، أبداً! غير أنّ لي شرطاً، أتسمع؟ أتسمع؟

تضاعف الرّشق بالنّار كما لو كانوا في مجابهة.

- أيّ شرط يا آنسة؟ لك ما تشائين.

- إن سألك السيّد إرنست عن علاقتي بذلك الوحش، تُجبه أنّها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت دائماً علاقة شريفة، وأنّني لم أستسلم له أبداً.
- لكنّه لن يُصدّق، يا آنسة.
- أنت رجل ساذج يا سيّد لويه، هو سيصدّق كلّ ما أريده أنا، لأنّه يُحبّني.
- يا آنسة، صحت وأنا أُمسك بها من كفّها، يبدو أنّ إطلاق النّار يتضاعف.
- هذا أحسن، أحسن، أجابت الآنسة زيفيرين.
كانت الفتاة أشبه ما تكون بلبؤة.
أردتُ الاقتراب من باب المغارة.
- Dietro, Dietro، صاح الحارسان. فهمت بالإشارة أكثر ممّا فهمت من الكلمة، أنّ ذلك يعني إلى الخلف، فسارعت بالتّقهقر.
كانت الأمور تزداد سخونة، لحظة بلحظة. كنت منذوراً، سيّدي، لحضور معارك. في البحر كما في البرّ تُلاحقني المعارك.
- يبدو أن الطّلقات تقترب، قالت الآنسة زيفيرين.
- أنا خائف من ذلك، يا آنسة، قلت.
- لكن، بالعكس، عليك أن تكون سعيداً، فهم يهربون.
- أنا سعيد يا آنسة، لكنّني أودّ أن لا يفرّوا من هذه الجهة.
كنّا، سيّدي، نسمع صرخات وكأنّهم يذبحون بعضهم بعضاً؛ وكان ذلك أمراً جائزاً، لأنّهم كانوا يذبحون بعضهم بعضاً بالفعل، كما استطعنا أن نرى ذلك، بعدئذ. كان كلّ ذلك مُختلطاً بطلقات نارية وبأصوات النّفير ودحرجة البراميل. وصلت رائحة البارود إلى المكان حيث كنّا. أصوات الطّلقات تقترب منّا شيئاً فشيئاً. وكنت متأكّداً من أنّ المتحاربين ليسوا أبعد عن المغارة بأكثر من مائة خطوة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فجأةً سمعنا تنهيدة ثمّ صوت جسد يسقط، فأقبل أحد حارسَينا ليتدحرج مُتخبّطاً في المغارة. كانت طلقة طائشة قد أصابت ذلك الرّجل. وبما أنّه سقط في شعاع الضّوء الذي ينعكس في مدخل المنفذ تحت-الأرضيّ، فلم تفُتنا أيٌّ من عذابات احتضاره. وعليّ أن أقول، مع ذلك، إنّ الآنسة زيفيرين، وهي تراه يُحتضر، أمسكت بكفّي مُرتعشة.

- أوه يا سيّد لويه، كم هو رهيب أن ترى شخصاً يموت!

في تلك اللّحظة سمعنا صوتاً يصرخ: «قف أيّها البائس، قف! انتظر».

- إرنست، قالت الآنسة زيفيرين، هذا صوت إرنست، فانطلقت نحو مدخل المغارة. في تلك اللّحظة نفسها، أتى القائد مُسرعاً يُسربله الدّم.

- زيفيرين، صاح، زيفيرين، أين أنت؟

لكنّه ما دام قادماً من وسط ضوء النّهار الباهر، وبما أنّ عينيه لم تكونا بعدُ ألِفتا العتمة، ما كان بإمكانه أن يرانا.

أشارت عليّ زيفيرين بالتزام الصّمت.

ظلّ القائد على تلك الحال للحظة وكأنّه مبهور، ثمّ أغطس عينيه في عمق المغارة فرآنا.

ما قام سوى بقفزة واحدة فأدركنا. كانت قفزة نَمِر.

- زيفيرين، لماذا لم تُجيبيني عندما ناديتُك؟ تعالي، تعالي.

أمسك بها من ذراعها وأراد سحبها في اتّجاه الباب الموجود في عمق المغارة.

- أين تريد اقتيادي؟ أين تريد الذّهاب بي، صاحت الفتاة المسكينة.

- تعالي معي، تعالي.

- لكنّني لا أريد الذّهاب معك، قالت وهي تُقاوم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- كيف! لا تُريدين الذّهاب معي؟
- كلّا، لماذا أتبعكَ أنا؟ أنا لا أحبّك. أنت اختطفتني قسراً، ولا أريد أن أمشي معك. إرنست، إرنست، في هذا الاتّجاه، في هذا الاتّجاه.
- إرنست، إرنست! تمتم قاطع الطّريق، أنتِ إذن من كان يخوننا؟
- سيّد لويه، إن كنت رجلاً، صاحت زيفيرين، فتعالَ لتنقذني، تعال لنجدتي.

رأيت شفرة خنجر تلمع، سيّدي. لم يكن لي سلاح. أمسكت بذراع آلتي ورفعتها مثل صولجان، وهويت بضربة قويّة على رأس اللّص ممّا أدى إلى انكسار التشيلو فبقي رأسه عالقاً وسطه.

وإذا بالقائد، إمّا بسبب قوّة الضّربة، أو لأنّه فوجئ برؤية رأسه عالقاً بآلة التشيلو، يفتح ذراعيه ويطلق زئيراً اهتزّت من قوّته المغارةُ بكاملها.

صاح صوت خارج المغارة:
- زيفيرين، زيفيرين!

فصاحت الفتاة وهي تنطلق في اتّجاه مدخل المغارة:
- إرنست، إرنست!

صحتُ بدوري، وأنا أتبعها، مرعوباً أنا نفسي من الضّربة التي كنتُ سدّدتها لتوّي:
- الآنسة زيفيرين!

سبق لي أن قلت لكم، سيّدي، إنّ تلك الفتاة كانت رشيقة مثل ظبية. كانت أضحت سلفاً في أحضان ضابطها. ذهبت لأختبئ خلفهما.
- هناك، هناك!

هكذا صاح الضّابط الشّاب وهو يُري مدخل المغارة لحوالى اثني عشر من الجنود الذين التحقوا به لتوّهم، فسارعوا إلى داخل المغارة، وأضاف:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- هناك، هناك! أحضروه حيّاً أو ميّتاً.

عادوا للظّهور سيّدي، بعد خمس دقائق. لم يعثروا على شيء عدا آلة التشيلو التي كان يُرى فيها الثقب الذي أحدثه رأس القائد. كان قاطع الطّريق قد فرّ من الباب الثّاني.

- انظر يا إرنست، هذا هو مُنقذي. كان الخنجر موجوداً سلفاً هنا، عندما أتى لنجدتي. ثمّ أرتنا صدرها؛ ذلك أنّني لم أشأ قطّ أن أستسلم لذلك القائد الوحش؛ وكان هو يُفضّل من جهته أن يقتلني على أن يراني في عهدة رجل آخر.

- أصحيح؟ سأل إرنست.

- آه، يا صديقي، كيف يمكنك أن تشكّ في ما أقول؟ اسأل بالأحرى السيّد لويه.

- قدّرتُ أن الأوان قد حان، فاقتربت.

- سيّدي، قلت له، أُقسم لك...

- حسناً، قال إرنست، بلا يمين. أتعتقد أنّني لا أُصدّق ما تقول؟

- أنا أعتقد، قلت، إن لم يكن لك رأي آخر، سيّد إرنست، أنّ القائد، ما دام قد أفلت منّا، فإنّ خير ما يمكننا القيام به هو أن نسوق الآنسة زيفيرين إلى مكان آمن.

- أنت على حقّ، سيّد لويه، تعالي يا زيفيرين.

سلكنا طريق القصر، لكن، قبل الوصل إليه، لزمنا أن نعبر ميدان المعركة، فرأينا، سيّدي، ما يقرب من اثني عشر قتيلاً. وأسفل السّلم الخارجيّ، كانت جثّة تقطع الطّريق.

قال لجنديّين قائدُ لواءٍ هرِمٌ كان يمشي قدّامنا:

أزيحوا من هنا هذه الجيفة!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أدار الجنديّان الجثّة التي كانت ملقاة على وجهها، فميّزتُ آخرَ فرد من آل بومانوار.

مررنا بالقصر محضَ مرورٍ، فترك فيه إرنست حرساً ثمّ ركبتُ عربة برفقة الآنسة زيفيرين، وخَفَرنا السيّد إرنست، على رأس اثني عشر رجلاً مدجّجين بالسّلاح. ومن النّافل أن أقول، سيّدي، كما تتفهّمون، إنّني استعدت المائة ريال وبندقيّتي وجراب صيدي.

لم آسف إلّا على آلتي. أمّا الآنسة زيفيرين، فبدا أنّها لم تكن تتأسّف على شيء، لأنّها كانت كمِثل المجنونة من الفرح.

وبعد ما يقرب من ساعة من المشي، رأيت في الأفق مدينة كبيرة بقبّة عظيمة.

قلت وأنا أُخرج رأسي من البُوَيب:

- دون تطفّل، يا سيّد إرنست، هل بإمكاني أن أسألك ما تلك المدينة؟

- تلك المدينة؟

- أجل.

- تلك، أمامنا؟

- تلك التي أمامنا، سيّدي.

- إنّها مدينة روما!

- ماذا؟ هي روما؟ صحيح؟

- دون أدنى شكّ.

- حسناً، سيّدي، قلت، أنا في غاية السّعادة، بالفعل في غاية السّعادة.

ذاك هوّ التّعبير، فلطالما راودتني رغبة كبيرة في رؤية روما.

بعد ساعتين دخلنا روما مُظفّرين، سيّدي، فقد كانت تلك روما بالفعل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- وهل رأيت البابا؟ سألت، لأنّني أتذكّر يا سيّد لويه أنّ تلك كانت إحدى رغباتك أيضاً.

- أنت تعرف، أجاب السيّد لويه، أنّ ذلك العجوز المحترم كان عندئذ بفونتنيبلو، لكنّني رأيته عندما عاد، كما رأيت من خلَفوه، لأنّني، بفضل السيّد إرنست، أصبحت عازف الكونترباص الرابع في مسرح ديلا فيلّا، فظللت هناك حتّى سنة 1830؛ ما جعلهم، عندما عُدت سنة 1830 إلى مرسيليا، سيّدي، وبما أنّني كنت انصرفت منذ عشرين سنة، يرفضون إعادتي لموقعي في الجوقة، معتبرين إيّاي مجرّد مارتان غِيرْ زائف[1].

- والآنسة زيفيرين؟

- سمعتُ، سيّدي، أنّها اقترنت بإرنست الذي لم أعرف قطّ اسم شهرته، وأنّها أضحت سيّدة شريفة.

- والقائد، ألم تسمع عنه أيّ شيء بعد ذلك؟

- بلى، سيّدي، فبعد ثلاث سنوات أُلقي عليه القبض في مسرح ديلا فيلّا، وتألّمت لرؤيته يُشنق.

وهكذا، سيّدي، لأنّني نسيت أن أفرغ بندقيّتي، التي استمرّت لمدّة طويلة في إطلاق النّار على طير شحرور، ألفيتُني أشاهد إيطاليا، وأبقى في روما لمدّة عشرين سنة.

قال ميري وهو يُخرج ساعته:

- أتعرفون كم السّاعة الآن؟ إنّها الرّابعة صباحاً، وهي ساعة مناسبة للإخلاد إلى النّوم.

---

(1) مارتين غيرْ Martin Guerre مُزارع غادر قريته وعائلته لمدّة طويلة، وعندما عاد رفع دعوى قضائيّة ضدّ شخص آخر كان قد انتحل هويّته لمدّة اثنتي عشرة سنة... ممّا أصبح يُعرف في فرنسا بقضيّة مارتان غير، وقد وقعت سنة 1560.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فقال السيّد لويه، وهو يشير إلى جادان ومدعوَّينا الآخرَين، وكانوا جميعاً يشخرون:

- لحسن حظّ هؤلاء السّادة أنّهم قطعوا شوطاً في نومهم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من «المعجم المطبخيّ الكبير» لألكساندر دوما

الحجل الروميّ[1]

يُدعى بالفرنسيّة Bartavelle، وهو أحد أسماء الحجل الإغريقي؛ أضخم من الحجل الأحمر الذي هو شديد الشّبه به، ظهره رماديّ مشوب بصُهبة، وصدره رماديّ وبطنه أصهب. هذا الطّائر المنتشر في الشّرق كلّه كما في صقلية ونابولي، لا ينزل السّهول أبداً. لحمه أبيض، يحظى بتقدير كبير، بالرّغم من طعمه الصّمغيّ المرّ بعض المرارة. يوجد بالخصوص في جبال الألب، وأحياناً في أودية مناطق غريزيفودان والفيينوا والفالنتينوا، الفرنسيّة. إنّه حجل من أصل أثينيّ؛ والملك الطّيب رنيه الآنجيّ[2] هو من استقدم هذه الطّريدة الرّقيقة لمنطقته العزيزة. ويضيف واحد من آل سكاليجي (عائلة حكمت فيرونا في القرون الوسطى)[3] أنّ أصل الحجل الرّومي من جبل الأولمب، وأنّه حافظ على مشاعر العظمة، علماً أنّه لا يجد

---

(1) كان ألكساندر دوما قد رتّب محتويات معجمه المطبخيّ الكبير، الذي نقتطف منه هذه الصفحات، متّبعاً ترتيب حروف الهجاء الفرنسيّة. وإذ ألغت الترجمة، بطبيعة الحال، هذا الترتيب، لم نجد ضرورة لتقديم المحتويات باتّباع تسلسل حروف الهجاء العربيّة، فالمنشود هو تقديم عيّنات عن تصوّر الكاتب لهذا الفنّ والتقريظ الذي يقدّمه للذائقة (المُراجع).

(2) رنيه الآنجيّ René d'Anjou (1409–1480)، نسبةً إلى المنطقة الفرنسيّة آنجو Anjou، التي كان هو دوقها قبل أن يعتلي العرش. لُقّب من طرف رعاياه بـ«الملك رنيه الطّيب» وحمل عدّة ألقاب سياديّة: كونت غيز ودوق بار وملك نابولي وملك صقلية، إلخ.

(3) التعريفات والإيضاحات المضافة بين قوسين على امتداد هذا النصّ وضعها الناشر الفرنسيّ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

راحته إلاّ عندما يكون في قمم الأماكن العالية، ليحكم فيها بأبّهة. وقد قال الأب بواريه إنّ بين الحجل الرّومي والحجل العاديّ ما يماثل الفارق الذي نلاحظه بين الخوخ والكستناء. ويُقدّر سيرانو دو بيرجيراك[1] أنّ الحجل الرّومي مقارَناً بفراخ الحجل العاديّ هو كالكاردينالات بالمقارنة مع الرّهبان العاديّين البسطاء. وأخيراً، يقول السّيد دو لا رينيير (وهو أحد ذوّاقي الشّطر الأوّل من القرن التّاسع عشر) إنّ الحجل الرّومي يستحقّ تقديراً عميقاً، فينبغي ألّا نأكله إلاّ جاثين على رُكبنا. وينصح مؤلّف «مذكّرات السّيدة دو كريكي»[2] بتشحيم الحجل الرّوميّ قليلاً، أو حتّى بلفّه بشرائح من الشحم، إن كان بعد حديث السّن، وأن يُقدَّم طبقاً مشويّاً لذيذاً. بيد أنّ السّيد فويمو وضع مبدأ مفاده أنّه ينبغي عدم تشحيم الطّريدة أبداً، ونحن لا يسعنا إلّا أن نمتثل لرأي هذا الذوّاق العظيم.

دجاجة الأرض، طائر الشّنقب، فراخ دجاجة الأرض

تحتلّ دجاجة الأرض الصّدارة بين الطّيور السّوداء، وهي ملكة المستنقعات. لأجل رائحتها السّائغة ولطافة جوهرها ورقّة لحمها، يسعى لها ذوّاقو الفئات كلّها. لكنّها ليست، للأسف، سوى طائر عابر.

(1) سيرانو دو برجيراك هو اسم بطل مسرحيّة شهيرة حملت الاسم نفسه عنواناً، استوحى مؤلّفها الكاتب الفرنسيّ إدمون روستان Edmond Rostand (1868–1918) أحداثها من حياة شخص وُجد فعلاً، اسمه الكامل هو هيركول (هرقل) سافينيان سيرانو دو بيرجيراك Hercule Savinien Cyrano de Bergerac (1619–1655) (المُراجع).

(2) تُدعى أيضاً مركيزة كريكي Marquise de Créquy (1704–1803)، مركيزة فرنسيّة لها مذكّرات يُنسَب تحريرها إلى موريس كوزان دو كورشان Maurice Cousin de Courchamps (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لكنّنا نأكلها لأكثر من ثلاثة أشهر من السنة. دجاج الأرض المشويّ على السفّود هو، بعد التّدرُج، الشّواء الأكثر تميّزاً. يحظى هذا الطّائر الثّمين بإجلال كبير، فيُشرَّف مثلما يُشرّف حيوان اللّامة الأعظم. تَستقبل رُقاقاتُ الخبز المحمّصة، المبلولة بعصير ليمون جيّد، بقاياه، وتؤكل بتوقيرٍ من قبل الهوّاة المولعين.

هو ذا إيليازار بليز[1]، القنّاص الكبير والطّباخ الماهر، يدلي برأيه في دجاجِ الأرض: «دجاجة الأرض طريدة رائعة عندما تكون سمينة. هي دائماً الأحسن في فترات الصّقيع. لا تُفرَغ أبداً. تُهرس في مِدق، وتُعدّ منها هريسة لذيذة. وإذا ما وضعنا على تلك الهريسة أجنحة دجاج أرضٍ مُشحّمة، حصلنا على أعلى نتيجة في عِلم الطّبخ. يُقال إنّه في غابر الزّمان، عندما كانت الآلهة تنزل إلى الأرض، لم يكن غداؤها أيّ شيء آخر غير ذلك. ويجب عدم التّبكير بأكل دجاج الأرض، لأنّ نكهته لن تكون قد استوت بعد، وستحصلون، إن فعلتم، على لحم بلا طعم ولا نكهة. أمّا إن حُضّرت مجزّأة، فإنّ شذاها يتناغم بشكل جيّد مع شذى الكمأة. وعندما تُسفَّد مع قطعة من الشّحم، يجب أن تبقى تحت مراقبة القنّاص، لأنّ دجاجة أرضٍ مُفرط في طبخها لا قيمة لها. أمّا دجاجة أرض مطبوخة كما يجب، وموضوعة على الرّقاقات المحمّصة المذهّبة والدّهنية، فهي إحدى القطع الأكثر رقّة والأروع طعماً التي يُمكن لرجل ذوّاق أن يتناولها. وإذا ما حرص على ريّها بنبيذ بورغونيّ سائغ، كان بإمكانه أن يفخر بأنّه منطقيٌّ ممتاز».

ذات يوم تناول قاضٍ من محكمة أفينيون عشاءه عند مُحافظ المدينة. وبصفته المزدوجة ذوّاقاً متميّزاً وقنّاصاً مِقداماً، كان يقوم بواجبه على

(1) إيليازار بليز Eléazare Blaze كاتب فرنسي ومولع كبير بالصّيد (1788–1848).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المائدة دائماً بمنتهى الصّدق. بعد أن شرب فنجان قهوته لتسهيل الهضم، وفيما كان يهمّ بشرب الكأس الصغيرة الثّالثة ليُسهّل مرور القهوة، دنا منه مُضيفه وسأله إن كان هنأ له عشاؤه، فأجابه:

- هذا مؤكّد...

بدت تلك الإجابة لمضيفه مصحوبة بتحفّظات.

- لقد تعشّيتُ بشكل جيّد.

- «جيّد» لا تعني «ممتاز».

- بلى، بلى، لقد تعشّيت بشكل ممتاز.

- أنا أخمّن، سيّدي القاضي، أنّك تأسف على دجاجتَي الأرض الجميلتين تينك اللّتين لم تُقَطّعا بعد.

- الحقّ، لو قُطّعتا لأكلت منهما نصيبي.

- انتظر للحظة، سنقدّمهما لك.

- بعد القهوة؟... وبعد المشروب؟... مستحيل.

- لا شيء مستحيل على بطون مثل بطنك.

ثمّ أصدر المحافظ الأمر فنُصبت مائدة في الغرفة الصّغيرة المجاورة وقدّمت دجاجتا الأرض، فأكلهما القاضي مغتبطاً أيّما اغتباط.

يُعتقَد أنّ القدامى لم يعرفوا دجاجة الأرض؛ وهي في حجم الحجل، منقارها بائن بيّن الطّول، ريشها متنوّع بشكل رائع، وعيناها شديدتا السّعة. تنتشر دجاجة الأرض في العالَم القديم كلّه، كما نعثر عليها في أمريكا أيضاً. تذهب صيفاً إلى سويسرا ومنطقة السافوا وإلى جبال البيرينيس والألب. تُصطاد صباحاً على مداخل الغابات. تحليقها مضطرد وسريع. هي بلهاء لا ترى شيئاً، حسبَ ما يُقال، إلاّ عند الغسق. لحم هذا الطّائر ذي القائمتين السّوداوين مُمتاز مثل لحم الطّيور البريّة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غير أنّها لا تُوافق ذوق النّاس جميعاً؛ فهي لا تلائم البطون الرّديئة ولا المَمرورين ولا السّوداويّين، وإنّما من يُكثرون من الحركة. وهي أحسن ما تكون في فصل الخريف. يقال إنّ كلّ شيء في دجاجة الأرض طيّب؛ وإنّها الطّريدة التي يُقيم لها القنّاصة أكبر اعتبار. رائحة هذا الطّائر وطعمه لا يُعجبان الكلاب التي يجد القنّاصة صعوبة في جعلها تأتيهم بطريدة دجاجة الأرض.

دجاجة الأرض أو طائر الشّنقب أو فرخ دجاجة الأرض، شواءً

خذوا أربع دجاجاتِ أرضٍ، ألهِبوها وجرّدوها من ريشها وأزيحوا جلدة رأسها واثنوا قائمتيها واثقبوها بمنقارها نفسه. ادهنوا النّحيفة منها بطبقة شحميّة، ولفّوا السّمينة بشرائح من الشحم، واخترقوها بسفّود صغير يُثبّت من الطّرفين. ضعوا تحت السّفود رُقاقات خبز محمّصة تستقبل الدّهن السّائل وتكون مُتبّلة بالفلفل الخشن والزيت الأخضر واللّيمون. يستمرّ شيّها نصف ساعة. بعد ذلك توضع الدّجاجات على الرُّقاقات المحمّصة.

يخنة دجاج الأرض

سفّدوا ثلاث دجاجات أرض، واقطعوا أطرافها. تصرّفوا في إعداد قِطَع اللّحم هذه كما تتصرّفون مع قِطَع لحم فراخ الحجل؛ أي أنهوا إعدادها قبل ربع ساعة من تقديمها. ضعوا قِطَع طريدتكم هذه جانباً وأضيفوا للمرق الذي تكونون أعددتموه ملعقة من خثيرة الخزامى، قصدَ تخفيف الدّسم، ثمّ ضعوا القِطَع مبسوطة على قطع ثلج أو على ماء مستخرج من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بئر وحرّكوا جيّداً المرق إلى أن تتداخل مكوّناته. وعندما يستوي اغطسوا فيه قطَع دجاج الأرض تباعاً، وضعوها في طبق التّقديم، ثمّ غطّوها بما تبقّى من المرق، وزيّنوا طبقكم برقاقات خبز محمّصة صغيرة مسحوبة في الزّبدة، وضعوا على حواشيه خثيرةً مجزّأة بأشكال متعدّدة.

يخنة دجاج الأرض على الطّريقة الملكية

«أعدّوا ثلاث داجاتِ أرض، شحمّوها واشووها على السفافيد ودعوها تبرد. ثمّ قطّعوها، وأزيلوا الجلد، وقصقصوا أطرافها لتجميلها، ورتّبوها في قدْر مع بعض المرق المركّز، وضعوها على رماد ساخن واعملوا على ألّا تغلي. افرموا ستّ بصلات خضراء مع بعض من قشور اللّيمون، ضعوا ذلك في قدْر أخرى مع نبيذ الشّمبانيا، أو دعوه يغلي ثمّ اهرسوا هياكل دجاجات الأرض وضعوها في قدركم، وأضيفوا إلى ذلك أربع ملاعق من المرق المركّز أو من خثيرة اللّحم، ثمّ دعوا ذلك كلّه يتركّز إلى النّصف، وصَفّوا المرق ثمّ ضعوا بين قطَع الدجاجات خبزاً مُحمّصاً مسحوباً في الزّبدة ثمّ أضيفوا إلى المرق عصير ليمون.» (طريقة السّيد دو كورشان)

طريقة أخرى لتقديمها مشويّة

أفرغوا دجاجات الأرض كلّيةً من ناحية ظهرها واملأوها إلى النّصف بالشحم المفتّت، مع بقدونس وبصل أخضر وثوم قصبيّ وفلفل خشن وملح. احشوها وأعيدوا رتقها. وتصرّفوا مع الباقي كما هو مذكور أعلاه. وإن كانت الوجبة مُعدّة لإنجليز فقدّموها مع مرق وخبز.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يخنة دجاج الأرض بنكهة النّبيذ

اشووا دجاج الأرض وقطّعوه وضعوه في آنية على الموقد. أضيفوا ملحاً وفلفلاً وبعض البصل الأخضر وكأساً من النّبيذ الأبيض وشرائح ليمون وزبدة. أنثروا عليها فتات الخبز المحمّص ودعوها تُطبخ على مهل لعشر دقائق.

يخنة دجاج الأرض، بطريقة طهي القنّاص

عندما تزيحون دجاجات الأرض من على السّفود، تقطّعونها وتضعونها في قدر مع دواخلها وكبدها المفروم وثوم قصبيّ وبصل أخضر ونبيذ أبيض وملح وفلفل مسحوق، وتجعلون ذلك يغلي مرّتين أو ثلاثاً وتقدّمونه على فتات خبز مُحمّص.

دجاج الأرض بالكمأة

خذوا دجاجات الأرض وألهبوها وأفرغوها من ظهرها وأزيحوا أحشاءها. وقبل ذلك تكونون حرصتم على تقشير الكمآت حسب كمّية الدّجاج التي لديكم. اعملوا على طهي الكمأة في شحم مفروم مع ملح وفلفل وأفاويه مطحونة وثوم قصبيّ وبقدونس مفروم. دعوا هذا كلّه يبرد بحيث يتخلّص من ثلاثة أرباع حرارته، وافرموا الأحشاء واخلطوها بالكمأة، واحشوا دجاجاتكم بذلك الخليط ورتّقوا ظهرها واثنوا قوائمها وشحّموها، ثمّ ضعوها على سفّود أو في قدر ودعوها تُطهى بالنّار من تحتها ومن فوقها.

طبخ سريع لدجاج الأرض

تُلهبونها وتقطّعونها، ثمّ تضعونها في قدْر مع قطعة زبدة كبيرة على

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نار مستعرة، وتضيفون بصلاً أخضر مفروماً وشيئاً من جوز الطِّيب المُفتّت وملحاً وفلفلاً خشناً، ثمّ، بعد أن تقلّبوها لثماني دقائق أو عشرٍ، تُضيفون عصير ليمونٍ ونصف كأسٍ من النّبيذ الأبيض وبعض فتات الخبز المُحمّص. تتركونها تنضج إلى أنّ تغلي مرّتين أو ثلاثاً ثمّ تقدّمونها.

دجاج الأرض بمرق البيريغو

كردِسوا[1] من أجل طبق أوّل ثلاث دجاجات أرض وضعوها في قدر وغطّوها بشريحة من الشحم، ثمّ اسقوها بدَسيلترين[2] من نبيذ ماديرا وأربعة دَسيلترات من «الموربْوا» (مرق البصل والجزَر واللّفت والتوابل)، ثمّ اطهوا الدّجاجات ونشّفوها وفكّوا وثاقها. ضعوها في صحن في شكلِ مثلّثٍ واسقوها بمرق البيريغو بنكهة لحم دجاج الأرض. (وصْفة طبخ جول غوفيه).

البطّ

هناك اثنان وأربعون نوعاً من البطّ، يتميّز من بينها البطّ المسْكيّ، الشهيُّ اللّحم. لكن يتعيّن قطع منْبت ذنبه قبل طبخه، وإلاّ فإنّه سيتّخذ رائحة مسْك قويّة جدّاً يكاد يُصبح معها من غير الممكن أكله. يُثمَّن بالخصوص لحم البطن الذي تسمّيه العامّة «فتائل». وتُصنّف طيور الحذف الصّغيرة والسّمينة ضمن نوع البطّ البرّيّ، وهي ألذّ وأشهى. لقد شمل الإمبراطور بولص الأوّل[3] بعفوه بولندياً كان قد وجد وسيلة ليُرسل له من تولوز بفرنسا كلّ أسبوعٍ فطائر بكبد البطّ الدسم لا تُفسِد

(1) كردَسة الدجاجة هي شدّ رِجليها وجناحيها لطَهيها (المُراجع).

(2) الدّسيلتر هو عشر الليتر (المُراجع).

(3) بولص الأول (1754–1801) امبراطور روسيا من 1796 إلى 1801.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المسافة طراوتها أبداً. وقد قام فوكانسون[1] الشّهير، سنة 1741، من بين اختراعات آليّة كبيرة أخرى، بصُنع بطّتين تسبحان وتنْقران وتأكلان وتبدوان وكأنّهما تَهضِمان الطّعام.

من بين كلّ الطّيور، البطّ هو الأقرب إلى الإوزّ، وهو الألذّ والأسهل في الهضم. والبطّ مثل الإوزّ، فيه البرّيّ وفيه الدّاجن. البطّ الدّاجن هو الأسمن، ولنا منه تنويعات، مثل بطّ شمال أفريقيا، الذي هو الأسمن والأقلّ لذّة والأكثر اكتنازاً برائحة المسْك. لكن إن نحن هجّناه بغيره حصلنا على نوع مُبرّأ من الطّعم السّيّئ الذي يتّسم به بطّ شمال أفريقيا. ومن هذا النّوع المهجّن تُولّد فراخ بطّ منطقة روان، التي تنال تقديراً كبيراً بسبب سمنتها وجودتها. البطّ البريّ يكاد لا يُؤكل إلاّ مشوياً. غير أنّه يُعدّ منه طبق أوّل سأحاول أن أُعرّف به.

البط البرّي مشوياً

قبل أن تشتري بطّتك، افحصها. انظر إن كانت قائمتاها رقيقتين وبلون مُبهج وغير جافّتين. وكي تعرف إن كانت ذُبحت منذ مدّة طويلة، افتح منقارها وشمّ لترى إن كانت تنبعث منها رائحة كريهة، ثمّ جسّ منْبت ذنبها وبطنها؛ إن كانا صلبين وإن كانت البطّة ثقيلة، فذلك دليل على أنّها سمينة وطريّة. إن كانت متمتّعة بهذه الصّفات كلّها ابتعْها.

وقد لاحظتُ أنّ الإناث أشهى من الذّكور، رغم أنّ ثمن الذّكور أغلى بصفة عامّة.

جرّدوا البطّ من ريشه وزغبه واقطعوا الجناحين قريباً من الجسد،

(1) جاك فوكانسون Jacques Vaucanson (1709--1782)، مُخترعٌ وعالمٌ بالميكانيكا فرنسيّ، اخترع آلات ذاتيّة الحركة، كثيرة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثمّ قطّعوا أعناقه وأفرغوه وألهبوه. أزيلوا جلده، اثنوا قوائمه وكردِسوه وافركوه بكبده وضعوه على السّفود واجعلوه ينضج قليلاً ثمّ أزيلوه من على السّفود شبه نيء وضعوه في طبق وقدّموه مع ليمونتين كاملتين.

شرائح البطّ البرّيّ بالبرتقال

تأخذون ثلاث بطّات، تقطعون منها شرائح لحم، ثمّ تُزيحون الجلد وتُملّحون مع ثوم قصبيّ وبقدونس وشيء من الفلفل الخشن، إلخ. عند التّقديم، صبّوا ملعقتَي زيت في مقلاة، وضعوا الشّرائح فيه واقلبوها ثم نشّفوها وضعوها في طبق، وقدّموها مصحوبة بمرق بالبرتقال.

بطّ باللّفت والجزَر والبصل والشحم

أفرغوا بطّة أو بطّتين، اثنوا قوائمهما واجعلوها إلى الدّاخل كما يُفعل مع الدّجاج، ثمّ ضعوا زُبدة في قدر وألقوا فيها بطّتيكما حتّى تحمرّا. أعدّوا كمّية كافية من اللّفت الصّغير المجزّأ إلى قطع متساوية، شيّطوها في زبدة البطّتين ثم نشّفوها واخلطوها بمرق أو بماء، واحذروا أن تُحبحب. أضيفوا ملحاً وفلفلاً وحزمة بقدونس وثوماً قصبيّاً، وعطّروا بفصّ ثوم وبورقة رند. اجعلوا البطّتين تُطهيان في هذا المرق. وعند مُنتصف طبخهما أضيفوا إليهما قطع اللّفت لتُطبخ على نار هادئة، واعملوا على تقليب البطّتين دون سحق قطع اللّفت. عندما يتمّ الطّبخ خفّفوا دسم يخنتكم، وقدّموا البطّتين.

اليحمور

هو نوع صغير من فصيلة الأيائل، يشبهه كثيراً، لكنّه أكثر أناقة منه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ويبدو أرشق وأكثر حيويّة. اليحمور حيوان برّيّ شديد التّوحش، ويصعب كثيراً تدجينه. فقد حاولوا تدجينه بتعهّده صغيراً، لكنّ طبيعته الحادّة والمحبّة للحرّية سرعان ما عادت للظّهور مع أوّل مُناسبة، فركبته عندئذ نزوات خطيرة تُجاه الأشخاص الذين كرهَهم.

يتمّ تمييز عمر اليحمور، مثل عمر الأيّل، بعدد شُعَب قرنيه. ولكي يكون لحمه ليّناً وذا طعم، يجب اقتناء ما تراوح منه عمره بين ثمانية عشر شهراً وثلاث سنوات، وذلك لأنّ لحمه يكون آنئذ طيّباً جدّاً، رغم أنّ جودته مشروطة أيضاً بالأمكنة التي يعيش فيها. أفضل أنواع حيوان اليحمور تأتينا من مناطق السيفين والأردين وروبرغ والمورفان بفرنسا. لكنّ اللّحم الأجود، دون مُنازع، هو لحم صغير اليحمور أو صغير الظّباء، عندما يكون عمرهما بعدُ تسعة أشهر أو عشرة.

والآن نشير إلى مختلف الطّرق التي تُعدّ بها هذه الطّريدة التي يعرفها الصّيادون ويسعون إليها أكثر من غيرها.

رُبع اليحمور مشوياً

انقعوا رُبع جسد يحمور في زيت شفّاف ونبيذ أحمر وبقدونس وفلفل وقطعِ بصل. أزيحوا بعد ذلك جلد البطن وخارج الفخذ وشحّموهما قليلاً. لُفّوا القطعة بورق مدهون بالزبدة واطبخوها ثمّ قدّموها مجزّأة إلى قطع كبيرة، مع مرق مُفلفل.

يخنة اليحمور

ادهنوا بقطعة شحم كبيرة جزأَي صدر يحمور، وضعوهما في قدر مع بقدونس وشحم مُذاب، ثمّ اطبخوهما مصحوبَين بحزمة من الأعشاب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المُعطّرة[1] والملح والفلفل والرّند واللّيمون الأخضر. عندما ينضج ذلك كلّه، هيّئوا مرقاً تعْقدونه بدقيق مقليّ وقليل من الخلّ وقبضة كَبَرٍ[2] وبضع زيتونات منزوعة النواة، ثمّ قدّموا ذلك مصحوباً بفتات خبز محمّص.

فخذ اليحمور مشويّاً

بعد إزالة جلد فخذ يحمور وتشحيمه بشحم رقيق، تنقعونه لبضع ساعات في ملح وزيت زيتون، ثمّ تتركونه لمدّة ساعة يُشوى على سفّود، مع سقيه بذلك الخليط الذي نُقّع فيه والذي تصنعون مرقاً منه ومن عصير بصل أخضر.

شرائح اليحمور المقليّة السريعة الإعداد

أزيلوا الجلد وشحّموا وملّحوا واقلوا في الزّبدة على نار متأجّجة. هيّئوا الشرائح وضعوها في الصّحن وقدّموها مصحوبة بمرق مبهَّر.

شرائح اليحمور بالثوم والرند

تنزعون لحم كتفين وتُزيحون الجلد وتقطّعونه في شكل شرائح ثمّ تطهونها في مقلاة مع زُبدة مُذابة وملح وثوم ورند. ضعوا الشّرائح لحظة تقديمها على نار متأجّجة قليلاً، وقلّبوها، ثمّ أضيفوا زُبدة وزيّنوا الطّبق بعصير الحصرم.

---

(1) هي البقول المستخدمة في تطييب الطعام كالبقدونس والطرخون والكزبرة والنعناع (المراجع).

(2) نبات تُخلّل أزهاره وثماره (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مكمورة[1] اليحمور

إن كان اللحم نُقِّع، فلا تنقعوه إلاّ ليوم واحد، ودعوه ينضج لخمس ساعات على جمر. ثمّ ركّزوا المرق وصفّوه. أضيفوا إليه قَدراً كافياً من قرون الأيّل لصنع خثيرة. دعوه يبرد وغطّوا به قطعة لحم يحموركم وقدّموهما.

التُّذرُج

نوع من الطّيور من جنس الدّجاجيات. كان الملك كريسوس[2] جالساً ذات يوم على عرشه، ملابسه مرصّعة بالجواهر والأحجار الكريمة، وعلى رأسه تاجه، وهو ملفوف في الذّهب والأرجوان. سأل سولون[3] إن كان سبق له أن رأى شيئاً جميلاً للغاية. فأجابه الفيلسوف:

«نعمْ. رأيت التُّدرُج والطّاووس».

اكتُشِف التُّدرُج واستُقدم من قِبل المغامرين اليونانيين القدامى على شواطئ الـ «فاز»، التي يستقي الطّير منها اسمه[4]. ثمّ انتقل من اليونان إلى روما، ومنها إلى باقي القارّة الأوربية.

ربّما كان لحم التُّدرُج ألذّ لحم يمكن العثور عليه وأطعَمه. يُقدّم مشويّاً أو مطبوخاً على الجمر، في شرائح مقليّة أو قطع مُجزّأة. عندما نُعدّه على نار الجمر يمكننا أن نُقدّمه في مرق الكمأة أو مرق البيريغو أو في يخنة زيتون

---

(1) من التكمير، وهو طهي اللحم على نار هادئة بعد تنقيعه بالملح أو الخلّ مع أعشاب معطّرة (المُراجع).

(2) هو ملك ليديا، البلد الأسيوي القديم الذي يقع على بحر إيجه. ولد كريسوس حوالى 596 قبل الميلاد، وكان غنيّاً ويعيش مُقسّماً حياته ما بين الملذّات والحروب والفنون.

(3) سولون (640–558) قبل الميلاد. رجل دولة إغريقيّ، وشاعر وفيلسوف.

(4) اسمه بالفرنسية «FAISAN».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أو على كرنب مملّح مخلّل. وقد نظم فولتير[1] مؤلِّف ملحمة «الهنريّة»[2] قصيدةً في التُّدرُج قيمتها أرفع من قيمة قصيدته في هنري الرّابع. وهي منظومة من بيت واحد:

«طير الفاز غذاءٌ للآلهة»

وقد قدّم بريا-سافاران[3] حول هذا الطّائر الرّائع واحداً من أحسن تأمّلاته: «التُّدرُج، قال، هو لغز لا ينكشف إلاّ للمُريدين؛ هم وحدهم يُمكنهم أن يتذوّقوه بكلّ طيبته».

لكلّ مادّة أوجُ نكهتها. بعض الموادّ تبدو نكهتها حتّى قبل نُضجها مثل زهرة الكَبَر ونبات الهليون والحجل الرّماديّ وبعض أنواع الحمام، الخ. وموادّ أخرى تفوح نكهتها عندما تكون في كامل استوائها المقدّر لها من أمثال الشّمام وغالبية الفواكه والضأن والثّور واليحمور والحجل الأحمر. وأخرى، أخيراً، عندما تبدأ في التّحلّل مثل الزّعرور والحجل الرّومي، وبالخصوص التُّدرُج.

فهذا الطّائر الأخير، عندما يُؤكل خلال الأيّام الثّلاثة التي تلي نفوقه، لا يكون فيه شيء يُميّزه عن غيره من الطّيور. فهو لا يكون بلذّة مقطوشة[4] ولا بتعطّر سمانى. وعندما يُتناول في الوقت المناسب يكون لحمه ليّناً ورفيع النكهة وذا طعم سائغ، وذلك لأنّه يفيد من طبيعته كطير داجن وطريدة في آنٍ معاً. وذلك الوقت المناسب هو عندما يبدأ التُّدرُج في التّحلّل، فيزكو طعمه وينضاف إلى زيتٍ يكون في حاجة، كي يتوهّج،

(1) سبق التعريف به في النصّ الأوّل، «شذى شبابٍ وخريف».

(2) عنوانها بالفرنسية *La Henriade*، وقد جعل فولتير ملكَ فرنسا هنري الرّابع بطلاً لها، لذلك اشتقّ عنوانها من اسمه.

(3) انظر النصّ «كلب صيد اسكتلنديّ».

(4) فرخ دجاج يُخصى ويُسمَّن (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلى بعض التّخمّر، مثل زيت القهوة الذي لا نحصل عليه إلاّ بالتّحميص.

يعلن ذلك الوقت المناسب عن نفسه بالنّسبة لغير الذوّاقين برائحة خفيفة وبتغيُّر لون بطن التُّدرُج. لكنّ المُلهَمين في الذوق والطهي يُخمّنونه بواسطة نوع من الغريزة تبرز في مناسبات متعدّدة فتجعل شاوياً ماهراً، مثلاً، يُقرّر، من أوّل نظرة، ضرورة سحب طير من على سفّود أو تركه يقوم ببضع دورات أُخرى على النار.

عندما يصل التُّدرُج إلى هذه الدّرجة نُزيح ريشه، وليس قبل ذلك، فنشحّمه بعناية باختيار الشحم الأكثر طراوة والأشدّ صلابة.

وليس عديم الفائدة البتّة ألّا نزيل ريش التُّدرُج باكراً؛ فقد أفادت بعض التّجارب التي أُحسن القيام بها أنّ طيور التّدرُج التي يُحتفظ بها في ريشها يكون شذاها أكثر من تلك التي ظلّت لمدّة طويلة عارية، وذلك إمّا لكون الاتّصال المباشر بالهواء يُبطل مفعول جزءٍ من النّكهة أو لكون جزء من العصارة المخصّصة لتغذية الرّيش يُمتصّ فيُؤدّي إلى رفع مذاقيّة اللّحم.

عندما يُعدّ التُّدرُج بهذه الطّريقة، يكون القصد هو حشوه، وهو ما يحدث بالطّريقة الآتية:

خذوا دجاجتي أرض، أزيحوا عظامهما وأفرغوهما بحيث تحصلون على حصّتين: الأولى من اللّحم والثّانية من الأحشاء والكبد.

تأخذون اللّحم فتصنعون منه حشوة بفرمه مع نخاع ثور ناضج بالبخار وقليل من الشحم المفروم والفلفل والملح والأعشاب المعطّرة ومقدار من الكمأة كافٍ لملء داخلِ التُّدرُج.

وتعملون على أن تكون الحشوة مُثبّتة بحيث لا تخرج من داخل الدّيك، وهو ما يكون صعباً للغاية أحياناً، عندما يكون قد مرّ على نفوق

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الطائر وقت طويل. غير أنّنا نستطيع القيام بذلك بسبل شتّى من بينها أن نقطع قشرة خبز نربطها بخيط، فتقوم مقام السّداد.

أعدّوا رقاقة خبز تتجاوز بإصبعين، من الجهتين، التُّدرُج المُمدّد على طوله، ثمّ خذوا كبد دجاج الأرض وأحشاءه واهرسوها مع حبّتي كمأة كبيرتين وبعض أسماك البلَم الشديدة الصّغَر وبعض الشحم المفتّت وقطعة مناسبة من الزّبدة الطّرية.

تنشرون هذه العجينة على أجزاء الرّقاقة كلّها وتضعونها على التُّدرُج المُعدّ بالطّريقة المعروضة أعلاه، بحيث يُروى جميعُه بكلّ ذلك السّائل الذي ينضح أثناء شيّه.

عندما ينضج التُّدرُج قدّموه على رقاقة الخبز المحمّصة وأحيطوه ببرتقالات مُرّة وكونوا مطمئنّين لما قمتم به.

ويُفضّل أن تُسقى هذه الأكلة ذات النّكهة العالية بنبيذ من أعالي بورغونيا. لقد استنتجتُ هذه الحقيقة من سلسلة من المعاينات كلّفتني عملاً أطول في زمنه من الاشتغال على جدول لوغاريتمات.

إنّ تُدرُجاً مُعدّاً بهذه الطريقة ليصلح غذاءً للملائكة، إن كانت الملائكة ما تزال تنزل إلى الأرض كما كانت تفعل في عهود الأنبياء.

لكن ماذا أقول! لقد تمّت التّجربة: قام الوقور الطّباخ بيكار بإعداد تُدرُج محشوّ أمامي، في قصر «غرانج»، عند صديقتي الفاتنة السّيدة دو فيل-بلين، وجاء به إلى المائدة كبير الخدم لويس، وهو يمشي مشياً موكبيّاً. وقد فحصه الحضور بعناية تُعادل عناية فحص قبّعةٍ للسّيدة هيربو. ثمّ تذوّقوه بانتباه؛ وكانت عيون تلك السّيدات، أثناء القيام بهذا العمل الحاذق، تلمع مثل نجوم، وشفاهُهن مُزيّنة بلون مرجانيّ، وعلى محيّاهن يبدو الانخطاف.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بل قمت بأكثر من ذلك: قدّمت تُدرُجاً مماثلاً للجنة قضاة من المحكمة العليا، يَعرفون أنّ عليهم، في بعض الأحيان، أن يتخلّوا عن لباس القضاء، فأظهرتُ لهم دون عناء أنّ اللّحم الشّهيّ هو تعويض طبيعيّ عن تعب العمل في المكتب.

بعد فحص ملائم، تلفّظ أكبرهم بصوت جهوريّ بهذه الكلمة: «ممتاز!»

فانخفضت الرّؤوس كلّها دلالة موافقة، وصُودق على القرار بالإجماع.

لاحظتُ أثناء التّداول أنّ أنوف أولئك القضاة الأجلّاء راحت تعتمل بحركاتِ تشمّم ظاهرة، وأنّ جباههم كانت متهلّلة بصفاء هادئ، وأفواههم الصّادقة كان عليها شيء ما مُشرقٌ شبيه بنصف ابتسامة. وعلى أيّ حال، فإنّ هذه الانفعالات الرّائعة لهي من طبيعة الأشياء.

عندما يُعدّ التُّدرُج، المُتميّز بذاته، اعتماداً على الوصفة السّابقة، يُبلّل في دهن الشحم الطّعِم أثناء تجمّره؛ فينطبع، في داخله، بالغازات المنكّهة التي تصدر عن دجاجة الأرض والكمأة. ورقاقة الخبز، المُعدّة سلفاً بطريقة شديدة الثّراء، تستقبل هي أيضاً عصارة من تآلفٍ ثلاثيّ تنضح من الطّائر أثناء شيّه. وهكذا، فما من جزء صغير من كلّ هذه الأشياء الطّيبة المتجمّعة يُخطئه التّقدير. ونظراً لامتياز هذه الوجبة، أراها جديرة بالموائد الأشدّ مهابة.

التُّدرج مشوياً

خذوا تُدرُجاً حديث السّن، رخْصاً وسميناً، وأزيحوا الرّيش من جسده كلّه باستثناء الذّيل والرّأس، مع الاحتراز من تمزيقه. بعد إفراغه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ألهبوه وأزيحوا جلدته وكردِسوه وشحّموه، ولفّوا رأسه وذيله بورق. أثنوا ذيله خلفه وسفّدوه ثمّ لفّوه كلّية في ورق مدهون بالزبدة، واجعلوه ينضج، ثمّ أزيلوا الورق عنه كما عن ذيله ورأسه وقدّموه.

طهي التُّدرُج على الجمر

جرّدوه من ريشه وأفرغوه وأزيلوا جلدته، ثمّ اقطعوا قائمتيه واجعلوا طرفَي فخذيه في جسده وشحّموه بقطع كبيرة من الشحم المتبّل بكثرة. ضعوا في قدرٍ شحماً وقطعاً من لحم الثّور المرشوش بالملح والفلفل وبتوابل مطحونة وأعشاب مُعطّرة وقطع بصَل وسيسارون وجزَر. ضعوا التُّدرُج على تلك الفرْشة الأولى واجعلوا فوقه توابل هي نفسها التي وُضعت تحته، ثمّ غطّوه بقطع من لحم الثّور وشرائح من الشحم، واجعلوه يُطبخ على مهل، من تحته النّار ومن فوقه. أعدّوا بعد ذلك يخنة من كبدِ دواجن دسمة ومن لوزة العجل والفطر والكمأة وقلب الحرشف أو الأرضيّ-شوكيّ ورؤوس نبات الهليون. ضعوا هذا كلّه مع شحم مُذاب واسقوه بعصير ودعوه ينضج على نار هادئة، ثمّ خفّفوا دسمه واعقدوه بمرقِ فخذِ عجل. ثمّ أزيحوا التُّدرُج من على الجمر ونشّفوه وضعوه في صحن، تعلوه اليخنة، وقدّموه ساخناً.

التُّدرُج بالكمأة أو بصلصة البيريغو

جرّدوا تُدرُجاً حديث السّن من ريشه كما لو كنتم تريدون شيّه، ثمّ أفرغوه من صدره بكسر عظم القصّ أو الصّدر، وأخرجوا أحشاءه مُحاذرين من فقء مرارته، وألهبوه قليلاً وأزيحوا جلدته. اغسلوا وقشّروا بضع كمآت منتقاة وضعوها في قدر مع ثلاثة أرباع قطعة شحم مفروم،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

واجعلوه ينضج على نار خفيفة مع الملح والفلفل المطحون. دعوه بعد ذلك يبرد وهيّئوه برتْقه وتشحيمه، ثمّ دعوه يتعطّر بهذه الطّريقة ليومين أو ثلاثة، ثمّ لفّوه في ورق وسفّدوه ودعوه ينضج لما يُقارب الساعة وقدّموه.

طبخ التُّدرُج على الجمر على طريقة منطقة أنغوميه

قشّروا بضع كمآت وقطّعوها إلى شرائح صغيرة، ثمّ ادهنوا بهذه الشّرائح أجزاء التُّدرُج اللّحِمة كلّها. ضعوا مائة وخمسة وعشرين غراماً من الشحم المفتّت، ومثل ذلك زبدة وكمأة مُجزّأة إلى قطع وبقايا الكمأة التي دُهِن بها التُّدرُج، بعد هرسها وتتبيلها بالملح والفلفل. شيّطوا هذا كلّه لدقائق ثمّ اتركوه يبرد وأضيفوا ما يقرب من ثلاثين من حبّات الكستناء المشويّة، فاملأوا به التُّدرُج ثمّ لفّوه في رُقاقات لحم عجل وثور وشرائح شحم. ارووه بنبيذ ملقة أو بالنّبيذ الأبيض وبملعقتين من الكرميلة أو محروق السكّر، واجعلوه يُطبخ على نار هادئة. عندما ينضج فكّوا وِثاقه وخفّفوا دسم المرق وأضيفوا إليه بعض مفرومِ الكمأة، واجعلوه يغلي للحظات. اعقدوا المرق بهريسة الكستناء ونضّدوا فيه قطع التُّدرُج.

الحجل وفراخ الحجل

إلى جانب التّنويعات الكثيرة للحجل، هناك أربعة أنواع تحظى بتقدير كبير وتُقدّم على الموائد بسبب لذّة لحمها وطيب طعمها. هذه الأنواع الأربعة هي الحجل الرّمادي والحجل الأحمر والحجل الرّومي وحجل الصّخور. وحسب ما يذكره فانسان لوبلان، فإنّ الحجل في البنغال

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أبيضُ كلّه وأكثر سمنة من حجلنا.

لم يكن الحجل معروفاً في فرنسا قبل سنة 1440. رنيه[1]، ملك نابولي، هو الذي استقدمه من جزيرة شيو الواقعة في البروفنْس في جنوب فرنسا.

عادةً ما يكون قنص الحجل بمساعدة كلاب الصّيد التي تتعقّب أثره وتوقفه عندما تصل بالقرب منه، فيعمل القنّاص، باقتحام المكان الذي يُرصَد فيه، على إثارته وجعله يطير، ثمّ يُفرغ سلاحه في اتّجاهه. يؤكّد الصّيادون المُجرّبون أنّ الأوقات المناسبة أكثر من غيرها لصيد الحجل هي الممتدّة من العاشرة صباحاً إلى منتصف النّهار ومن الثّانية إلى الرّابعة عصراً. أمّا باقي الأوقات فيكون الحجل منصرفاً للبحث عن قوته.

يُصطاد الحجل بالأنشوطة كما يُصطاد بشِباك يستعملها الصّيادون الخارجون عن القانون. تُستعمل هاتان الوسيلتان، بالخصوص، أثناء اللّيل، حيث يقتحمها الحجل من تلقاء نفسه، مُطارَداً من قبل المثيرين ومفزوعاً بالضّوء. إنّ شبكات الصّيد هذه تُهلك، كلّ سنة، عدداً ضخماً من هذه الطّيور.

كما تُجتذَب الحِجلان الذّكور بواسطة الحجَلات المدجّنة والمربّاة في أقفاص تُحمل إلى المناطق التي توجد فيها الحجلان بكثرة. هذه الحجلات تُسمّى الواحدة منها «سُلْكة». ويتمّ اجتذاب ذكر الحجل أيضاً بتقليد صوت الحجلة.

ويمكن التّمييز بين الحجل وفراخه بواسطة آخِر ريشة من ريَش الجناح الكبرى. رأس هذه الرّيشة حادّ في قمّته عند فراخ الحجل، بينما هو مستدير عند الحجل المسنّ.

لقد أكّد أبيقوريّو القرن الماضي بثقة أنّ فرخ الحجل الرّمادي مفضّل

(1) تمّ التّعريف به أعلاه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على الفرخ الأحمر، بينما يتفوّق الحجل الأحمر على الرماديّ.

الحجل الرّماديّ مُقدَّر دائماً أكثر في البلاد التي يكون الحجل الأحمر فيها هو الغالب، ويكون العكس تماماً في البلاد التي لا يوجد فيها سوى الحجل الرّماديّ. النّوعان يكادان يتساويان في جودتهما، لكنّ الحجل الأحمر أضخم دائماً من الحجل الرّماديّ.

لحم فرخ الحجل مثير بعض الشّيء وليّن وطعِم وسهل الهضم. أمّا لحم الحجل المسنّ ففي حاجة إلى مدّة طبخ طويلة، لكنّه، وما دام مكتنزاً بالأوسمازوم (الجزء الأشهى من اللّحم)، فإنّ مذاقه أجود من مذاق فرخ الحجل. إنّ حجلاً مُسنّاً مطبوخاً مع لحوم أُخرى لَيهب الحساء طعماً ممتازاً ويُحيله أكثر تنشيطاً.

فراخ الحجل مشوية

ألهبوا فراخ الحجل قليلاً، اثنوا القوائم على الأفخاذ ولفّوها من الأمام بورقة رقيقة مُغشّاة بشريحة من دهن الشحم، واجعلوها تُشوى على نار هادئة ثمّ قدّموها مصحوبة بنارنجة دون مرق.

فراخ الحجل الأحمر أو الرمادي على الطّريقة الباريسية

أفرغوها وألهبوها وشيّطوها في قدْر على نار هادئة مع زبدة ودون تلوين واسقوها بكأس من نبيذ أبيض وبملعقتين من المرق مُخفّف الدّسم وبعض الصّلصة الإسبانية المركّزة. دعوها تُطبخ على نار هادئة لثلاثة أرباع السّاعة، ثمّ استخلصوا جزء المرق الأكبر، وركّزوه وخفّفوا دسمه. وعند التّقديم ضعوا فراخ الحجل في الصّحن واجعلوا خبزاً مدهوناً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بالزبدة في المرق ثم صفّوه وضعوه على الفراخ وقدّموها.

فراخ الحجل الأحمر بصلصة البيريغو

يُجمَّر فرخ الحجل الأحمر، الأخفّ نكهة من فرخ الحجل الرّماديّ، مع قَدرٍ معتبر من مرق الـ «ميربْوا» (يتألّف من جزر ولفت وبصل وبعض التوابل). اصنعوا من هذا كلّه نضيضاً ثمّ اسقوه بكأسين من شراب ماديرا وكأس من النّبيذ الأبيض وملعقة صغيرة من مرق دجاجيّات. ضعوا ورقة مدهونة بالزبدة على فراخ الحجل ثمّ أحكموا إغلاق القدْر ودعوا هذا كلّه ينضج على نار خفيفة لنصف ساعة. صفّوا بعد ذلك الثّمالة، وخفّفوا دسمها واتركوها تتركّز إلى النّصف في ملعقتين من الصّلصة الإسبانية. جزّئوا أربع كمآت إلى قطع صغيرة وألقوا بها في المرق مع بعضٍ من قلب الكمأة. موِّجوا مرقَكم بقليل من الزّبدة الطّرية وعصير اللّيمون وشيء من الفلفل المسحوق. ضعوا فراخ الحجل في الصّحن في شكلٍ مثلّث وافصلوا بينها بثلاث رقاقات من الخبز المحمّص وغطّوا الفراخ بمرق البيريغو التي الذي حصلتم عليه وقدّموها ساخنة.

فراخ الحجل على الطّريقة الإنجليزية

تحشون فراخ الحجل بحشوة مهيّأة من أكبادها ومن الزّبدة والفلفل الخشن والملح. لفّوها في ورق وسفّدوها دون تشحيمها واتركوها إلى أن تُدرك ثلاثةَ أرباع نُضجها. انزعوا أعضاءها دون فصلها عن جسدها وضعوها في قدر واجعلوا بين كلّ عضو والآخر قليلاً من الزّبدة في لبّ خبز، وبصلاً أخضر وبعض البقدونس وثوماً قصبيّاً مفروماً وملحاً وفلفلاً خشناً وبعض الجوز، ثم اسقوا الفراخ بكأس شمبانيا وملعقتين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من المرق مخفّف الدّسم، واجعلوها تنضج دون أن تُغطّوها إلى أن يكتمل نضجها، كي يتكثّف المرق. قدّموها مع عصير نارنجة وقشرتها.

يخنة فراخ الحجل

هيّئوا ثلاثة فراخ حجلٍ وشحمّوها واشووها قليلاً. دعوها تبرد واقطعوا أطرافها وأزيحو جلدتها وضعوها في قدر مع بعض المرق المركّز وضعوها على رماد ساخن بحيث لا تغلي. ثمّ قطّعوا ستّ بصلات خضراء وأضيفوا قشرة ليمون وضعوا هذا كلّه في قدر مع بعض نبيذ الشمبانيا واجعلوه يغلي. اهرسوا هياكل فراخ الحجل وضعوها في القدر نفسه وأضيفوا إليها أربع ملاعق من مرق العجل مُخفّف الدّسم أو من الصّلصة الإسبانية المركّزة، ودعوا هذا كلّه يتركّز إلى النّصف. صفّوا المرق ونشّفوا أطراف الفراخ وضعوها في طبق، واجعلوا بينها فتات خبز محمّص مدهون بالزبدة وصبّوا على الفراخ المرق المعطّر باللّيمون.

فراخ الحجل على الطريقة البورغونيّة

قطّعوا وسفِّدوا ثلاثة فراخِ حجلٍ واقطعوا أطرافها وقلّوها في قدْر صغيرة بعد أن تلقوا فيها ثلاث ملاعق من الزيت وشيئاً من النبيذ الأحمر والملح والفلفل وعصير اللّيمون وبعض قشوره. ثمّ ارفعوها ورشّوها بالصلصة وقدّموها.

مقليّ فراخ الحجل بالكمأة

اقطعوا شرائح لحم من أربعةِ فِراخِ حجلٍ وقصقصوا زواياها وضعوها في زبدة مُذابة، ويبّسوها من الجهتين، ثمّ نشّفوها وضعوها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على المائدة وقطّعوها إلى أجزاء صغيرة مُتساوية الحجم في شكل دائريّ. أعدوّا حساء بهياكل فراخ الحجل وصفّوه وأضيفوا إليه ثلاث ملاعق من الصّلصة الإسبانية المخفوقة، ودعوها تتركّز إلى النّصف. ضعوا في الحساء الشّرائح دون أن تتركوها تغلي وأضيفوا إليها مائتين وخمسين غراماً من الكمأة المجزّأة بالطّريقة نفسها التي جزّئت بها الشّرائح، واطبخوها في الزّبدة التي تكون الشّرائح قد قُليت فيها. اخلطوا هذا كلّه وزيّنوه بقطعة خبز مدهونة بالزبدة، صغيرة، ثمّ ضعوا يخنتكم في صحن وزيّنوها بفتات خبز مقليّ.

لحم فراخ الحجل المفروم

تنزعون لحم فرخَي حجل أو ثلاثة مشويّة، وتزيحون منه الجلد والعروق وتفرمونه رقيقاً، ثمّ تهرسون بقايا الفراخ وتضعونها في قدر مع أربع ملاعق من الصّلصة الإسبانية وملعقتين من المرق مخفّف الدّسم. تجعلون هذا الحساء يُطبخ ثمّ تصفّونه وتركّزونه وتخفّفون من دسمه ثمّ تركّزونه من جديد إلى أن يتكثّف حتّى النّصف، فتضعون بعضاً من هذه الصلصة جانباً لوضعها على اللّحم المفروم عند التّقديم. تضعون اللّحم المفروم في القدر مع ما تبقّى من الصلصة وتضيفون بعض البهار الخشن والجوز المفتّت وقطعتَي خبز صغيرتين مدهونتين بالزبدة. تخلطون اللّحم المفروم جيّداً وتضعونه في طبق وتزيّنونه بخبز محمّص مدهون بالزبدة وتضعون عليه بيضاً مسلوقاً بعد فقْسه.

الحمام

الحمام، بعد الخُطّاف، هو الطائر الأسرع تحليقاً. فهو يقطع ستّة عشر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فرسخاً في السّاعة. كان صديقنا فويمو، كلّ سنة، مكلّفاً بأن يُطلق من فندقه المسمّى «الجرس»، في كومبْيين، الحَمام الذي يرسله البريد الملكيّ من أجل المشاركة في المسابقة التي تُقام في مدينة لِيل الفرنسيّة منذ حوالى عشرين سنة.

حضرتُ عدّة مرّات انطلاق هذا الحَمام الذّكر المسافر، وهو يحثّ التّحليق في اتّجاه الأنثى المُشتهاة، والذي يقطع، بقوّة الغريزة، في أربع ساعات، المسافة الفاصلة بين كومبيين ولِيل. الحمام البريّ منه يُسمّى الورشان، والطّريقة التي يكثر بها في كلّ الحدائق الملكية أو الامبراطورية تدلّ على أنّه يُصبح بسهولة حماماً أليفاً. وهو يختلف عن الحمام الدّاجن، لا فقط بلحمه وريشه، وإنّما أيضاً بكونه يتّخذ الشّجر مكاناً لنزوله. صغار السّن منه تُسمّى فراخ الحمام، وتُؤكل عموماً مشويّة، مع أنّ بالإمكان إعدادها لتكون طبقاً أوّل.

الحمام بالبازلاء

لنضع في البازلاء الطّائر العزيز على سيبريس[1].

نُجرّد ثلاثة أو أربعة من طيور الحمام من ريشها ونُزيح جلدها ونُفرغها ثمّ نُعيد وضع أكبادها في داخلها. نُدخل قوائمها في جسدها ولا نُزيح أطراف أجنحتها، ونُلهبها. نضع قطعة زبدة في قدر ونُطرّيها ثمّ نُزيحها. نجتزئ قطعة شحم ونُخفّف من ملحها لمدّة نصف ساعة، ونُمرّرها في الزّبدة إلى أن تتّخذ لوناً جيّداً فننشّفها. نضع ملعقة كبيرة من الدّقيق في الزّبدة ونصنع منهما كتلة محمّصة جيّداً نضع فيها قطعة الشحم مع الحمام. نُعمِل المجموع في كتلة الدقيق المحمّص بالزبدة ثمّ نسقيه شيئاً

(1) أحد الأسماء الدّارجة للآلهة الإغريقية أفروديت، كان شائعاً في جزيرة قبرص.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فشيئاً بمرقٍ ونترك هذا كلّه يكتسب كثافة الصلصة ونتبّله بالبقدونس والثّوم القصبيّ ونصف ورقة رند ونصف فصّ ثوم وزرّ قرنفل.

نسحب القدْر إلى طرف المِطبخ كي يستمرّ في النّضج على مهل. وفي منتصف نُضج الحمام، نصبّ لتراً من مسحوق البازلاّء ونتركه ينضج، مع الحرص على تحريكه باستمرار. عندما ينضج، نتذوّقه ونضيف إليه ملحاً إن كان بحاجة إليه، ونخفّف دسمه ونزيحه لتكثيف المرق إن كان بعدُ غير كذلك. عندما يتكثّف نضع الحمام في صحن ونضع عليه مرق البازلاّء وقطعة الشحم ونقدّمه.

حَمام على طرف السّفّود
على طريقة مدينة نِيم

أفرغوا حماماتكم وقرّبوا أجنحتها وقوائمها من جسدها. أفرغوها من حوصلتها بفتح قصّها بسكّين. وحاذروا عند نزع القانصة والكبد من فقء المرارة. جرّدوا القوائم من جلدها واقطعوا عنها المخالب ثمّ اربطوا حمامكم على طرف السّفود بفتح حزّة على طرف الفخذ وبنزع القوائم التي تضعونها على الجانبين على طول الفخذين ثمّ تُثبّتونها بواسطة إبرة. تمرّرون خيطاً على الطّرفين وتعْقدونه إلى الخلف. وبعد أن تنضج الحمامات، انزعوا عنها الخيط وضعوها في الطّبق وصبّوا عليها قدراً مناسباً من الصّلْصين[1].

افرموا بقدونساً وبصلتين خضراوين وبعض البصل الصّلب واعصروا هذا كلّه في قطعة قماش نظيفة لاستخلاص الجزء السّائل منه.

---

(1) صلصة حرّيفة تتألّف من أعشاب عِطريّة مفرومة مع الخردل وصفار البيض والزيت والخلّ والثوم تُقدّم مع اللحوم والأسماك البارد (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

افرموا أيضاً بعض الخيار المخلّل وبعض زهرات الكَبَر وشيئاً من أسماك البلَم الصغيرة، ثمّ اهرسوا هذا كلّه في مهراس مع محّ أربع بيضات مسلوقة وبعض البقدونس المسلوق في البداية، دون ثوم. وعندما يُهرس هذا كلّه جيّداً تضعون فيه محّ بيضة نيئة وتصبّون في المهراس، قطرة قطرة، ما يُعادل كأساً من الزّيت. تتبّلون الصلصين بملح وفلفل وخردل وملعقة من خلّ الطّرخون وببعض عصير الليمون. ثمّ تعملون على خلط هذا كلّه.

حَمام غوتييه[1]

خذوا ستّاً أو سبعاً من هذه الحمامات الصّغيرة المتعادلة في حجمها، والتي من المفروض ألّا يكون عمرها متجاوزاً سبعة أيّام أو ثمانية. ألهبوها قليلاً مع الحرص على عدم جعل جلدها ييبس، وقشّروها واقطعوا مخالبها. أذيبوا، أو بالأحرى دفّئوا قليلاً من الزّبدة الطّرية وأضيفوا إليها عصير ليمونتين أو ثلاث وبعض الملح المطحون. ضعوا الحمام في هذه الزّبدة وقلّوها في الزيت برفقٍ، دون أن تضعوا القدر على الفحم حتّى لا تصلّبوا جلدها.

أزيحوا القدر من على النّار وضعوا فيها شريحة شحم كاملة وضعوا عليها حماماتكم بطريقة تحتلّ بها القوائم وسَط القدر، ثمّ اسقوها بزبدتكم كلّها وأضيفوا ماءً قليلاً، ثّم اسقوها بكأس من النّبيذ الأبيض وملعقة من المرق وقليل من الشحم المفروم والأعشاب المُعطّرة. غطّوا حماماتكم بشرائح شحم وورق. وقبل ربع ساعة من التّقديم أزيحوها ثمّ ضعوها تنضج، تحتها بعض النّار وفوقها رماد ساخن. وبعد أن تنضج،

(1) أحد أصناف الحمام المعروفة في فرنسا (انظر الوصفة التالية) (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نشّفوها وضعوها في طبق واجعلوا بين كلّ منها والأخرى جمبريّاً، وفي الوسط كمأة. ضعوا عليها إمّا صلصة خضراء أو شيئاً من زبدة الجمبري أو عشبة خزامى.

حَمام على طريقة مدينة تولوز

نهيّئ حشوة بالكبد والشحم والأعشاب المعطّرة وقطعة صغيرة من لحم العجل ومخّ بيض وكمأة؛ ويكون هذا كلّه مفروماً بطريقة جيّدة. نقوم بحشو الحمام الذي نُسفّده ونصبّ عليه بعد ذلك مرقاً بالطرخون أو قدراً من الصلْصين.

حمام بالحبق

إذا كان لديكم من حَمام غوتييه (لدينا أربعة أصناف من الحمام: الحمام الرّوماني وحَمام منطقة كو وحَمام الصخور، وهو في الغالب حمام برّيّ، والصنف المسمّى حمام غوتييه)، أقول إذا كان لديكم من حَمام غوتييه عددٌ كافٍ لإعداد طبق أوّل، فهيّئوا حشوة دواجن مطبوخة تضعون فيها قبضة حبق مفروم إن كان أخضرَ (أمّا إن كان جافّاً فتدقّونه وتصفّونه). أزيحوا قوائم الحمام وغطّوه بالحشوة المطبوخة إلى أن يتعذّر تمييز ما إذا كان حماماً. غطّسوه في عجّة مخفوقة بطريقة جيّدة تكونون وضعتم فيها لبّ خبز وقليلاً من الملح. مرّغوه في لبّ الخبز. وقبل ربع ساعة من تقديمه ضعوه في زبدة قلي ساخنة باعتدال حتّى تُمسّ جوانبه كلّها. اعملوا على أن تغدو الحمامات ذات لون جذّاب ثمّ ضعوها في طبق وقدّموها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حمام مسلوق

خذوا العدد نفسه من الحمام، أي خمس حمامات أو ستّاً، وأعدّوها بالطّريقة نفسها. دعوها تنقع وتُسلق في الماء لمدّة نصف ساعة، ثمّ نشّفوها وامسحوها بقطعة قماش بيضاء وضعوها في قدر مع قطعة زبدة واجعلوها تنضج على نار خفيفة دون أن تحترق الزّبدة. بلّلوها بشيء من المرق واسقوها ببعض النّبيذ الأبيض وتبّلوها بإضافة أعشاب معطّرة وملح وفلفل، واجعلوها تنضج على نار هادئة لربع ساعة. أضيفوا إليها قبضتين من الفطر وحوالى عشر بصلات صغيرة مُتعادلة في حجمها. اجعلوا هذا كلّه يُطبخ ثمّ خفّفوا دسمه. إذا لم تكن صلصتكم تكثّفت بعدُ فاصفقوها وركّزوها ثمّ أفرغوها على حَماماتكم. هيّئوا من ثلاث بيضات بالقشدة والحليب أو بعض الجوز المسحوق ما تعْقدون به يخنتكم دون أن تجعلوها تغلي. أضيفوا إليها، إن شئتم، قليلاً من البقدونس المفروم المسلوق. تذوّقوا، فإن كان طعمها جيّداً فضعوا حماماتكم في طبق وأفرغوا عليها اليخنة.

البطاطس

استُقدم هذا النّوع الممتاز من البقول، الذي جعل الشّعوب في مأمن من الجوع، من فرجينيا على يد الأميرال الإنجليزي والتر راليه سنة 1585. وقد عُرف هذا الأميرال بطابعه المُغامر وبتقلّبات حياته أكثر ممّا باستقدامه للبطاطس التي لم تلفت الانتباه أوّل الأمر. يقول والتر سكوت إنّ راليه كان يوماً بصُحبة الملكة إليزابيث وحاشيتها في جولة فألفت الملكة نفسها مضطرّة لعبور مساحة صغيرة فيها بِركة طين، فنزع راليه معطفه المخمليّ والمرصّع بالجواهر وبسطَه على تلك المسافة حتّى تتمكّن الملكة من العبور

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دون أن تبلّل قدميها، ممّا جعلها تُجازيه بتعيينه أميرالاً.

أمّا بالنّسبة للبطاطس، فإنّ أحكاماً مُسبقة عبثيّة منعت لمدّة طويلة من أن تُقدَّر حقّ قدرها. فهي، بالنّسبة لكثيرين، مادّة غذائية خطيرة أو على الأقلّ خشنة لا تصلح على الأكثر إلاّ لتغذية الخنازير. كان الأمر كذلك حوالى نهاية القرن الثامن عشر، عندما شرع بارمونتييه بسلسلة من الأعمال النّظرية والتّطبيقية كي يُعيد النّاس إلى زراعة البطاطس. وقد شعر بسعادة غامرة لنجاحه في الانتصار على الأفكار المُسبقة فأصبح الجميع مقتنعين بإيجابيّة هذه الزراعة. في سنة 1793، أضحت البطاطس مُعتبرة مادّة غذائية لا غنى عنها، وهو ما نتج عنه قرار بلديّ، يحمل تاريخ 21 فانتوز[1]، يأمر بإحصاء حدائق الزينة قصد تكريسها لزرع هذه البقلة، ما أدّى إلى جعل حديقة تويلري ومساحات الزهر تُزرَع بالبطاطس، وهو ما مكّنها لمدّة طويلة من حمل لقب «البرتقال الملكيّ» تخليداً لذكرى عودة النظام الملكيّ الذي دفعَ إلى تقدير جدواها.

البطاطس غذاء صحّي بالفعل وسهل وقليل التّكلفة. وممّا يزيدها روعةً ونفعاً للشغيلة بخاصّةٍ كونها لا تتطلّب لا عناية ولا نفقات. إنّ اللّهفة التي نرى الأطفال يأكلونها بها، مشويّة تحت الرّماد، وما يشعرون به من دعةٍ إثر ذلك، هذا كلّه يُدلّل على أنّها توافق الأجسام كلّها.

ولا يدع تخيّر أصنافها مجالاً للشّك، ولا هو بشيء غير ذي بال: فالبطاطس الرّمادية الحصِبة الملمس هي الأقلّ جودة. والأجود من بين أنواعها كلّها، دون جدال، هي البطاطس البنفسجيّة المُفضّلة حتّى على الحمراء، والمعروفة بباريس باسم «فيتْلوت»[2]. كما أنّ البطاطس تُستعمل

(1) فانتوز ventôse : الشّهر السّادس من الرّوزنامة الثّورية الفرنسية، وهو شهر الرّياح.

(2) التسمية مشتقّة من النعت violette، أي البنفسجيّة، وهي تُدعى أيضاً «البطاطس السّوداء» وكذلك «الزنجية» أو «الكمأة الصّينيّة». وهذا الصنف قديم وما عاد يزرعه إلاّ عدد =

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في إعدادات أخرى كثيرة.

فنشاؤها، مثلاً، يَستعمله صانعو الشّكولاتة ويسمّونه السّكر الملكيّ، ويدخل في تصنيع مختلف أنواع الشّكولاتة. وقد تمّ الإقرار حديثاً بأنّ زهر البطاطس أساسيّ في صناعة الصّباغة الصّفراء، كما اكتشف عضو في معهد الطّب في استوكهولم أنّ أوراق البطاطس، المجفّفة بدرجة مناسبة، ينتج عنها تبغ رفيع القدر به يُعطَّر التبغ العاديّ.

بطاطس مقليّة في الزّبدة

قشّروا بطاطس طازجة صغيرة ومستديرة. ضعوا قطعة زبدة كبيرة في القدر وضعوها على نار مستعرة وأضيفوا إليها البطاطس واقلوها إلى أن تتحمّص، ثمّ نشّفوها ورشّوها بملح مدقوق وضعوها في صحن دون أيّ تبتيل عدا بعض البقدونس المفروم.

الشُّربة

يُسمّى شُربة[1] كلّ طعام يُقدّم في «سلطانيّة» وفي مستهلّ الوجبة.

ويُسمّى سليقةً ما نحصّله من لحم الثّور المطبوخ في الماء والذي يَستخلص من ذلك اللّحم الأجزاءَ القابلة للذّوبان.

وفيما يلي ما يقوله بريا-سافاران: «كي نحصل على حساء جيّد، يتعيّن أن يُسخّن الماء على مهل حتّى لا يتخثّر الألبومين[2] داخل اللّحم قبل أن يُستخلص. يجب أن يكون الغليان ملحوظاً أو يكاد، حتّى تستطيع

= قليل من فلّاحي فرنسا.

(1) أو شوربة، وهي عاميّة.

(2) مادّة عضويّة لزجة عموماً، مائل لونها إلى البياض، تذوب في الماء، وتوجد في زلال البيض أو آحه، وفي مصل الدم، والعضلات، وفي بعض الخلايا النباتيّة (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأجزاء المختلفة التي تذوب تباعاً أن تتجمّع وتتّحد. نُضيف للحساء خضاراً وجذوراً لتزكية طعمه أو خبزاً أو عجائن غذائية [المعكرونة وما يشبهها] كي تصبح قيمته الغذائية أعلى. الحساء طعام صحّيّ وخفيف ولذيد الطعم ويناسب الجميع. فهو يُريح المعدة ويجعلها مستعدّة للاستقبال وللهضم. وعلى الأشخاص المهدّدين بالسّمنة أن يدَعوا الخبز والعجائن جانباً وألّا يتناولوا إلاّ الحساء. وهناك شبْه إجماع على أنّه لا يُتناول في أيّ مكان آخر حساء مماثل في جودته للحساء الفرنسيّ. وقد عثرت خلال رحلاتي على تأكيدٍ لهذه الحقيقة. غير أنّه يتعيّن ألّا تُدهشنا هذه النّتيجة، لأنّ الحساء يوجد في أساس النظام الغذائيّ الفرنسيّ، ومن المفروض أن تكون تجارب القرون قد رفعته إلى درجة التّجويد. أمّا حساء اللّحم المسلوق أو السليقة فطعام صحّيّ يهدّئ الجوع على الفور ويُهضم بطريقة جيّدة، لكنّه لا يستطيع بمفرده أن يُجدّد القوى بقدر كافٍ، لأنّ اللّحم يكون قد فقد أثناء غليه جزءاً من عُصارته القابلة للهضم».

شُربة على طريقة جول

خذوا جزراً وبصلاً وكرفساً وسيسارون ولفتاً وخسّاً ونبات الحمّيض، بكمّيات متساوية. قطّعوا نبات الحمّيض واسلقوه في بعض الماء مع قليل من الملح ثمّ برّدوه. وقبل ربع ساعة من تقديمه اخلطوه بباقي الخضار. لإعداد هذه الأخيرة، جزّئوا الجذور إلى قطع متساوية في طولها ثمّ إلى شرائح أقلّ أو أكثر سمكاً. افعلوا الشّيء نفسه بنبات الحمّيض والخسّ والكرفس. أحسنوا غسل هذا كلّه ونشّفوه بمصفاة. ضعوا بعض الزّبدة في قدر مع الجذور والكرفس وضعوا هذه الخضار على المِطبخ إلى أن تنصبغ بلون خفيف وآنئذٍ اسقوها بملعقة كبيرة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من الحساء. عندما تنضج هذه الجذور إلى النّصف أضيفوا إليها نبات الحمّيض ودعوا هذا كلّه ينضج على نار هادئة ثمّ خفّفوا الدّسم.

عندما تهمّون بالتّقديم، هيّئوا الحساء وأفرغوا عليه خلطتكم التي تكونون حصّلتموها وحرّكوا المجموع برفق.

شُربة الكرّاث على الطّريقة البريسانية[1]

قطّعوا كرّاثاً إلى شرائح بطول إبهام واتركوها تنضج في الزّبدة إلى أن تبيضّ، ثمّ اجعلوها تُطبخ على نار خفيفة في كمّية قليلة من الحساء ثمّ صبّوها على شُربة بالخبز، أي ثريد.

نظريّة عامّة: ينبغي الاحتراس من غلْي الخبز في الحساء لأنّه سيَحمض على الفور.

شُربة بالبصل

عودوا إلى مادّة «بصل» تجدوا أنّه نبات بقْليّ برائحة حادّة وطعم لاذع، لكنّ ما من الضّروري أن أنوّه به هنا هو أنّ هناك نوعين من البصل: البصل الإسبانيّ الأبيض والبصل الصّغير الأحمر الفلورنسيّ. يكتنز البصل الضّخم، أو البصل الإسباني الأبيض، بمادّة سكّرية، إضافة إلى عنصر نباتيّ-حيوانيّ، فضلاً عن مادّة فسفورية. وهذا البصل ليس سائغاً في طعمه بسبب المادّة السّكرية فحسب، وإنّما هو أيضاً مغذّ بمحتواه النّباتيّ الحيوانيّ، كما أنّه منعش بسبب العنصر الفوسفوريّ.

وعليه، فهذا الصنف هو الذي يتعيّن اختياره لإعداد شُربة للقنّاصة وللثملين، لأنّهما فئتان تكونان في حاجة إلى استرجاع قواهما.

---

(1) نسبة إلى مدينة بور أون بريس الفرنسيّة Bourg-en-Bresse.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تأخذون إذن عشرين بصلة ضخمة تفرمونها دقيقة وتُحمّصونها في مقلاة مع قطعة زُبدة. عندما يُصبح لونها أصهب تصبّون عليها ثلاثة لترات من الحليب الطّازج، وإلاّ فإن الحليب سيحمض. عندما يغلي البصل في الحليب تصفّونه في مصفاة واسعة ليتركّز الحساء، ثمّ تملّحون وتبهّرون وتصبّون على فتات خبز محمّص مقليّ بعد أن تعْقدوه بمحّ ستّ بيضات. ثمّ تقدّمون.

شُربة اليقطين

جزّئوا اليقطينة إلى قطع صغيرة في قدر وأضيفوا إليها كأس ماء، واتركوها تغلي إلى أن تنضج ثمّ أخرجوها من الماء وجفّفوها وصَفّوها بالإيتامين، أي القماش المنْخليّ، ثمّ اسقوا هذه الهريسة بالحليب وأضيفوا إليها زبدة مخفوقة لتوّها، وملّحوا بما فيه الكفاية واجعلوا شربتكم تغلي وصبّوها على فتات خبز محمّص مدهون بالزبدة مقطوع في شكل معيّنات أو دوائر.

السّليقة

كان ريفارول (أحد المفكّرين الكبار في الفترة الثّورية، كان مناصراً للملك) يتناول ذات يوم عشاءه برفقة ذوّاقين قادمين من ثلاثة مدن حرّة هي لوبيك وبريم وهامبورغ، فقطّب وجهه وهو يتذوّق لا أدري أيّ شُربة توتونية[1]. فسأله أحد الضّيوف عن مصدر ذلك التّشنج لعضلات وجهه، وبالخصوص العضلة البوقية.

«– أيّها السّادة، أجاب، إن كنت قطّبت وجهي وأنا أتذوّق شُربتكم

(1) نسبة إلى سكّان جرمانيا الشّمالية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فقد أخطأت، ما دامت الدماثة الفرنسية تفرض أن أجدها رائعة. لكنْ ما دام الأمر قد حصل، فلتدعوني أقول لكم حقيقة عُظمى، وهي أنّه لا يوجد البتّة في فرنسا ممرّضة أو بوّابة لا تعرف إعداد حساء أحسن ممّا يُعدّه أمهر طبّاخ آنسيّ»، وكان حريّاً به أن يقول «هانسيّ»، ما دامت الصفة «هانسيّ»[1] مُشتقّة من الكلمة الألمانية القديمة Hansen، التي تعني «تَشارُك».

وأنا ألتمس من القارئ أن يتفضّل بالانتباه إلى أنّ الملاحظة الأخيرة وُضعت من قِبلي وليس من قبل ريفارول، وهي مقدَّمة لفائدة أولئك الذين ما يزالون يسْعون للتّعلّم.

سبق لي أن أشرت إلى مدى حبّ آل بوربون[2] للشُربة الطّيبة. وقد قلت أيضاً إنّ لويس فيليب[3] كان يتناول أحياناً أربعة صحون من شُربات مختلفة، وخامساً يجمعها فيه كلّها. لكنّني لم أقل أنّ هذا الحبّ الكبير الذي يُكنّه كلّ فرنسيّ طيّب للشُربة قد يكون هو ما جعل ديبلوماسيّاً ألمانيّاً شهيراً أراد، سنة 1792، أن يمنع ملك بروسيا وإمبراطور النّمسا من إعلان الحرب على فرنسا، أقول جعلَه يقول لهما، بهدفِ ثنيهما عن عزمهما:

«دَعوا الثّورة الفرنسيّة تغلي في قِدْرها!»

وهي نبوءة لو كانا استمعا إليها فلربّما كانا سيَحولان دون اجتياح برلين وفيينّا من قبل ذلك الشّعب الفرنسيّ نفسه الذي سرعان ما عاد

---

(1) نسبة إلى «الرابطة الهانسيّة» التي جمعت طوال الفترة ما بين القرنين الثاني عشر والسابع عشر مدناً تجاريّة عديدة في أوروبا الشماليّة (المُراجع).

(2) آل بوربون سلالة ملوك حكموا فرنسا ومناطق أخرى من أوروبا، وكان أوّلهم هنري الرابع (1553–1610) (المُراجع).

(3) لويس فيليب الأوّل (1773–1850) هو آخر ملك ساد فرنسا وكان ملقّباً بـ «ملك الفرنسيّين».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلى أفرانه.

ربّما وجد القارئ أنّ هذه ديباجة متبجّحة للغاية ومُتعالمة للوصول إلى شُربة ملفوف بسيطة. لكنّ هذه الدّيباجة لم تصل بعد إلى منتهاها، وليُسمح لي، بعد أن تحدّثت في بعض التّاريخ، أنّ أنتقل لبعض الكيمياء.

إنّ ذوّاقاً فرنسيّاً مُحنّكاً يُدعى إلى عشاء في المدينة تكفيه نظرة أولى أو رائحة بسيطة من الشُّربة ليكوّن فكرة عن الوجبة كلّها.

أُكرّر أنّ المطبخ الفرنسي لا يدين بتفوّقه على مطابخ باقي الأمم إلاّ إلى جودة الحساء الفرنسي.

لاحظوا جيّداً أنّ الأمر لا يرجع البتّة إلى كون لحمنا أجود من باقي اللّحوم، وإنّما لأنّ طبّاخينا يتفوّقون على باقي الطّباخين. للإنجليز بالتّأكيد ثيران أفضل من ثيراننا، ويمكنهم أن يُعدّوا حساءً رائعاً؛ لكنّهم ليس لهم سوى حساء طيّب واحد هو حساء السّلحفاة.

لقد درست في كلّ البلدان طريقة إعداد الحساء، وكانت آخر مرّة في فيينّا. كيف يُعدّ أهل فيينّا حساءهم؟ يضعون في طنجرتهم دجاجتين ويطبخونهما إلى النّصف، ثمّ يُسفّدونهما ويشوونهما. أمّا الحساء فيضيفون إليه ملعقة من العصير ليسِموه بلونٍ ويقدّمونه، لا ساخناً، وهو ما كان بإمكانه أن يكون ميزة، وإنّما فاتراً، ممّا يجعله يُشبه إلى حدّ ما الماء غير البارد.

بهذه الطّريقة يعثرون على وسيلة ليقدّموا، في الأوان نفسه، شُربة سيّئة ولحماً مشويّاً رديئاً.

وفضلاً عن ذلك، فإنّه لخطأ شائع - يجب أن ننتفض ضدّه، نحن رجالَ العلم - أن يتمّ الاعتقاد بأنّ الدّجاج المستعمل في الشّربة، عدا أن يكون مُسنّاً جدّاً وسميناً، يصلح لشيء آخر غير إعداد حساء لمريض.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إنّ عُمدة السليقة الجيّدة هي لحم الثّور.

أنا أعلم أنّ سكّان جنوب فرنسا نادراً ما يستعملون لحم الثّور، وأنّهم يلتجئون على الدّوام للحم الخروف، غير أنّ شهرة الجنوب لا تعود تحديداً إلى حسائه.

لكن لنعترف بأنّ لحم الخروف هو الذي يأتي في المرتبة الثّانية بعد لحم الثّور في إعداد شُربة جيّدة، خصوصاً إن نحن طبخناه أو شويناه إلى الثّلث قصدَ تجريده من دسمه الذي يمكنه أن يسم الحساء بمذاق الودك الممجوج جدّاً.

هل تريدون بعد هذا تعميق السّؤال ومعرفة أسرار شُربة جيّدة؟

خصّصوا لها أكبر قطعة لحم لديكم. يمكن الاحتفاظ بالحساء ثلاثة أيّام شتاءً ويومين صيفاً، وفي هذا اقتصاد للوقت وللوقود. طرَف الورك قطعة ممتازة، علماً أنّها متوازنة في لحمها الدّسم وغير الدّسم. اختاروا اللّحم الأكثر طراوة وغير الدّامي ما أمكن. اختاروه سميكاً، فالنحيف منه سيُستهلَك في الطّبخ. لا تغسلوه وجرّدوه من قسط من عصيره. اربطوا قطعة اللحم بعد أن تزيحوا عظمها حتّى لا يتغيّر شكلها وضعوها في القدر مع ثُمنِ غالونِ ماء لكلّ رطلِ لحم. بعدَ وضع اللّحم في القدر، وقبل أن نُضيف إليه العظم، اتركوني أقول لكم ما يحويه وبفضل أيّ ميزات طبيعية ينتج عنه حساء ممتاز.

سبق لي أن قلت، ولن أملّ من تكرار ذلك للأشخاص الذين يُريدون أن يعرفوا ما يحويه اللّحم، إنّ اللّحم الأحسن والأنسب لإعداد الحساء يحتوي على أربع موادّ مختلفة بشكل أساس وهي الجيلاتين أو الهُلام، والأوسمازوم، والدّهن، والألبومين.

اللّيفين هو ما يبقى من قطعة لحم أُغليت لمدّة طويلة. ذلك أنّ الطّهي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يفصله عن الموّاد القابلة للذّوبان التي كان مُتّصلاً بها، أي الجيلاتين والأسمازوم والألبومين، ممّا يُجرّد اللّحم من كلّ طعم.

الجيلاتين، وهو قابل للذّوبان في الماء المغليّ فقط، هو القاعدة المغذّية في الحساء؛ فهو الذي، إن كان بكمّية كافية، يسمح بتخثّر الحساء. إنّه يوجد في أجزاء اللّحم كلّها، لكن بالخصوص في الغضاريف والعظام. وقد حاول كيميائيّ أورسي الشّهير أن يُغذّي المرضى بالجيلاتين الخالص ولم يُفلح.

والأوسمازوم هو أساس النّكهة في اللّحم. وهو يوجد في اللّحم كما في الدّم؛ لذلك نصَحْنا بتناول اللّحم غير المدميّ ما أمكن. فالدّم يُضاعف الرّغوة، لكنّه، بعد أن تُزال هذه، يُعطي حساءً ألذّ.

ويكون الدّهن ملفوفاً في غشاء شفّاف ولا يذوب، ممّا يجعله يبقى مُرتبطاً بالألياف. غير أنّ غلياناً قويّاً يستطيع، مع ذلك، شقّ جزء من هذه الخلايا فيأتي الدّهن، الذي هو أخفّ من السّائل، كي يطفو على السّطح. هذا الدّهن هو الذي ينبغي استخلاصه بعناية، وهو يسمح، لوحده أو مخلوطاً بصُهارة الشحم، بإعداد مقليّات ممتازة.

أمّا الألبومين فهو من طبيعة زُلال البيض نفسها، يذوب في الماء البارد ويتخثّر في الماء السّاخن بدرجة 60 أو 70. هو الذي يُنتج الرّغوة، وهو الذي يجب إزاحته بعناية كبيرة، وإلاّ فإنّه سيترسّب عند أوّل غليان لسليقتكم، فينتج عن ذلك حساء عكِر.

تلك هي العناصر التي يحويها اللّحم الموجود في قدْركم، والذي نصحناكم بفصل عظامه.

وعندما نصحناكم بفصل العظام، لم يكن قصدنا إقصاؤها من السّليقة، بل بالعكس، فنحن نُنزلها مكاناً خاصّاً. نعمل على تكسيرها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ببيزر، علماً أنّها كلّما كُسّرت أكثر، درّت جيلاتيناً أكثر، ونضعها في كيس لِبدي مع بقايا الدّجاج والأرانب وفراخ الحجل والحمام المشويّة التي يُمكن أن تكون في حافظة الطّعام بوصفها بقايا من عشاء الأمس.

يمكنكم الآن أن تضعوا قدركم على النّار. ولعلّكم تعلمون أنّ قدر الطّين خير من القدر الحديديّة. اجعلوها تسخن ببطء، وإلاّ فإنّ اللّحم المأخوذ في حرارة كبيرة سيتخثّر ما فيه من ألبومين في الدّاخل، ممّا يحول دون ذوبان الأوسمازوم، فتحصلون على حساء بلا طعم. عندما تعلوه الرغوة ويشرع في الغليان، ملّحوه وأضيفوا إليه ثلاث أصابع جزَر أو أربع، حسب سعة القدر، وثلاث رؤوس لفت أو أربعاً، وقليلاً من الجزر الأبيض، وقبضة كرفس وبعض الكرّاث، مربوطاً ببعضه البعض. وأخيراً ثلاث بصلات إحداهما مفروكة بفصّ ثوم والأخريان بزرّ قرنفل.

إن كنتم تريدون أن تُضيفوا، إمّا إمّا بسبب نزوة أو تبعاً للعادة، قطعة من لحم الخروف أو العجل للمكوّنات التي ذكرناها، فلا تتوانوا بالخصوص عن طهيها أو شيّها قبل ذلك. وسبق لنا أن قلنا لكم السبب. هذا الحساء بحاجة إلى سبع ساعات من الغليان البطيء والمستمرّ للحصول على الميزات المطلوبة. ولبوّاباتِنا وصفٌ لهذه المدّة بليغ جدّاً؛ فهنّ يقلن: جعْل السّليقة تبتسم.

لن تعثروا على هذا التّعبير في أيّ قاموس. لكن إن حصل وصرتُ في عداد الأربعين[1]، فسأتكفّل بإدراجه ضمن معجم الأكاديميّة الفرنسيّة.

والآن، إلى شُربة الملفوف.

عندما تصل السّليقة، المُعدّة والمطهيّة وفق الشّروط التي عرضناها،

---

(1) يقصد بالطبع أن يُنتخب واحداً من أعضائها الأربعين، ولم يُحقّق حلمه هذا، بيد أنّ ابنه الروائيّ ألكساندر دوما الأبن انتُخب عضواً فيها عامَ 1874 (المُراجع).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلى ساعة طبخها السّادسة، تضعون في قدرٍ رطلاً أو رطلاً ونصف الرطل من فخذٍ مُدخّنة وتقطعون ملفوفاً إلى أربعة أجزاء لإزاحة قلبه والدّويبات التي قد تكون تسرّبت إليه والتي لا ضرورة لها في حسائكم. ثمّ تشدّونه جيّداً بخيطٍ حتّى لا تُنتزع أوراقه، وتضعونه برفق في قدركم التي توجد الفخذ في قعرها. بعد ذلك تملأون قدركم، إلى مستوى قمّه الملفوف، بذلك الحساء السّائغ، الذي يكون «ابتسم» لستّ ساعات أو سبع. وبما أنّه لا يكون متّصلاً به من اللّحم سوى الفخذ، تضعونه على نار مستعرة. بعد عشر دقائق تنشف قدركم، لأنّ الملفوف يكون قد امتصّ السّائل كلّه فيصبح أضخم بثلث ممّا كان عليه في البداية.

تملأون القدر من جديد فتنشف هذه المرّة إلى النّصف، ثم تُضيفون ماءً مرّة ثالثة. بعد ساعتين من الطّبخ تُقدّمون ملفوفكم على حدة موضوعاً على الفخذ، وفي سلطانيّتكم الحساء الذي طُبخ فيه الملفوف والفخذ مخلوطَين بحسائكم الأصليّ.

بذا تحصلون، قرّائي الأعزّاء، على حساء الملفوف الشّهير والرّائع الذي يُمكنكم أن تجعلوا ضيوفكم يتذوّقونه فيطلبون وصفته على الفور.

في موسم الطّماطم، أنصحكم بأن تُعدّوا بديلَ هذا الحساء الذي جوّدتُه أنا، حساءً آخر اخترعتُه أنا أيضاً. أقصد حساء بلح البحر والإربيان والجمبري.

القنّاص

رجل محبوب ومرح وفي صحّة جيّدة، يأكل جيّداً ويشرب جيّداً، ينام باكراً ويستقيظ صباحاً، وينام اللّيل كلّه. السّيدات عامّةً لا يُحببنه. هذا هو البورتريه الذي يرسمه للقنّاصة إليزار بلاز، في كتابه «كلب الصّيد»،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وهو أحد أكبر من وُجد من القنّاصة منذ عهد نُمرود.

ليس من هذا الجانب سأتحدّث عن القنّاص. تُشاهدون عن بعد في السّهل رجلاً مسلّحاً ببندقيّة ومصحوباً بكلب. إن تحاشاكم، فلأنّه لا يملك رخصة حمل السّلاح، أو يفتقد إلى رُخصة صيد على الأرض التي يوجد عليها، أو لأنّه لا طرائد في جراب صيده.

بين قنّاص مُجاز وقنّاص خارج على القانون

القنّاص هو من يصطاد من أجل المتعة والأكل.

أتذكّر أنّني كنت أصطاد، خلال رحلات صيدي الأولى، برفقة مُزارع اسمه موكيه. عندما كان يُخطئ طريدة، نادراً ما كنّا لا نسمعه يقول: «تبّاً! كانت ستغدو لذيذة مطبوخةً مع الملفوف». وعندما تكون الطّريدة حيواناً آخر: «تبّاً! كانت ستغدو لذيذة مصحوبةً بالبصل الصّغير!».

لهؤلاء القنّاصة الذين يصطادون من أجل المتعة والذّوق، سنقدّم بعض النّصائح، لا عن طريقة إمساك البندقيّة والتّصويب وتوجيه الكلب والمشي بعكس اتّجاه الرّيح وإنشاد لحن قصير عندما نلمح أرنباً في جُحرها، وإنّما عن طريقة وضع الطّريدة المقتولة في جراب الصّيد.

لجراب الصّيد، والقنّاص يعرف ذلك، قسمان، أحدهما من الجلد والثّاني عبارة عن شبكة. الجزء الجلديّ مُخصّص لأن توضع في الجيوب الصّغيرة الموجودة فيه رخصة حمل السّلاح ورخصة الصّيد والكبسولات والأرانب البريّة؛ الأرانب فقط وليس باقي الطّرائد.

إن امتلأ جراب الصّياد فليعقلْ طرائده من طيور السمانى وفراخها وفراخ الحجل وفراخ دجاج الأرض، إلى الخارج بحبال تمرّ عبر سرْدات الجراب؛ وليُخصّص الشّبكة للحجل ولدجاج الأرض وباقي الطّيور

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الضّخمة التي لا يُخشى اندعاكها بعضها ببعض. وليحرص، إن كان الجوّ حارّاً، على ألّا يضع أبداً الأرنب في القسم الجلديّ إلاّ بعد أن يجعلها تتبوّل.

وليتجنّب أيضاً وضعَ حجلٍ أو فرخِ حجلٍ في الشّبكة دون أن يعمل، بمساعدة غصن صغير، على إزاحة معيّه الغليظ.

وليسْعَ كلّ صيّاد لا يعرف كيف يقوم بذلك، إلى تعلّمه من صيّاد آخر أكثر معرفة.

وصيّة هامّة: على الصّياد ألّا يرمي طائر سمانى عن أقلّ من عشرين أو خمس وعشرين خطوة، وإلاّ فإنّ لحم السمانى شديد الرّقة، ومتى مزّقته قذيفة البندقيّة لن يصل، إن كان الجوّ حارّاً، إلى المنزل في حالة قابلة للأكل. لذلك يكون أحسن أن نُخطئ طائر سمانى نعثر عليه لاحقاً، من أن نجعله في حال غير قابلة للاستهلاك.

الإيطاليّون، في هذا المجال، أجود عتاداً منّا. فهم يملكون أجربة صيد تترك شبكاتُها، المصنوعةُ من السّوحر، للهواء فسحةً يمرّ منها، كما أنّها لا تضغط على الطّرائد. ولا يفقد الصّياد بذلك شيئاً من كبريائه. كما أنّ ثقوب السّوحر تسمح برؤية الوبر والريش، كما تسمح بذلك عيونُ الشِّباك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نبذة عن المؤلَف:

ألكساندر دُوما (1802-1870) روائيّ فرنسيّ معروف بغزارة إنتاجه وبكونه رائد الرّواية التاريخيّة. كان أبوه أفريقيّاً من جهة والدته، خدم في جيش فرنسا إبّان الثورة وفي عهد نابليون بونابرت، وهو أوّل عسكريّ خلاسيّ يرتقي إلى مرتبة جنرال في الجيش الفرنسيّ قبل أن يستقيل منه. فقدَ دُوما والده وهو في سنّ الرابعة فعنيت أمّه بتنشئته. تقرّب من أدباء التيّار الرومنطيقيّ، وبدأ بكتابة مسرحيّات هزليّة ثمّ اتّجه إلى القصص التاريخيّ وروايات مغامرات الفرسان، مستعيناً في بعض أعماله بكتّاب مُساعدين كانوا يساهمون في التحضير لها. من أشهر رواياته «الكونت دو مونت كريستو» و«الفرسان الثّلاثة». نُقلت رفاته إلى مدفن العظماء (البانتيون) بباريس بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لولادته، في 30 تشرين الثاني/نوفمبر 2002. يُدعى أحياناً «ألكساندر دوما الأب» تمييزاً له عن نجله «ألكساندر دوما الابن»، وهو أيضاً روائيّ غزير الإنتاج، عمله الأشهر هو «غادة الكاميليا». وقد نشر مشروع «كلمة» في سلسلة مختاراته من أدب الناشئة الفرنسيّ ترجمة راوايتين لألكساندر دوما ومجموعة قصصيّة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نبذة عن المترجم:

محمَد بنعبود من مواليد إقليم تطوان بالمغرب، سنة 1957. حاصل على الإجازة في اللغة العربية من كلية آداب فاس، وعلى دبلوم كلية علوم التربية بالرباط. من أعماله في ميدان الترجمة: روايتا «المصريَة» و«ابنة النيل» لجيلبرت سنويه، وروايتا «اغتيال الفضيلة» و«مخالب الموت» لميلودي حمدوشي، وكتاب «الرَاحل على غير هدى، شعر وفلسفة عرب ما قبل الإسلام» لسلام الكندي، ومجموعة دراسات نقديَة لميلان كونديرا بعنوان «لقاء»، ومجموعة حكايات للأديب المالي أمادو همباطي با، عنوانها «لا وجود لخصومات صغيرة»، وللكاتب ذاته «حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة انجدو ديوال»، وثلاثة كتب للناشئة لألكساندر دوما صدرت عن مشروع «كلمة» في 2013 («كسَارة البندق» و«عصيدة الكونتيسة بيرت» و«بياض الثلج وحكايات أخرى»). وضع دراسات تربويَة وسيناريو فيلمين تلفزيونيين: «وتسقط الخيل تباعاً» و«غزل الوقت»، إنتاج القناة الثانية المغربية، 2003-2004، ونشر رواية بعنوان «قصبة الذئب» (2013) ومجموعة قصصية بعنوان «تجاويف» (2013).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

طرديّات (نصوص في الصيد)

كثيراً ما عشت مع حرّاس الغابات، وكثيراً ما عايشت البحّارة، فلاحظت دائماً وجود تجانس كبير بين هذين النّوعين من البشر. هؤلاء وأولئك، بعامّة، هادئون وحالمون ومتديّنون. غالباً ما يبقى البحّار أو حارس الغابة جنباً إلى جنب مع صديقه الأثير، فيُبحر أحدهما أربعين عقدة بحرية أو أكثر في المحيط، ويقطع الآخر ثمانية فراسخ ويزيد في الغابة، دون أن يتبادلا أدنى كلمة، ودون أن يبدوَ عليهما أنّهما سمعا أيّ شيء، ومن غير أن يظهر عليهما أنّهما رأيا شيئاً. ومع ذلك، لا تمرّ جلبة واحدة في الفضاء دون أن تلتقطها الأذن، ولا تهزّ حركةٌ واحدةٌ لُجينَ الماء أو أوراق الشّجر دون أن يكون للنّظر لها تقدير... ثمّ، عندما يتبادلون الحديث في مُخيّم غابيّ أو قرب النّار المتأجّجة بالجمر والشّرر، كمْ ينطلق في الحكي، لمدّة طويلة وبطريقة آسرة، هؤلاء الأشخاص الهادئون والحالمون والصّامتون؛ الحرّاسُ يتحدّثون عن حملات قنصهم، والبحّارة عن رحلات صيدهم! كم تجعل أشعار الغابات العظمى هذه، وأشعار عَرض المحيطات تلك، والتي اندلقت عليهم من قمم الأشجار أو من أعلى الأمواج، كم تجعل لغتهم ساذجة ومكتنزة بالصّور في الأوان ذاته! كم هو بسيطٌ كلامهم وعظيم! كم نُحسّ أنّه هناك يُقيم من انتخبته الطّبيعة والصّمت، والذي يبدو وكأنّه نسيَ لغة النّاس، كي ينطق بلغة الرّيح والأشجار والسّيول والعواصف والبحر!

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة

كلمة
KALIMA

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 173168

www.kutub-pdf.net